

الحزب الأوربي

تعريب
اميل زيدان
محرر الهلال

تأليف
العلامة الدكتور
جوستاف لوبون

نشوء ألمانيا الحديثة
اسباب الحرب البعيدة والمباشرة
اثر العوامل النفسية والمعنوية في المعارك
تقلب الذاتية . الضغائن الجنسية
العوامل الاقتصادية والعاطفية والروحانية
في منشأ الحرب
مجهولات الحرب . الصلح . المستقبل

مطبعة الهلال بالقاهرة مصر

سنة ١٩١٦



الدكتور جوستاف لوبون

مقدمة

كيف ولماذا نشبت هذه الحرب ؟
ما هي العوامل البعيدة التي هيأت الدول الاوربية لخوض غمارها ؟
اين مصدر الشرارة التي اضرمتها ؟
ما هي العقائد والفرائز والعواطف التي ثورت الجماعات الاوربية حتى
دفعتها الى هذه المجزرة الفظيعة ؟
علام يقف النصر في المعارك — قديماً وحديثاً ؟
من أي العوامل تكون مزاج الالمان العقلي ؟
ما هي المبادئ التي تعتمد عليها هيئة اركان الحرب الالمانية ؟
ماذا يحل بالعالم بعد الحرب ؟ هل يرجى سلام دائم أم قد كتب
للانسانية ألا تجوز حدود الحيوانية ؟

تلك اسئلة تخطر لكل متبصر في هذه العاصفة الجنونية ، التي هبت على
العالم فزعزعت اركان الدول وهددت كيان المدنية . وقد تصدى غير كاتب
للاجابة عنها او عن بعضها ولكننا لا نعلم كاتباً جمع من الفوائد الثمينة والآراء
السديدة كالدكتور جوستاف لوبون في كتابه هذا ^(١) . فاننا لم نكد نطالع

(١) اسمه التام « التعاليم البسيكولوجية للحرب الاوربية » وبالفرنسية :

Les Enseignements Psychologiques de la Guerre Européenne, par le Dr.

Gustave Lebon.

حتى عزمنا على نقله الى العربية وجعله ملحقاً للسنة الرابعة والعشرين للهِلال^(١) والذي يميز كتب الدكتور لوبون انها تطرق الموضوعات العلمية الراقية والمباحث الفلسفية العامة بعبارة واضحة جلية يستطيع فهمها جمهور القراء . وعليه ينطبق قول احدهم عن الفيلسوف وليم جيمس الاميركي « انه يكتب الكتب الفلسفية كأنها قصص فكاهية »

الدكتور لوبون من طبقة العلماء الذين لم يقصروا بحثهم على موضوع ضيق او فرع محصور من العلوم والفنون . فهو يحيط بظواهر الحياة الاجتماعية جميعاً ، يتحدث عن باطنها وظاهرها وعن جوهرها وعرضها . ثم لا يفوته وهو يبحث في باب منها ما لساثر الابواب من الاثر في حياة الانسان . وذلك ما يعزب عن بال الكثيرين من العلماء في هذا العصر — عصر التخصص المتناهي — اذ ترى العالم يحصر عقله طول حياته في مجال لا يتعداه حتى يصبح وهو لا يحفل بمبحث غير مبحثه الخاص

لا نريد بذلك ان ننكر الفوائد التي جناها العالم من تقسيم العمل والتخصص في البحث . فهما من الشروط اللازمة للرقى الاجتماعي . وانما التطرف في هذا الباب — بل وفي أي باب لا يضل التطرف — يحول النظر عن المسائل العامة الجوهرية الى المسائل الخاصة العرضية . وقد اشتهر علماء الالمان بالمغالاة في التخصص

قال احد الكتّاب الاجتماعيين « لو حسبنا ان الدور التاريخي للبشرية يبلغ

(١) وليست هذه اول مرة يعنى الهلال بتأليف الدكتور لوبون فقد لخص وترجم غير مبحث من مباحثه الشائقة

عشرة آلاف من السنين فان تقدم الاجتماع في القرن الماضي وحده يوازي تقدمه في القرون السابقة جميعاً . هذا امر ثابت لو نظرنا الى التقدم المادي في الصناعة والزراعة والتجارة . ولكن ماذا عسى ان نقول عن التقدم الادبي والمعنوي ؟ ألا ينبغي ان تعد الحرب الحاضرة - مثلاً - رجوعاً الى الوراء ؟

لا ريب في ان هذه الحرب هي للروح الوحشية المستقرة في الطبع البشري فوز على الروح الملكية السامية التي تدفعه الى التخلص من نير الهمجية والتحرر من سلطان غرائزه الحيوانية . فالانسان مزيج هذين العنصرين : العنصر الحيواني والعنصر الملكي . وهما في نزاع دائم بين هجوم ودفاع ، وبين تغلب وانكسار . والنفس البشرية اشبه شيء بالرقاص المتنقل بين الجهتين على الدوام

ولكن ألا نستطيع ان نجد في تلك الحركة المتواصلة نزوعاً خفياً مستديماً الى جهة دون جهة ؟ أو أليس للتطور الانساني - على الاجمال - متجه معين يتجه اليه صعوداً أو هبوطاً ؟

اننا نعتقد على الرغم من الازمات التاريخية التي تغلبت فيها الغرائز الحيوانية ، وعلى الرغم مما نشاهده اليوم في ارقى الجماعات البشرية من دلائل الهمجية - نعتقد أن الانسانية سائرة سيراً حثيثاً الى الامام . والله در ذلك المؤرخ الفيلسوف - واطنه مومسن - الذي شبه مجرى التاريخ بعامود لولبي مائل : فانك لو وضعت اصبعك على الحد اللولبي البارز وترقيت بها من اسفله الى اعلاه لوجدت اصبعك تارة تكون تحته وتارة تكون فوقه ، أي ترتفع طورياً وطوراً تنخفض ولكن النتيجة النهائية انما هي الصعود . وعلى هذا المبدأ يستعمل المزارعون لولب ارمخيدس (المسمي

عندهم بالبدالة او الطمبور) فيرفعون به الماء من مجراه لاستخدامه في الزراعة . كذلك الانسانية صاعدة بلا ريب وان تخلل صعودها هبوط من حين الى حين

فلا ينبغي لنا أن نياس اليوم ازاء الفضائع التي ترتكب في ميادين القتال . فلاشدة الا ويخلفها فرج ولا عناء الا ويتبعه راحة — وبضدها تتميز الاشياء

على اننا لسنا من القائلين بان « هذه الحرب نهاية الحرب » فسوف يقع الناس في ازمة ضيق وشدة قد تفوق المأساة التي تمثلها الدول الاوربية اليوم هولاً وفضاعة . ولكننا مع ذلك نرى ان الانسانية في ترقٍ وصعود — بل يترأى لنا كما قال الدكتور لوبون « ان الامم كلما دخلت في طور معين من حياتها لا تستطيع ان تتقدم وترتقي الا بفعل تلك الانقلابات العظيمة ، ولعلها ضرورية لترفع عن الامم ضغط الماضي الثقيل ولتحررها من اوهام وعادات تأصلت فيها »

ان « التكيف وفقاً للبيئة » سنة رئيسية لجميع المخلوقات الحية افراداً وجماعات . فلا يستطيع انسان ان يعيش في وسط — مادياً كان او نفسانياً — مالم يندمج فيه ويتشرب روحه ، والا لفظه الوسط وانكره . كذلك الشعوب لا تستطيع ان تنمو مالم تتدبر محيطها وتدرك ميزات عصرها وتتخلق باخلاق زمانها ، ولا سيما في هذا العصر وقد توثقت روابط الشعوب وتوافرت وسائل الاتصال المادي والفكري . وان اشد الصفات خطراً على الشعوب الوقوف والجمود فانهما نذير التقهر والانحطاط

لقد أصيب الشرق منذ زمن طويل بجمود عم جميع أعضائه - جمود في اللغة ، جمود في العادات والاخلاق ، جمود في النظام الاقتصادي ، جمود في الدين ، جمود في التربية والتعليم ، جمود في جميع أركان الاجتماع . فليس الغريب مع هذا الجمود الشامل ان يكون الشرق على ما هو عليه من التقهر ، بل الغريب ان يظل فيه رمق من الحياة !

يؤثر عن مريض اعياء المرض واضناه الداء ان قد جاءه الطبيب ووصف له ان يتناول بعض الادوية وان يقتصر على مأكولات قليلة وأن يعيش عيشة منتظمة وان .. وان .. الخ . . . فسأله المريض « واذا فعلت كل ذلك فماذا اربح ؟ » قال الطبيب « تعيش سنتين » فقال « واذا لم افعل ؟ » قال « ربما عشت اسبوعين » فقال المريض « والله لاني اكون حياً التذ بالعيش اسبوعين خير من ان اكتفي بالوجود المجرد سنتين »

قضى الشرق دهوراً وهو في حكم الوجود فقط لا في حكم الحي ، وشتان بين الحالتين ! فان الشرط الاول للحياة التطور والتكيف والتبدل وفقاً لتقلب الزمان والمكان . وما برح ذلك التقلب يتزايد شدة مع تقدم المدنية واحكام الروابط بين الامم حتى يكاد لا يمضي عقداً الا ويطرأ على العالم بعض العوامل الجديدة والآراء المستحدثة . فكيف به بعد هذه الحرب الضروس وهي فاتحة لعهد انقلابات عظيمة في التاريخ البشري

فاذا ادركنا ذلك و اردنا أن نحيا حياة حقيقية وجب علينا الانحسار العوامل والآراء الجديدة بل وجب ان ننفض في ماضينا البالي روحاً حديثة تبعث فيه الحياة والنشاط . فان العالم يسير على قدمين : القديم والجديد . ولا تقوم المدنية باحدهما دون الآخر . وان من دلائل الانحطاط الاجتماعي

ان يعيش قوم في القرن العشرين بعقل وعادات وأخلاق هي أجدر
باهل القرون الوسطى

ولياذن لنا القارىء، الآن ان نشير الى نقل هذا الكتاب من الفرنسية
الى العربية، فنقول ان رائدنا كان «الوضوح قبل كل شيء». ويعلم الجميع تلك
العقبات الجمة التي تعترض ناقلي المباحث العلمية الحديثة من اللغات الاوربية.
فان بعض الكلمات الاصطلاحية عندهم قد تؤدي الى ذهن قرائهم معنى
جلياً محدوداً في حين انه لا يؤدي في العربية بكلمة واحدة بل ولا بكلمات.
على اننا قد بذلنا جهدنا في نقل آراء المؤلف بما في وسعنا من الوضوح
والجلاء.

ولا بد لنا من الاشارة الى اننا الجئنا الى اختصار بعض الفصول
لظروفنا الخاصة (ولا سيما الاقوال التي جمعها الدكتور لوبون واستشهد بها)
وبسطنا القول في فصول أخرى، مما يستدعيه الفرق بين الجمهور الفرنسي
والجمهور العربي. على ان ذلك التصرف لم يلحق الا الامور الثانوية. أما
أفكار الدكتور لوبون الجوهرية ومراميه الرئيسية فلم يلحقها تغيير ولا تبديل.

اصيل زبدان

تمهيد

ليس غرضي من هذا الكتاب درس حوادث الحرب الاوربية ، وانما الذي أرمي اليه استقصاء الظواهر النفسية التي أدت اليها والتي رافقتها منذ نشأتها . فث تدوين وقائعها بانصاف واخلاص ليس بيسور لنا اليوم وان الاهواء لا تزال متسلطة على نفوسنا . ولا يتسنى للأجيال التي تخلق التاريخ ان تدونه ، ولا بد من فترة تمر بعد انتهاء المآسي البشرية حتى يتمكن الانسان من استكشاف سرها وادراك حقيقتها . فان التاريخ لا ينصف الا الموتى

ان وراء الحوادث المنظورة التي تجري في ميادين القتال قوى ودوافع غير منظورة توجدتها وتسيّرهما . فالى تلك القوى الكامنة ، والى تلك الدوافع الخفية ترجع اسباب الحرب . وما القصد من هذا البحث الا كشف القناع عن هاتيك المعالم المجهولة ليس من المعقول ان تشب حرب كهذه عن ارادة رجل واحد ، فهناك اسباب عميقة بعيدة ما برحت تتراكم شيئاً فشيئاً منذ زمن بعيد حتى انفجرت دفعة واحدة . ولكي نفهم منشأ هذه الحرب لا بد لنا من الرجوع الى الحوادث التي سبقتها — ولا سيما درس تطور الروح الالمانية الحديثة — فان سلوك الامم موقوف على عقائدها وآرائها وعواطفها ، وبعبارة أخرى موقوف على مزاجها النفسي

ان هذه الحرب نزاع بين قوى نفسية متناظرة ، وبين عقائد سياسية متنافرة : ففريق يحترم حقوق الشعوب ويبرر بوعوده ووعوده وفريق يجعل الحق للقوي معتقداً ان الواجب عليه السيطرة على الضعيف ، فريق يتمسك بحرية الشخصية آراء سلطة الجماعة وفريق لا يعترف للفرد بحق الا ما يخوله اياه المجموع ، وبعبارة أخرى فريق يرى الدولة لمنفعة الافراد وآخر يرى الافراد لمنفعة الدولة

وليس مذهب تأليه القوة من مبتكرات الشعب الالمانى . فقد كان رائد العالم قديماً

وما برحت روح المدينة منذ التي سنة تهذبه وتصفه شيئاً فشيئاً . فإذا فاز الالمان فكأنهم سيرجعون ادياً بالعالم الغربي الى عهد همجيته حين لم يكن للحق أساس الا القوة . الى ذلك الزمن الذي اوشكت الانسانية ان تنساه — أيام كان الضعيف مهضوم الحقوق موطوءاً تحت الاقدام ، ذلك الزمن الذي كان فيه المطمح الاعلى للام انما هو الفتح والنهب والتخريب . ولقد كان من الوهم العقيم ان يسود الاعتقاد بان تقدم المدينة يمنع نشوب الحرب

والذي يزيد خطر المذاهب الالمانية انها اتخذت في مخيلتهم صورة شبه دينية فأصبحوا يعدون تفوقهم على سائر الشعوب نعمة الهية خصوصاً بها ، ويعتقدون ان الله قد أرسلهم في الارض لتطهيرها مما علق بها من الأدران

ان آلهة الشعوب وعقائدها لا تعبر فقط عن أحلامها وأوهامها ، بل هي للعاقل درس يستخلص منه حاجاتها وأحقادها وعواطفها . وهذا الدرس انما يستفيده المتبصر في حالة الالمان النفسية وفي مطاعمهم وآمالهم . فلها من قبيل العقائد الروحانية التي كانت لها تأثير عظيم في التاريخ ، والتي طالما ضحى الناس في سبيلها بارواحهم وممتلكاتهم

ولا شك ان هذه الحرب تشبه في جوهرها الحروب الدينية القديمة ، فقد جمعت كل ميزاتها ولا سيما بعدها عن أحكام العقل . ولو كان للعقل ادنى سلطان على آراء الملوك والشعوب لما حيي وطنيسها ولا ذكا أوراهها

فنرى مما تقدم انه لا يتيسر ادراك حقيقة هذه المأساة الاوربية بالرجوع الى أحكام العقل الصحيح . لاننا اذا تمسكنا بالقياس العقلي في استجلاء غوامضها وقفنا دهشين أزاء غرابة الحوادث وتناقضها : انظر الى امبراطور المانيا الذي حافظ على السلم خمساً وعشرين سنة كيف دخل مرغماً في نزاع لم يشأه كأنه مدفوع بقوة لا ترد . وهذا الشعب الالمانى الذي بلغ في ميدان الرقي المادي والادبي شأواً غبطته به الامم الاوربية الاخرى رأيناه يستقبل بفرح عظيم خبر حرب سوف تجر عليه الخراب والدمار . وأي شيء أغرب من ان نرى رجالاً متهذبين متعلمين يحرقون المدن والمكاتب التاريخية والآثار الفنية

ثم اذا انتقلنا الى الدول الاخرى وجدنا فيها من غرابة الحوادث ما لا يقل عما طرأ على المانيا : انظر الى الشعب الفرنسي الذي اشتهر بشدة تأثره وتقلبه وكثرة تحزباته كيف اتحدت عنانمره فجأة وتحول الى شعب جلود يتفانى في سبيل الوطن او ليس من الغريب ان نرى أمة صغيرة كبلجيكا لا تجبن أمام تهديد المانيا ثم تقدم على محاربتها في حين انها تعلم فشلها وضعفها أزاء ذلك العدو الجبار ؟

انه ليتعذر شرح تلك الظواهر وما هي عليه من التناقض بأحكام العقل ، ولا يسمعنا الا الاعتراف بعجزها عن تعليل مثل هذه الحرب الضروس . ونحن اعتمد العالم في معمله على القياس العقلي في استجلاء غوامض الكون ، فان من الجليل تعليل الحوادث التاريخية بالاقصار على أحكامه وقوانينه . وليس يفوتنا ان في الانسان فضلاً عن العقل والتميز قوى ودوافع لها القسط الاوفر في توجيه مجاري التاريخ ، وفي مقدمتها العواطف والاهواء البشرية وروح الجماعات والعقائد الروحانية والسياسية

ولما كانت حقيقة تلك القوى لا تزال مجهولة ، فان المؤرخين ما برحوا يقيسون مجاري التاريخ على احكام العقل ، كأنهم يجعلون حوادثه متسلسلة الاسباب والنتائج كالقضايا العلمية ، فلا عجب ان تكون تعليلاتهم بعيدة عن الحقيقة

الحرب الاوربية بدء عهد انقلابات عظيمة في المعيشة وفي العقائد وفي العواطف . ولعل الانسانية قد بلغت اليوم احدى تلك النقط التي يتحول فيها مجرى التاريخ وتتغير عندها مظالم الابصار والقلوب

ان الامم الآن لمدفوعة نحو مستقبل مظلم ليس فيه بصيص من النور يضيء ظلمته ، فهي تحت سلطان الجهول الذي لا يمكن التنبؤ به . ولقد أصبحت بعض العقائد السياسية والادبية — وهي التي ظننا الماس وطبدة الاركان — مزعزعة يهددها الوهن والسقوط . فان النظمات والمذاهب قصيرة الاجل تنمو ثم تضمحل تدريجاً فيلحق بعضها بعضاً وهلم جرّاً

على ان فلسفة السكتب والوهام العلماء لا تقوى على النهوض أمام الاعمال الراهنة ، وان من العسير ان ينصت الى الوعظ والارشاد بين قصف المدافع ودوي المفرقات

الباب الاول

ما يلزم من علم النفس لفهم هذا الكتاب

الفصل الاول

العوامل الخفية في تاريخ الامم

١ — أدوار الحياة

إذا نظرنا الى الحرب الأوروبية نظرة عرضية ملنا الى الاعتقاد بأنها مسيرة طبقاً لأحكام العقل والعلم، بدليل ما نراه من تنظيم الجيوش وتنوع الأسلحة والآلات. إلا أننا إذا تجاوزنا العرض الى الجوهر وجدنا هذا الحكم فاسداً — وإن صح بعض الصحة على الخطط الحربية في المعارك — فإن هناك قوى غير منظورة تسيّر الجنود والحكومات بل الملوك أيضاً. وإذا كانت الحرب تستخدم أسلحة مادية على مبادئ علمية فإن القوى التي تحركها هي في الحقيقة قوى نفسية

إن ظواهر هذه الحياة متشعبة يتعذر فهم كنهها وإدراك بواعثها. وغاية ما يتسنى لنا أن نقوله هو أن أعمال الإنسان — على اختلافها وتنوعها — يمكن إرجاعها الى خمسة مصادر كبرى وهي :

- ١ — الوظائف الحيوية : كالأكل والنوم والتنفس الخ. وغايتها البقاء والتمتع
- ٢ — العواطف والانفعالات النفسية : كالحب والبغض والغضب الخ.
- ٣ — العقل : كالتفكير والحكم والتمييز الخ.
- ٤ — روح الأمة ، وروح الجماعات التي ينتسب اليها الفرد . فإن أحكام العقل البشري إذا كان في الانفراد مغايرة لأحكامه إذا كان مجتمعاً

العوامل الخفية في تاريخ الأمم

هـ — العقائد الدينية وما جرى مجراها كالعقائد السياسية التي تتسلط أحياناً النفوس فتحدث أعظم الانقلابات

فلكل قسم من هذه الاقسام أحكام خاصة تختلف عن أحكام غيره . إلا العلماء ظلوا — الى مدة قريبة — يؤلهون أحكام العقل ، زاعمين أنها القياس الامثل للحياة البشرية . اما اليوم فقد أخذت الآراء تتحول عن هذا النظر الضيق بعد ما ثبت من خطورة العوامل الأخرى في حياة الشعوب . فلهذا عواطف مثلاً سنن وأحكام تسير بمقتضاها كما يسير العقل : يقتضى أحكام المنطق ، فحُب والبغض ليسا موقوفين على البراهين المنطقية ، أو بعبارة أخرى : ان للعواطف منطقاً خاصاً بها . وكذلك أيضاً أحوال الجماعات النفسية فان مداركها وعواطفها تختلف كثيراً عن مدارك افرادها وعواطفهم . ومثلها العقائد الدينية والسياسية ، فان قبولها ليس بموقوف على أحكام العقل بل على قواعد أخرى بعيدة عنه كالعدوى والارث والمصلحة والمزاج وغيرها

نعم انه بفضل أحكام المنطق العقلي يستكشف العالم الحقائق العلمية ، ولكنها قلما تؤثر في العقائد الدينية والسياسية . ولغرض كبير بين تأثير الحقائق وتأثير العقائد . فالحقيقة العلمية باردة جافة لا سلطة لها على قوى الانسان أو أحواله الاجتماعية . وذلك عكس العقيدة ، فانها تبعث فيه حرارة تجعله يقوم بأنظم الاعمال ويتعرض لأجسام الاخطار وعلى هذا يصح ان نقول بوجود منطق عاطفي ومنطق جماعي ومنطق حيوي ومنطق روحي فضلًا عن القياس المنطقي المعروف عند الاقدمين . وسندرس هذه الانواع متواليّة

٢ — العوامل الحيوية

تقتصر على اشارة طفيفة الى هذه العوامل التي تسيّر جميع الكائنات الحية . ولا يخفى ان أعظم دوافع الشعوب الجوع والحاجات المادية . وتأثيرها في التاريخ معلوم لا يحتاج الى زيادة بيان

٣ — العواطف والاهواء

يتألف خلق الانسان أو طبعه من مزيج عواطف يتوارثها عن اسلافه . وفرق عظيم بين وظيفة العقل ووظيفة الخلق في حياة الانسان . فبالاول يفهم ويفكر . وبالثاني يسلك ويعمل . فالاخلاق هي العامل الاول في حياة الافراد وفي حياة الشعوب

ولما كانت عواطف الإنسان لا تخضع لارادته فقلما يستطيع تجويز خلقه الذي هو مزيج عواطف متوارثة كما رأينا . ويكفي ان نلقي نظرة على الحياة اليومية لنوقن عجز العقل عن التأثير في العواطف والاخلاق . بل يكفي ان ننظر الى هذه الحرب لنرى كيف ان أحكام العقل واستنباطاته لم تكف لوقف الإهواء البشرية عند حدها وما ذلك إلا لان أحكام العقل غير أحكام العواطف كما قلنا . وانه لمن العبث ان نحارب عاطفة بالجدال والبرهان . وانما السهل الميسور ان نحاربها بعاطفة أخرى أقوى منها . ولا شك ان لتباين العواطف القومية تأثيراً عظيماً في توجيه مجاري التاريخ . فكل شعب من الشعوب يمتاز بمجموع عواطف متوارثة جيلاً عن جيل يجعله ينظر الى الامور نظراً خاصاً يختلف عن نظر غيره . فاذا كان بين الاسلاف تنافر فطري من حيث الاميال والمشارب اورثوه اولادهم فأحفادهم ، ومن ثم نشأ الاحقاد الجنسية المتأصلة في نفس الانسان والتي يتعذر عليه اخادها مهما يكن من معالجة عقله . ولقد كان لها اليد الطولى في منشأ هذه الحرب . فاذا تحركت تلك الاحقاد بحيث الضغائن والتحزبات الداخلية . ويصدق هنا قول ابقراط اليوناني « اذا أحس الانسان ألمين أو عاطفتين من نوع واحد فان أقواهما يمحو الآخر » . فقد كانت دول الحلفاء كثيرة التحزب والشقاق حين نشوب الحرب ، ولسكنها نبذتها بسرعة غريبة حين أحسست الخطر الذي يهدد حياتها القومية .

فمن حدوث هذا التغيير فجأة في جميع الدول (ولا سيما في انكلترا حيث كانت المشكلة الارندية تنذر بالحرب الداخلية ، وفي روسيا حيث تفاقمت الاضطرابات والقلق الفوضوية والثورية) نستدل انه نتيجة سنة نفسية عامة يجب ان لا تبرح من اذهان رجال السياسة . ولكن الالمان قد جهلوا في اول هذه الحرب ولو حسبوا لها حساباً لما اعدوا ذاك الشقاق من عوامل النصر

٤ - الروح القومية

روح الفرد قصيرة الاجل . أما روح الامة فلا تخاف الموت ، لانها نتيجة ماض طويل . وما تاريخ الشعوب المتمدية الا تاريخ مساعيهم للحصول على روح قومية ثابتة تسمو على ارواح الافراد . فبهذه الروح القومية فقط تخرج الامم من الهمة

وتتقدم نحو الرقي والكمال . وبفضل الروح القومية نجد افراد الامة الواحدة على الاجمال يتشابهون قولاً وعملاً في المواقف الخطيرة . وقد قيل ان الموتى أشد تأثيراً من الاحياء في توجيه مجاري التاريخ ، لان الاحياء انما استمدوا منهم اخلاقهم وآدابهم وعقائدهم

فكان لكل فرد روحين : روحه الفردية الميالة الى الابتكار ، وروحه المشاركة لبني وطنه وهي التي تميل به الى ان يكون لهم مشابهاً ونظيراً
واذا كانت روح الامة المستقرة في اعماق النفس لا تظهر في الاوقات العادية فانها تقود الشعوب متى كانت حياتها مهددة فتتمحي أمامها الشخصيات الفردية . ولما كان من الواضح الجلي ان ينشأ الفرد محباً لذاته كانت هذه العاطفة هي التي تحركه عادة . ولكن متى استيقظت الروح القومية نبذ حب الذات جانباً . واندفع بدافع لا يرد يذود عن حياة امته ويفنى في الدفاع عنها

٥ -- روح الجماعات

تلك هي الروح القومية الكامنة في اعماق النفس . ولا بد لنا الآن ان نميز بينها وبين روح الجماعات التي سندرسها فيما يلي : فالاولى ثابتة لا تتغير ، اما الثانية فوقية تتكون عندما يجتمع الانسان بأمثاله في مجتمع أو مجلس الخ . فيطرا على عقله وعواطفه وارادته من هذا الاجتماع مجرد تغيرات خطيرة

فقد ثبت اليوم ان عقل الانسان منفرداً يختلف عنه مجتمعاً ، فكما ان خلايا الجسم تولد بمجموعها ذاتاً مستقلة ومختلفة عنها ، كذلك تختلف نفس الجماعات عن نفوس الافراد الذين يكونونها في أحكامها ومنطقها . ومن المؤكد ان الانسان الراقى مجتمعاً أخط منه منفرداً من حيث المدارك العقلية ، ولكنه من حيث العواطف أشد تأثراً وانفعالاً . ومن مميزات الجماعات انها لا تمارس بعض العواطف التي يعرفها الافراد كمعرفة الجليل مثلاً . ولكنها تساعد على انماء عواطف اخرى لدرجة عالية جداً كالنضحية في سبيل الغير والشجاعة ونحوهما . ومن مميزاتهما ايضاً سرعة العدوى بين أفرادها وسرعة الانقلاب ، فقد تتحول في لحظة من العبادة الى البغض

وعلى الاجمال يصح القول بأن الرجل السامي ينحط بالاختلاط ، وعكسه الرجل المنحط فانه يرتقي به

والجماعات سهلة الاخذ بلاوهم ، فاذا ما تسلط وهم على مخيلة الجماعة أصبح في قوة حقيقة راهنة عندها

ولا بد للجماعات من قائد يتسلط على افكارها ويستهيئها . وقادة الجماعات يتعمقونها بطرق خاصة توافق منطق الجماعات وتختلف عن طرق القياس العقلي ، وفي مقدمة هذه الطرق : التأكيد والتكرار والعدوى والظهور بمظهر العظمة . غير ان بعض العلماء اليوم ينكرون هذه الحقيقة ويدعون ان قادة الجماعات ليسوا الا ممثلين للرأي العام يستمدون منه اقوالهم وأعمالهم . والذي نراه ان الرأي العام اذا تكوّن وتشرب فكرة قاداته تشرباً كاملاً أصبح ذا قوة هائلة فيؤثر في قاداته بعد ان أثروا هم فيه . ولا ريب عندنا ان مرجع آراء الجماعات انما هو آراء بعض الافراد

ومهارة رجال السياسة والحكومة موقوفة على مقدرتهم من هذا القليل . فليهم تكوين الرأي العام واستمالته اليهم . ومما لا شك فيه ان حكومة المانيا قد عرفت هذه الحقيقة فسعت لتحكم الرأي العام الالمانى بواسطة الصحف والجمعيات وغيرها ولقد تم لها ذلك . بل انها كما لا يخفى قد بذلت ما لها ونفوذها لاستمالة الرأي العام في الدول المحايدة كذلك

ويشبه الجماعات المجالس والجمعيات الكبيرة فان لها نفس الخواص النفسية كسرعة التأثر وشدة الانفعال وسهولة الانقياد والخضوع للقادة الخ . ومن الظاهر الجلي ان الدول المتعدنية قد وكلت جميع شؤونها الى مثل هذه المجالس فهي تسن الشرائع وتقر القرارات التي يقف عليها عمران البلاد ومستقبلها . ولكن لهذه المجالس فوائد من وجوه أخرى ، فانها تستجلي الغوامض السياسية وتقف رجال الحكومة عند حدهم خشية ان ينقدوا افعالها ويعيدوا اعمالها

وتزداد سلطة الجماعات زيادة كبيرة في وقت الاضطرابات الوطنية كالثورات والحروب فيصبح — اذ ذلك — تيار الرأي العام قوياً جارفاً لا يستطيع أعقل العقلاء ان يقف في سبيله أو يؤثر فيه أدنى تأثير . أما في وقت السلم فان الجماعات تنقاد غالباً لآراء النخاسة

خارج عن السنن الطبيعية ، واعتقاده بتأثير قوى غير بشرية في مجرى التاريخ .
فلهذه العوامل الروحانية تأثير كبير في حياة الشعوب واليهما كان ينسب الاقدمون جميع
الظواهر الطبيعية

على أن تأثير هذه القوى ليس بمقصود على الحياة الدينية بل قد ينال الحياة
السياسية ايضاً — وفي السياسة والاجتماع عقائد ومذاهب لا تقل عن العقائد والمذاهب
الدينية تسلطاً على عقول البشر — حتى انه لم يجد التعصب لحزب سياسي أو مذهب
اجتماعي (كالأشتركية والفوضوية) أشد من التعصب الديني في بعض الاحيان
ولا تتكون العقائد الروحانية على أنواعها من أعمال الفكرة والمجادلة ، اذ لا سلطة
للعقل عليها لا في منشأها ولا في زوالها ، وانما هي تنشأ عادة بطريق الاستهواء والعدوى
فتظهر للمؤمنين بها كأنها حقيقة ثابتة لا يجوز الارتياب فيها ، وغير خاف ما لمثل هذه
العقائد من السلطان الشديد على الافراد والجماعات ، والتاريخ أوضح برهان

ثم ان الدوافع الروحانية لا تعبأ بملاديات كما انها لا تعبأ بالقياس العقلي . فمتى كان
الانسان تحت سلطانها نسي الالم والانانية ، وقد لا يتردد في اهلاك مضاده — ولو
كانوا من اهل — نصرًا لآيمانه وهو يعتقد انه يأتي عملاً يستحق عليه كل مدح
وثناء . وبسبب تلك العوامل الروحانية يستشهد الكثيرون من الناس في سبيل عقائدهم
سواء كانت وطنية او اجتماعية أو سياسية

وبفضل العدوى العقلية يسرع انتشار العقائد الروحانية فيزداد بانتشارها ايمان
الواقعين تحت سلطانها . وما برحت تلك العقائد من اكبر أسباب القوة لدى الشعوب .
يدلك على ذلك اعتقاد اليهود في التاريخ القديم والعرب في الاجيال الوسطى والامان في
الوقت الحاضر بانهم شعوب مختارة من الله

ولا يخرج أحد من الناس — مهما يكن مستنير العقل — عن حكم تلك العوامل ،
حتى أعقل الرجال فأنهم يؤخذون كغيرهم في تيار العقائد العامة فيعجزون عن ادراك
حقيقة الواقع

وسرى انه كان للعوامل الروحانية مقام عظيم في منشأ الحرب الاوربية ، كما كان لها
فيما مضى . فلاشك انه كان لايمان العرب المستجدين عليهم شأن عظيم في فتوحاتهم . ومثلهم

الصلبيون فلهم انما جاوا الشرق تأييداً لعقيدة وطلباً للاستيلاء على قبر المهيم . وقس على ذلك امثلة اخرى كثيرة

ولاريب ان العوامل الروحانية هي أقوى العوامل التي تسيّر الانسان . فهي خالقة الاوهام الكبيرة التي تشاد عليها ممالك وتهدم من أجلها ممالك

وقد يظن اهل العالم الحديث انه لم يعد لتلك العوامل تأثير فيهم نظراً لانتشار العلم . والحقيقة انها في هذا العصر أقوى منها في أي عصر سلف وأشدّ تسلطاً على نفوس الناس واذا كان لهيب الحرب يمتد اليوم من مشارق اوربا الى مغاربها ، وكان نخبة شبانها يستشهدون في ساحات القتال وقد عمّ الحزن والبكاء والحراب ، فما ذلك الا لأنه قام شعب يدعي الامتياز والتفوق على سائر الشعوب ويعتقد انه مختار لتنظيم العالم واصلاح الذي فسد فيه

الفصل الثاني

تغير الذاتية

١ — في ثبات الذاتية ونهولها للتغير

ما زال علماء النفس منذ القدم يعدون الانسان مؤلفاً من جوهرين منفصلين انفصالاً تاماً : الجسم والروح . وكانوا يعتبرون الروح أو النفس ذات أقسام محدودة معروفة قلما يطرأ عليها تغيير . أما اليوم فانه يتعذر على العالم الباحث التمسك بمثل هذا الرأي لان المباحث الحديثة قد دلت على الارتباط المتين بين الجسم والعقل وتقصت مذهب وحدة الذاتية . فعقل الانسان مؤلف من قوى مختلفة قابلة للتغير وباجتماعها تتكون الذاتية

فما دامت البيئة التي يعيش فيها الانسان لا تتغير فان تلك القوى تحفظ توازنها، ولكن متى تغيرت البيئة اختلف التوازن القديم وقم مقامه توازن جديد — أي ذاتية جديدة . او بعبارة أخرى ان ثبات الذاتية موقوف على ثبات البيئة ومثل هذا التغير كثير الشيوع في وقت الانقلابات التاريخية الكبرى فان ذاتية الناس تتغير عندئذ تغيراً عظيماً . كما حصل في الثورة الفرنسية مثلاً ، فيتحول أعقل الناس الى مخلوقات فظيعة : فقد كان رجال الثورة من خيرة الناس ولكنهم اتوا أعمالاً منكرة وحشية

ولا حاجة بنا ان نرجع الى التاريخ لتوثق من صحة ذلك . بل يكفي ان نلاحظ ما يجري اليوم من الانقلابات النفسية الغربية في الشعوب المتحاربة . فلم يكن أحد يتوقع مثلاً توحش الالمان ولا ثبات الفرنسيين

ان مذهب ثبات الذاتية القديم لا يزال كثير الانتشار ، فترى الناس يستهجنون تغير سلوك البعض عند انتقالهم الى وسط جديد . ولكن الغريب ان لا يتغير سلوكهم لان تغير الاحوال قد جعلهم أشخاصاً آخرين

على ان هذا التغير قد يكون طفيفاً في بعض الاحيان فتضطرب الذاتية قليلاً من غير ان تنقلب انقلاباً تاماً . وكل يعلم كيف يتغير نظر الانسان الى الامور في احوال المرض والفرح والحزن

فترى ان ذاتنا قابلة للتغير ولولا الروادع الاجتماعية التي تشل حركة الانسان لكان ذلك التغير أجلى ظهوراً . فان القوانين والشرائع والعادات تمنع الانسان اتيان اشياء كثيرة . فلك الروادع هي شرط ضروري لبقاء المدنية وثباتها

وكثيرة هي الامثلة التاريخية التي تبين تطور الذاتية اثناء الحروب والثورات حين يقل الضغط الاجتماعي على الغرائز المستقرة في الطبع البشري

ولقد شهد العالم مذهولاً ماتم في الحرب الاوربية من الاعمال الوحشية التي اُتاهها شعب ذو حضارة وعلم وأدب . على ان تحت تلك القشور المزخرفة كانت الغرائز الوحشية كامنة تتحين الفرصة لثب ، ولم يكن يمنعها من الظهور سوى ضغط القوانين الاجتماعية . فحالما نشبت الحرب فرج عنها ذلك الضغط واتخذت مجراها الطبيعي

اما السبب في ان الامم الاخرى لم تتقدم بها فهو ان معظمها ينتسب الى اجناس قديمة العهد في التمدن قد توطدت آدابها الاجتماعية وثبتت في نفوس أفرادها على مرور الزمن

فكلما توالى الاجيال في الامة الواحدة توطد مزاجها العقلي وثبتت اخلاقها وآدابها المكتسبة . ومتى بلغت الامة ذلك الرقي قل احتياجها الى القوانين والشرائع الاجتماعية اذ تقوم القوانين الشخصية مقام القوانين العامة

على انه من العسير جداً ان نجد امة بلغت هذه الدرجة من الرقي النفسي ، فان أرقى الامم الحديثة لا تستغني عن الروادع والزواجر الاجتماعية لاهداء الناس ومنع اصحاب الاخلاق المزعزة والعقول المقلقلة من اتيان الاعمال الشائنة

٢ — الارادة الوجدانية والارادة غير الوجدانية

ان الظواهر النفسية التي يدركها الانسان ومحسها ليست الا جزءاً من حياته النفسية التي تضم غير ذلك عوامل ودوافع خفية خارجة عن حيز الادراك والوجدان ، أي انه لا يشعر بها ولا يدركها . وبعبارة اخرى ان الحياة النفسية أوسع مما يتراعى

لأدراكنا وشعورنا ، ففيها معالم واسعة مجهولة لا تقع تحت أحكام الوجدان . وقد ثبت اليوم ان تلك العوامل النفسية الخارجة عن الوجدان مقاماً عظيماً في حياة الانسان وانها تقوده في معظم الاحيان . وبهذا الرأي يقولون ان للانسان ارادتين : ارادته التي بها يعمل ما يحكم بلذته أو بفائدته أو يقتنع بضرورته ، و ارادته أو قل ان شئت دوافعه التي تدفعه الى اتيان أعمال في حركة ميكانيكية أي من غير أن يفكر فيها . وهذه الارادة الثانية اشد تأثيراً في حياة الافراد وحياة الامم من الارادة الوجدانية التي لم يعرف علماء النفس سواها

وتستمد الارادة غير الوجدانية (Inconsciente) قراراتها ونزعاتها من حاجات الامة أو الجماعة التي ينتسب اليها الانسان ومن مطاعمها وآمالها فنها تدفعه الى العمل من غير ان يحكم في صحتها

ولما كان جمهور الناس يتقادون بهذه الارادة غير الوجدانية فاننا نجد في كثير من الاحوال تناقضاً بين أقوال الانسان الصادرة عن تفكيره و ارادته الوجدانية وأفعاله الصادرة عن ارادته غير الوجدانية التي هي تراث اختبارات الاجيال السالفة وأعمالها والشعوب كالأفراد تختلف اختلافاً ينفذ في درجة خضوعها للارادة الوجدانية وللدوافع الغريزية (او الارادة غير الوجدانية) فالشعب الانكليزي مثلاً كثير الخضوع لغرائزه فتجده يأتي معظم أعماله كما توحيه اليه غرائزه اي من غير تفكير ولا تدبر . قال المسيو ستيد المدير السيامي لجريدة التيمس في مثل هذا المعنى ما يأتي :

ان الانكليزي شديد الاعتماد على غرائزه . فهو يتحرز من الافكار ويكره النطق كأن عاطفة بدائية تقمعه بان الحياة لا تسير على احكام العقل وانما هي تقوم بقوى عمياء في الغالب تخرج عن حدود الوجدان

وإذا فحصنا الانكليزي عن كذب وجدنا تناقضاً عظيماً بين آرائهم وسلوكهم كأن بين حيز الافكار وحيز الدوافع الغريزية حيزاً منيعاً . ولا يتيسر لك ان تعلم ما يأتيه الانكليزي في حالة الاضطراب الفردي أو الوطني بالقياس على ما يأتيه في حالته المعتادة . فانه في تلك الحالة يظهر بمظهره الحقيقي وخائنه الغريزي فيتكلم قليلاً ويعمل كثيراً

ان للقوى النفسية الخارجة عن حيز الوجدان اثرًا خطيراً في كل عمل يأتيه الانسان — حتى الأعمال التي يعتمد فيها على حكمه وتميزه — وان لم يظهر ذلك التأثير في الغالب قلنا ان الارادة غير الوجدانية تستمد نزعاتها من تراث الاجيال السالفة ولكنها

في بعض الاحيان تنتج عن العواطف والاهواء الوقيية أو عن العادات التي يمارسها المجموع . وبفضل تلك الارادة يقوم الانسان باعمال كثيرة من غير ان يكلف نفسه مشقة التأمل والتفكير

٣ — تقلبات الارادة

تغير الارادة الوجدانية وغير الوجدانية وفقاً لما يؤثر فيها من العوامل التي تقويها أو تضعفها . ومن العوامل التي تضعف الارادة حب البذخ وطلب الملذات فاذا ما ضعفت الارادة بين امة وتجنب افرادها تحمل المسؤولية كانت تلك الامة على طريق الانحلال . فالامم تبید من التاريخ حين تفقد ارادتها كما سقط الرومان في اواخر عهد الامبراطورية

ان للارادة المقام الاول في حروب الامم فليست المعركة الا نزاع الارادات . ففي معظم المعارك يصل الفريقان الى نقطة يصبح النصر بعدها لا يثبتها ارادة . خذ مثلاً معركة المارن فقد تقهقر الجنرال فون كلوك بجناح الايمن من الخط الالمانى في الوقت الذي اوشك فيه الجنرال مونوري الفرنسي أن يتقهقر ، ولو تجالد الالمان قليلاً لفازوا فوزاً ميئناً . وكذلك في معركة الايزر فقد خسر الالمان ١٥٠.٠٠٠ جندي بلا فائدة ولو ثبتوا قليلاً لتمسكوا من نيل النصر . قال احد الكتاب الحربيين « لو صبر الالمان ربع ساعة فقط لتمسكوا من اختراق صفوف الحلفاء » . ومثلها ايضاً معركة الجران كودونه التي دارت امام مدينة نانسي فقد صدر الامر الى احدى الفرق الفرنسية بالتقهقر فرفض القائد ولكنه اذعن حين جاءه امر كتابي . فهم بالتقهقر ولكنه ما لبث ان رأى الالمان يتقهقرون قبله

كل تلك الامثلة تدل على مقام الارادة في المعارك وخطورتها لاحتراز النصر فوظيفة القواد الكبار هي أن يقوموا ارادة جنودهم ولا سيما ارادتهم غير الوجدانية ، وهذا ميسور بايقاظ العواطف والدوافع الموروثة . فأكبر القواد هم الذين عرفوا كيف يستخدمون الكلمات والحركات والاعمال التي توطد العزيمة وتجلب النصر

ان الارادة — لا الايمان — تزحزح الجبال

الباب الثاني

نشوء ألمانيا الحديثة

الفصل الأول

نشأة القوة الألمانية ونموها

١ — تاريخ بروسيا

ليست الحياة السياسية الا عنصراً من العناصر التي تكون تاريخ الشعوب . ولا بد لمعرفة الشعب معرفة يقينية من درس منشأ روحه وعواطفه وعقائده . ولقد تختلف عوامل النشوء التاريخي باختلاف الشعوب وفقاً لما اكتشف تاريخ كل شعب من تأثير الوسط والاخلاق والعادات وآثار الافراد والجماعات الى غير ذلك فتاريخ الشعوب اذاً يتكوّن من عناصر كثيرة مختلفة ، ولذا كان من أصعب الامور درس أحوالها وادراك حقيقة امرها . الا ان الشعب اذا كان حديث العهد وكانت العوامل التي أثرت في تكوينه ونشأته محصورة كان درس تاريخه سهلاً ميسوراً ، وانه لمن حسن الحظ ان تكون بروسيا من هذا القبيل

كذلك لا بد لمن يريد الوقوف على أحوال ألمانيا الحديثة ان يرجع الى العوامل النفسية التي أثرت في نشأتها حتى ثورتها ودفعتها الى هذه الحرب . ولا يخفى ان اتحاد ألمانيا تحت سيطرة بروسيا حديث العهد لم يبلغ عمره نصف قرن . وكان قد سعى كثيرون من امراء الالمان لتحقيق هذه الامة بل وتمكن بعضهم من ضم عدة مقاطعات ألمانية الى اراضيهم ولكن ذلك الاتحاد لم يطل أمره ولا امتد مداه . والمستقبل وحده هو العليم بعمر هذا الاتحاد الألماني الحاضر . غير ان الذي يتراءى لنا اليوم هو انه

سوف يدوم طويلاً لان التأثير الذي أصاب الروح الالمانية في هذه المرة من جراء السيطرة البروسية قد أمن وتغلغل في طبقات النفوس . يدرك على مقدار هذا التأثير ان البرنس بولو (المستشار الالماني السابق) أوجس في بعض كتبه حدوث رد فعل يستثير تلك الشعوب ويدفعها الى نبذ السلطة البروسية في طلب الاستقلال المادي والفكري

وسنذكر بعد فصلاً نخصه بالبحث في تكوين الروح الالمانية تحت النفوذ البروسي اما الآن فنتصر على درس نشوء بروسيا النفسي

تشبه الروح البروسية روح الشعوب التي اضطرت — بحكم اقليمها ومقامها الجغرافي — ان تنازع جيرانها طمعاً فيما يمتلكون من ارض ويحززون من ثروة . فهذا الميل القهري الى الفتح هو مرجع عاداتها وآدابها وشرائعها

لم تنم بروسيا نمواً طبيعياً بل نشأت تدريجياً بضم شعوب مختلفة اليها . فما فتئت مساعيها للفتح متواصلة من غير ان يصيبها كل ولا ملل حتى أدت هذه الروح غير مرة الى نقص كبير في عدد سكانها . ففي سنة ١٦٤٠ مثلاً (اثر حرب الثلاثين سنة) هبط عددهم في معظم المقاطعات الى اقل من نصف العدد الذي كانوا عليه

الا ان بروسيا — مع هذا كله — كانت تستعيز من تلك الخسارة باستجلاب بعض الشعوب المجاورة لها فأصبحت وهي مجموعة تكونت من جملة شعوب وامم . وقد أسعد حظها ان اضطهاد البروتستنت في فرنسا (بعد الغاء منشور نانث سنة ١٦٨٥) أدى الى مهاجرتهم آلافاً . وكان من حكمة ملك بروسيا وقتئذ انه استمال الى بلاده نحو عشرين ألفاً منهم فاستقروا فيها ورقوا العلم ونهضوا بالصناعة ، فاليهم يرجع القسط الاوفر في تقدم بروسيا هذا التقدم المادي . وقد تناسل اولئك المهاجرون في سرعة عظيمة ففي سنة ١٧٤٠ كان من نسلهم ستمائة ألف نفس من سكان بروسيا جميعاً (وعددهم وقتئذ يبلغ مليونين ونصف مليون فقط) . فترى من ذلك ان البروسيين الفرنسي الاصل كثيرون وان يكن فريق منهم قد استبدلوا اسماءهم بأسماء ألمانية

وما برح ملوك بروسيا مطلق الحكم فان الدولة في نظرهم تسمو على الافراد ويحق لها ان تستخدمهم صاغرين لنيل اغراضها وتحقيق أمانها . هذا هو المبدأ الاساسي الذي كان رائد الدولة البروسية في جميع ادوارها

وقد توجهت بروسيا عملاً بهذا المبدأ الى العناية بامر الجيش . ففي سنة ١٧٣٣ صدر القانون الذي يجعل الخدمة العسكرية ضربة لازب على الشعب جميعاً (وكان ذلك قبل الدول الاوربية كافة) وظلت بروسيا منذ ذلك الحين توسع في ملكها وتستبحر في عمراتها تستفيد غنمها من غرم جيرانها الى زمن نابوليون الذي نزع شوكتها وفل من غربها

ولكنها ما لبثت ان استعادت قوتها بعد سقوط نابوليون وضمت اليها مقاطعات غنية ولا سيما مدينتا كولونيا وماينس . ومن ثم دخل نجم بروسيا في السعود حتى تكاملت عظمتها بعد نصرها على النمسا سنة ١٨٦٦ وعلى فرنسا سنة ١٨٧٠ — فكان عظمة بروسيا قد شيدت على انتصارات ثلاثة وهي : واترلو (نابوليون) وسادوفا (النمسا) وسيدان (فرنسا)

ولا يخفى ان النصر والقوة يولدان العجب والكبرياء ، فلا بدع اذا ازدادت الروح الالمانية عتوا واختيالاً في اثناء القرن الماضي ولا سيما بعد ان قام بين الالمان فلاسفة ومؤرخون اثبتوا هذا التفوق بالادلة العلمية والتاريخية وزعموا ان الله قد وكل الى الالمان تنسيق ما اضطرب واصلاح ما فسد !

وجملة القول ان بروسيا التي تكونت بالفتح لم تستطع ان تعيش ونمو الا بالفتح . ومن الغريب ان الدول المجاورة لها — وفرنسا خاصة — لم تدرك هذه الحقيقة ولم تفتن لها زمناً طويلاً . فقد ظلت بروسيا مستحبة الى الشعب الفرنسي منذ زمن فولتير (صديق فريدريك الثاني ملك بروسيا) الى نصرها على النمسا سنة ١٨٦٦ ، حتى قال دانتون احد زعماء الثورة الفرنسية « ان بروسيا هي حليفتنا الطبيعية » وكذلك يؤثر عن ميشليه المؤرخ الفرنسي الشهير (١٧٩٨ — ١٨٧٤) قوله « عسى ان يجود علينا الزمان بمشاهدة المانيا عظيمة قوية ! »

٢ — الامبراطورية الالمانية والافكار العسكرية

أول ما كان يعنى به بسمارك — اثر تكون الوحدة الالمانية — صون الدولة التي شيدها وحفظ السلم الاوربي . وقد عقد لهذا الغرض اتفاقات ومعاهدات ترمي الى منع فرنسا من الاخذ بثأرها . فان هذه الفكرة — فكرة ثأر فرنسا — كانت لا تزال مخيلة ذاك السياسي الخنك . وكثيراً ما ابدى تخوفه من ذلك في خطبه السياسية .

فمن هذا قوله في سنة ١٨٧٧ عند عرضه مشروع زيادة الجيش :

ان بين المانيا وفرنسا قضية تاريخية بخصوص الحدود الفاصلة بينهما . ولم يفصل في هذه القضية حتى اليوم . على ان موضوع الخلاف - أي الاراس والنورين - بيدنا الآن . فليس ما يدفعنا الى محاربة فرنسا ولكن لا يستطيع أحد ان يقدّمنا بان فرنسا لا تضر ثأراً ولا تبقي استرداد ما قد فقدته

ظل بسمارك محافظاً على السلم الاوربي واتبع الامبراطور الحالي سياسته باديء الامر فتقدمت البلاد الالمانية تقدماً عظيماً في سبيل الاثراء المادي وأخذ اسطولها التجاري يجوب العالم من اقصاه الى اقصاه . الا ان ذلك الاسطول كان يجد أمامه حينما قصد منافساً قوياً جباراً — ذلك هو انجلترا ! فكان من أثر هذه المنافسة في نفوس الالمان ان تلاشى تخوفهم من ثأر فرنسا (ولا سيما ان التحزب والانشقاق كانا يميزان أحشاء الشعب الفرنسي) وأصبح سعي الالمان محصوراً في مسابقة انجلترا الممقوتة ومزاحمتها في اسواق العالم

وبعد ان كانت الحرب الشبح الخفيف لبسمارك ومبعث حذره واحتياطه أصبحت امراً مرغوباً فيه أثر التوسع الصناعي والاقتصادي : وذلك لاثراء المانيا أولاً ، ولتوطيد سيطرتها على العالم ثانياً . فمن ذلك الحين قوي ساعد الحرب العسكري وتألفت الجمعيات الوطنية لحض الرأي العام على الحرب واقناعه بضرورتها ومنافعها . وقد كان للصحف والجامعات قسط وافر في نشر هذه الدعوة

٣ — سياسة الفتح في المؤلفات الالمانية

في مقدمة الكتاب الذين هيأوا الرأي العام لهذه الحرب الجنرال فون برناردى الالمانى فهو خير من يمثل الروح العسكرية البروسية . ويتبين للمطلع على مؤلفاته كيف ان تلك الروح قد تأصلت في الالمان . واليك بعض اقواله :

على الدولة ألا تعتمد في اعمالها غير القوة . ولها ان تغض النظر عن القوانين والعهود التي لا توافق مصلحتها

لا نستطيع ان نوطد مكانتنا في القارة الاوربية الا بهدم اركان الاتفاق الثلاثي وبتدليل فرنسا وجعلها في الدرك الاسفل الذي نستحقه

يجب ان تنضم دول اوربا المتوسطة الى المانيا . وما دمنا لم نشهر سلاحنا في وجه انجلترا فان سياستنا الخارجية مقضي عليها بالفشل

ينبغي لنا ان نختار نحن الوقت الذي نشهر فيه الحرب . لا ان نترك اختياره لاعدائنا

بالقوة وحدها ، لا بالحق ، يسوى الخلاف بين الدول . وكما ان نظر الافراد الى ماهية العدل يختلف باختلاف مبادئهم ومشاربهم . كذلك يختلف نظر الشعوب اليها وفقاً لأمزجتها وتوارثها . ولا يستطيع احد ان يحكم بتفضيل نظر فريق على نظر فريق آخر . كما انه لا يمكن سن قوانين واحدة لتعامل بها جميع الدول مع ما هي عليه من الفروق الشاسعة . ان كل الاتفاقات التي ترمي الى التحكيم الدولي تضر الامم القوية الطامحة الى العلى ولا سيما اذا لم تستكمل نموها . فاستسلامنا للمعاجم الدولية يقف اتساع دولتنا في حين ان الدول الضعيفة تستفيد منه .

ان الآداب الدولية غير الآداب الفردية . وان تقوم للدولة قائمة الا بالقوة وان ضعف الحكومة لجريمة على الامة . ومن المحالف لآداب الدول ان تقف الدولة نموها واتساعها متى اقتضى ذلك تكاثر سكانها . ولا يجوز ان ترتبط الدولة باتفاقات تهدد كيانها أو تضر مصالحها

• • •

يقف ابن القرن العشرين دهشاً امام هذه الاقوال لانها ترجع بالعالم الى زمن سيطرة القوة، وما هي في الحقيقة الا صدق مبادئ ما كيا في السكاتب السياسي الايطالي الشهير الذي عاش في الاجيال المظلمة . ولا يبرح من ذهننا ان تلك الآراء شائعة شيوعاً عظيماً بين اهل الطبقات الراقية من الالمان وخيرة رجالهم واساتذتهم فضلاً عن عامتهم . فاقوال الجنرال برناردي المتقدمة انما هي مثال مما يكتبه كتاب الالمان على اختلاف درجاتهم واليك مثلاً آخر من كتاب لاحدهم عنوانه « لو كنت ملكاً » :

لما كانت المانيا فوق كل شيء . فلها وحدها الحق في كل شيء . ان واجبها الاول ازالة كل ما يعوق توسعها بالدم والحديد . فيجب ابادة انكلترا واذلال فرنسا حتى نزع منها مستعمراتها ونستحوذ على جميع الاراضي التي نحتاج اليها للأمن كل اعتداء . ويجب ان نضع البلجيك وهولندا تحت وصاية المانيا وان تكسر روسيا وتستعمر اراضيها

ولعل الجملة الآتية التي قلها احد المعجبين ببسمارك ادل من غيرها على اساس السياسة الالمانية :

على المفكرين الذين اعتزكهم الدهر ان يضعوا القول المبتدل جانباً ذلك الذي يقول « ان السياسة الصادقة هي افضل ضروب السياسة » فهو اجدر بان يعلم في المدارس . فان العالم لم يشهد بعد سياسة صادقة صالحة ولا بد لرجل السياسة من غض النظر عما يلحق جيرانه من الاضرار في سبيل توطيد سلطته وسداد مراميه

ومن افضل ما يدل على ازدياد الالمان للدول الصغيرة واعتقادهم بان ليس لها حق الاستقلال ما ذكره المسيو ينس سفير البلجيك السابق في براين من محادثة دارت بينه وبين وزير الخارجية الالمانية اذ قال الوزير :

للدول العظمى وحدها حق الاستعمار وان الدول الصغيرة سوف تضطر الى الالتحاق بالدول العظمى لان تطور اوربا السياسي لن يحجز لها في المستقبل ان تبقى مستقلة . فلما بها احدى الخطتين : اما ان تتلاشى او ان تنضم الى بعض الدول العظمى

هذه هي المبادئ التي ما برح ينشرها مؤرخو الالمان وساستهم وفلاسفتهم فلا عجب اذا اغتروا باحلام زعمائهم وطمحوا الى ان يسيطروا على العالم كافة وجملة القول ان بروسيا كانت في الاصل خليطاً من شعوب مختلفة وانها لم تحي وتمم الا بالحرب والفتح مضطرة الى ذلك بتأثير مقامها الجغرافي . فلما تم الاتحاد الالمانى بعد انكسار فرنسا في حرب السبعين تطبعت الدولة الالمانية — وما هي الا ضئيلة بروسيا — بتلك الطباع . وقد ساعد على احداث هذا التطور الجامعات والمؤرخون والكتاب والفلاسفة والجمعيات الوطنية ، وفي المقام الاول من ذلك التربية العسكرية ولكي تسود المانيا على مناظريها ولا سيما انجلترا لم تردأ من جيش واسطول عظيمين . ولأجل ان يرتضي النواب نفقاتهما الباهظة أخذت تلح المانيا تبين لشعبها ان السلم الاوربي في خطر

واذا كان من السهل توليد العواطف في نفس الشعوب فلها متى وجدت وتمكنت تصبح ذات قوة عظيمة يتعذر وقفها عند حدها

الفصل الثاني

نظرية الدولة ومعنى التاريخ عند فلاسفة الالمان

١ — منشأ النظرية الالمانية لسلطة الدولة

ان من أهم المباحث التي يعنى بها علم السياسة علاقة الافراد بالدولة ، ولا سيما في العصور الحديثة فان العقدة العظمى التي تشغل ساسة اليوم هي حفظ الموازنة بين حرية الافراد وسلطة الدولة . أما في العالم القديم فلم تعبأ الدول بحقوق الافراد بل وضعت السلطة المطلقة في يد صاحب السلطان

ونظراً لتعدد الاجناس التي تكوّنت منها بروسيا ولطمعها المتزايد في جيرانها لم يوافقها من اشكال الحكومة الا الحكم المطلق . فما برح ملوكها يقولون بسمو سلطة الدولة ويتطلبون من رعاياهم الخضوع التام والتضعية بارواحهم واملاكهم في سبيل تقدم الدولة وبسط نفوذها . وكان من مبادئهم ألا يحترموا اتفاقاً الا اذا كان موافقاً لمصالحهم فكأنهم سبقوا في ذلك الفيلسوف نيتشي الذي قال « ان الحرب النافعة تبرر كل وسيلة »

وقد كانت هذه المبادئ في اول الامر مستقرة في نفوس ملوك بروسيا من غير ان يدونها أحد . ثم قام فلاسفة الالمان فاتخذت على يدهم شكلاً نظرياً ودعمت ببراهين شتى . وأول من عبر عنها بصيغة فلسفية هيغل وفيلشت الفيلسوفان المعروفان ، ثم توسع فيها من جاء بعدهما من المؤرخين ولا سيما ترينتشكي ، والادباء كنييتشي ، والكتاب المغمين مثل لاسون وبرناردي . وسنشرح نظريتهم معتمدين على أقوالهم نفسها

كان هيغل اول القائلين بمنح الدولة حق التصرف المطلق ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فقال بوجود عبادتها عبادة الاله . وادعى ان القوة وحدها هي التي تسير التاريخ وقد كانت هذه المبادئ اول الامر محصورة في اهل الجامعات ولكنها لم تلبث ان عمت جميع الطبقات . وكان من الطبيعي ان تشجع الحكومة البروسية نشر تلك

الآراء التي تؤيدها وترفعها فوق كل سلطة عالمية ، والتي تتيح لها النمو والتقدم والاتساع ولما كان الانسان بطبعه ينفر من مثل هذه التعاليم فقد اجتهد فلاسفة الالمان في نسبتها الى من تقدم من الامم العظيمة ولاسيما الرومان . فينبوا ان الدولة الرومانية — في دور الجمهورية وفي دور الامبراطورية على السواء — كان لها سلطة مطلقة سمت بها على الافراد . ثم سعوا أيضاً ليبرهنوا على ان الامبراطورية الالمانية ليست الا تمة للامبراطورية الجرمانية المقدسة بعد تطهيرها من النمسا الكاثوليكية . والحقيقة ان أوجه الشبه طفيفة بين نظرية الرومان ونظرية الالمان من حيث سلطة الدولة . وانما تشبه نظرية الالمان نظريات الحكومات الاسيوية المطلقة

ان هذه النظرية البروسية الاصل مرجع تاريخ بروسيا ونظاماتها ولا سيما انها طبقت قبل ان تصبغ صبغة فلسفية ، ولذا كان تشرب الشعب لها سهلاً سريعاً .

٢ — ابتلاع الدولة للفرد

تأول النظريات الالمانية حتماً الى ابتلاع الدولة للافراد ، وتاريخ بروسيا — بل تاريخ المانيا ايضاً بعد اتحادها — يدل دلالة قاطعة على صدق هذا القول ، فان الدولة هي التي تدبر كل شيء وتعتني بكل شيء . وقد خضع الالمان لهذا النظام الحديدي الذي لا يتحملة شعب من الشعوب الاوربية بفضل التربية العسكرية الصارمة وما تعودوه من تأليه الحكومة والخضوع لارادتها المطلقة ، وقد رأينا ان الدولة في نظرهم شبه اله يتلقون أوامره عن رغبة واطمئنان وما البلاط والمحاكم والكنيسة والحكومة والمجالس في نظرهم الا مظاهر تلك الذات الالهية واعضاؤها التي تعبر عن مقاصدها وتحقق رغائبها

ولا يتطلب هذا الاله موافقة الاهلين لخطته بالنظر والتفكير ، وانما يطلب منهم الطاعة العمياء لان الدولة ارفع من ان يناهها مدح أو ذم . والواقع ان الالمان قلما يفكرون في انتقاد حكومتهم بل قد بلغ الاعجاب بنظامهم هذا انهم يسعون في نشره بين جميع الامم

اما في فرنسا وانجلترا فان الفرد يعد الحكومة أو الدولة ذاتاً مستقلة عن ذاته وكثيراً ما لا تتفق آراؤه وآراءها فيناهضها ، بعكس الالمانى فانه على الاجمال يعد للدولة ممثلة روح جنسه ويعد مناهضتها خيانة

والذي لا ريب فيه ان للدولة في المانيا مقاماً عظيماً جداً يقرب من العبادة .
 فيينا الانجليزي والفرنسي يطمحان الى الحرية والاستقلال ترى الالمانى تلذ له الطاعة
 والخضوع . فهو يحب الاستبداد واذا ما اصاب ذرة من السلطة استبد بها ايضاً على غيره
 اما الجندية فان نظامها يقضي بالعبودية التامة ، واي دليل ابلغ من الخطاب الذي
 القاه الامبراطور الحالي على بعض فرقه سنة ١٨٩١ اذ قال : « انكم جسداً ونفساً ملك لي
 فاذا امرتكم بقتل آبائكم وامهاتكم فعليكم ان تطيعوا من غير تريث ولا تمهل » . ففي اي
 شعب متمدن سوى المانيا يجراً رئيس الحكومة ان يفود بمثل هذا القول ؟
 ان طاعة الالمان تجعل حكمهم سهلاً . فلقوانين عندهم تنفذ بصرامة شديدة في
 حين انها كثيراً ما تهمل وتخالف عند الفرنسيين . خذ مثلاً الملاك حادثه فندق
 استوريا فقد بنى هذا الفندق في باريس احد الرعايا الالمان سنة ١٩٠٧ ولكنه خالف
 في بنائه القانون الذي يقضي ألا يتجاوز البناء ارتفاعاً معيناً . فلو كان هذا البناء في المانيا
 لما قامت قائمة للطبقات الزائدة على العلو القانوني ، بل انها كانت تهدم في ظرف ٢٤
 ساعة . هذا اذا فرضنا ان الحكومة لم تشعر بمخالفة القانون اثناء بناء المنزل . اما في فرنسا
 فقد ظلت المشاحنات قائمة بين الحكومة وصاحب الفندق ولا يزال البناء قائماً حتى اليوم !
 ويجدر بنا ان نغض النظر عن هذين بعض علماء الالمان في اثناء الحرب وألا نعير
 اقوالهم التفاتاً لانه يتعذر اخذها نموذجاً يمثل الرأي العام الالمانى لشدة تطرفها .
 ولكننا رأينا ان نورد مثالا منها تفكهة ولا سيما انه ينسب الى استاذ جليل هو الاستاذ
 سوالد قل :

قد بلغت المانيا بفضل نظامها طوراً من المدنية لم تبلغه الامم الاخرى . فذا نظرتنا الى
 اعدائنا وجدنا ان روسيا لا تزال في دور العشائر . اما فرنسا وانجلترا فهما الآن في الدور الذي
 كنا فيه من خمسين سنة اي دور الفردية . ان فوق هذا الدور دور التنظيم وهو الدور الذي
 بلغتته المانيا . واذا سألتوني : ماذا تبغى المانيا اليوم ؟ اجبتكم انها ترمي الى تنظيم اوروبا التي لم
 تعرف النظام الحقيقي بعد وبعبارة أخرى انها تريد تحقيق فكرة العمل الاشتراكي

فلا شك ان هذا الرأي وان سر بعض الاشتراكيين فانه لا يسر العقلاء المستقيمين
 الذين يعلمون ان التقدم والاختراعات العظيمة انما هي من نتاج قرائح الافراد لا الجماعات .
 ولا تظهر فائدة الاشتراك في العمل وتنظيمه وتقسيمه الا بين متوسطي المدارك . وقد

ظفرت المانيا بهذا الربح لان مزاج الالمان وطبائعهم الاجتماعية المتشابهة تسهل عليهم العمل معاً وتضعب عليهم العمل الفردي . وسرى فيما بعد كيف ان جميع زائري معسكرات الاسرى الالمان لاحظوا فيهم وحدة الافكار والطرق كأنهم سكبوا جميعاً في قالب واحد

واليك ما كتبه الاستاذ ادوارد ماير الالماني مقابلاً بين رأي الالماني ورأي الانجليزي في ماهية الدولة وحقوقها وواجباتها . قال :

لا يقتصر الاختلاف بين الفريقين على مكانة الدولة فقط بل يتناول ايضاً حدود الحرية الفردية ازاء سلطة الدولة . فلفرد في نظر الانجليزي حق السمي والارتزاق دون ان تتعرض الحكومة لحرته ، وعليه في المسائل العامة قبول حكم الاغلبية . اما في نظر الالماني فالحرية تعني الخضوع لمصلحة الجماعة والاماني الجنسية . وبعبارة اخرى ان الانجليزي يعد الحكومة ضغطاً لحرته ويطلب ان تنحصر سلطتها جهد المستطاع . وبعبارة الالماني فانه يعد الدولة ممثلة لاسمي امني جنسه ويرى ان لها ان تبسط جناحها على جميع مظاهر الحياة الوطنية ، لان اوامرها في نظره وصايا اديبة يقبلها غير كاره ولا متململ لانه عضو من المجموع الشامل كأنه يحولها بقبوله التام الى اعمال صادرة من ارادته الحرة

فترى مما تقدم ما هو النظام الذي تريد المانيا بسطه على الدول الاوربية . فانه انما يقوم بالطاعة التامة من حيث انها « مظهر من مظاهر ارادته الحرة » . وعلى هذا القياس كان يمكن العبد الذي يدير الطاحون خوفاً من السوط ان يدعي حرية عمله لا يستطيع شعب من الشعوب الحرة ان يعيش تحت هذا النظام الصارم . فستحيل على الاميركي أو الانجليزي ان يتقبل الحكم الالماني لانها يريان ان الدولة وجدت لمنفعة الافراد لا الافراد لمنفعة الدولة ويعتقدان ان الحرية والاستقلال أرقى من الخضوع الاعمى

٣ — عبادة القوة

تبين لنا مما تقدم ان نظرية الالمان في شأن الدولة تجعل المقام الاول للقوة المادية . ولقد كان تأليه القوة أمراً طبيعياً في بروسيا التي اوجدتها القوة والتي لم تستطع ان تعيش وتنمو بغير القوة . فلا غرابة ان يبرر مؤرخو الالمان اعمال دولتهم بجعلهم القوة عامل التاريخ الاول . فعندهم ان القوي وحده يوثى النصر الذي به تتجلي فضائل الشعوب ولما كانت القوة مطلقة فانها تغضي عن الرأفة وتتصرف كما تشاء . وقد كرر مؤرخو الالمان وفلاسفتهم هذه الاقوال غير مرة . من ذلك قول اهرنج المشرع الشهير : « قوة

المنصور وحدها تحدد الحقوق « وقول نيتشي : « لا يعترف القوي بواجبات الألمان كان مساوياً له ، وأما من كان أقل منه أو غريباً عنه فله ان يعامله بما يشاء . وإن أشد الصفات خطراً على القوي الرحمة »

وتجلى هذه الروح في مبادئ أركان الحرب الألماني كما سيحيى بعد ان بين تلك المبادئ والمبادئ المسيحية الصحيحة لبونا شاسعاً ، ولكن ألمانيا على الرغم من ذلك لا تزال مسيحية ، غير ان المسيح الداعي الى السلام والمحبة كما هو مصور في الكتاب المقدس قد تحول عند أهلها الى اله دوي يحب المارب والفتح . فهذه النصرانية الجديدة الجديدة بان تنسب الى الوثنية قد نبذت الآداب المسيحية جانباً وعدتها على قول نيتشي « آداب العبودية » . فليست الرقة والرحمة والدعة في نظرها الا ضعفاً وعجزاً ولا حد للحق عندها غير القوة ، وانه لمن حق الدولة القوية ان تسيطر على الدول الضعيفة من غير ان تأخذها فيها رحمة ولا شفقة . وليس ادل على الروح الألمانية من هذا القول المنسوب الى غليوم الثاني : « ان الانسانية في نظري تنتهي عند الفوج » اي عند حدود ألمانيا

تلك هي المبادئ التي ادت الى فظائع الحرب الاوربية واهوالها ولم ينتشر مذهب عبادة القوة عند الألمان الا بعد ان اختبروا قوتهم وثبتوا من تفوقهم في هذا الميدان . اذ ذاك ظهر فيهم معلوم ادخلوا الى عقولهم انهم شعب ممتاز قد فرض عليه فتح العالم بأسره . ومن ثم نشبت هذه الحرب وهي ترمي الى تدليل الشعوب المنحطة لانها حجر عثرة في سبيل المظامع الألمانية

متى عجز الرء عن حكم نفسه وقهر غرائزه الوحشية يلجأ الى تمجيدها حتى يبرر انقياده لها ، فلا غرو ان يجد فلاسفة الألمان أحط مظاهر الروح الممجية المستقرة في الشعب الألماني

٤ — علاقة الدين بالدولة

في معظم الدول الملكية الشكل — حتى المطلقة منها — تجد فاصلاً بين الحكومة والدين . وقد استحكم النزاع كثيراً بين هاتين القوتين ولكن قلما وفتت احدهما الى اخضاع الاخرى خضوعاً تاماً .

ولما كان وجود قوة مستقلة كقوة الدين (أو بالحري الاكايروس) في الدولة

من دواعي الضعف فقد سعى مؤسسو الدولة البروسية في اخضاعها . وتيسر لهم ذلك ولا سيما ان الديانة البروتستنتية سهلة الانقياد للسلطة المدنية

الا انه لما تم الاتحاد الالماني بعد حرب سنة ١٨٧٠ تغيرت الحال : فان الامارات التي انضمت الى بروسيا كان فيها عدد كبير من الكاثوليك لم يسهل اخضاعهم . ففي المانيا اليوم بجانب الاربعين مليوناً من البروتستنت ما لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً من الكاثوليك . وقد نشأ من وجود هذا الشقاق الديني في المانيا مشا كل كثيرة صرف بسمارك جهده في ايزاتها فلم ينجح الا نجاحاً جزئياً . وما برح الحزب الكاثوليكي من ذلك الحين قوة مستقلة . وسوف يظل هذا الشقاق من أسباب الضعف في المانيا ومن اشد العقبات في سبيل اتحادها التام — على رغم ان الكاثوليك قد انضموا الى الاحزاب الالمانية الاخرى منذ نشوب الحرب .

ان لأولئك الكاثوليك قوة لا يستخف بها مع انهم اقل عدداً من البروتستنت ، فلهم جرائد ومجلات تقاوم الحكومة في كثير من الاحيان ، ومنهم يتألف حزب الوسط في الريشستاغ الالماني و بانضمام هذا الحزب الى احد الاحزاب المعارضة يتمكن من الحصول على الاغلبية . وقد الجأ البرنس بولو الى الاستعفاء من منصب الاستشارة سنة ١٩٠٩

ولهذا السبب نرى بين ممثلي الحكومة كرهاً شديداً لذلك الحزب ورجاله — وقد قال عنه احد الوزراء مرة على منبر الريشستاغ « انه دمل خيث في جسم الامبراطورية » وجملة القول ان للحزب الكاثوليكي قوة كافية لمكافحة الحكومة ومنعها الاستئثار بالسلطة . فيينا رجال الحكومة والا كبروس البروتستنتي خاضعون جميعاً للامبراطور دون غيره نرى الحزب الكاثوليكي خاضعاً لسلطتين معاً : الامبراطور وفوقه البابا ومما يدفع البروتستنت الى مناهضة الكاثوليك اعتقادهم ان عظمة المانيا انما قامت بالروح البروتستنتية — على ما علمهم مؤرخوهم ولا سيما تريتشكي

٥ — كيف يشرح الفلاسفة الالمان آراءهم في الدولة والحق

قد يتبادر الى ذهن القارئ الذي لم يتعود قراءة الكتب الالمانية — التاريخية والفلسفية — انني غالبت في بيان آرائهم ونظرياتهم . والحقيقة انها هي لم تغير منذ زمن هيجل الى هذا العصر . وقد رأينا ان نذكر هنا خلاصة تلك الآراء مستخلعة من

كتاب للاستاذ لاسون (من جامعة برلين) ظهر قبل الحرب بسنوات واليك خلاصته :

لا يعقل ان تقبل الدولة حكماً تخضع لاحكامه . فان الحرب حالة طبيعية بين الدول : والتنازع الدائم هو القاعدة التي تتركز عليها في علاقاتها بعضها ببعض . وليست الصداقة بينها الا مصادفة وشذوذاً وان يوجد بين الدول قانون تخضع له جميعاً لان ذلك القانون لا ينهض الا اذا عد فوقها . فالدول التي ترضى ذلك تكون كلها قد اعترفت بضعفها وعجزها . والقانون الوحيد بين الدول انما هو ما يقرره القوي

ما برح الضعيف غنيمة باردة في يد القوي على الرغم من كل العهود والاتفاقات . ويجوز ان نعتد هذه القاعدة ملائمة للقواعد الادبية الصحيحة لانها موافقة للعقل السليم متى نشأت الحرب هدد كل شيء وجاز كل شيء . وانه لمن الضعف توقع الرأفة من العدو كما انه من الضعف ايضاً اظهارها له

الحرب التي ترمي الى الفتح جائزة كالحرب الدفاعية . والمسئلة الوحيدة التي ينبغي النظر اليها والعناية بها هي ثروة البلاد التي يطلب فتحها

لا يسود بين المدينيات اختلاف غير الحقد والظفينة

لكل دولة حق المداخلة في شؤون الدول الاخرى ولا يجوز ان ترجع عن تلك المداخلة الا متى ادركت ضعفها

يخضع الضعيف نفسه بحرمة العهود التي تضمن حياته . والحقيقة ان لا ضامن للحياة سوى القوة

فترى مما تقدم خطأ الذين كانوا يبشرون بالمذاهب السلمية مبينين جمال الحق وسلطانه الخ . فان من الخطأ العظيم الاعتقاد بان الحق يصون نفسه ولا سيما ازاء تلك المبادئ الوحشية . وقد علم الاختبار انه لا يسان الا بالقوة

ولاشك ان المبادئ الالمانية اخرى باطوار من المدنية قد تجاوزتها معظم الدول

الاوربية . فهي ترجع بنا الى الزمن الذي كان فيه صاحب السلطة لا يعتمد الا على سيفه محتقراً كل معاهدة لا ترضيه . ولذا كان الفرق عظيماً جداً بين التقدم الصناعي والتجاري الذي بلقته المانيا من جهة ومزاجها العقلي ونظاماتها العسكرية من جهة اخرى ، بل ان الجهتين اجدر ان تكونا منفصلتين لانهما تمثلان طورين مختلفين من المدنية والله درّ الفيلسوف مومسن الذي قال : « احذروا هذه الدولة المكونة من قوة

العقل وقوة السيف لئلا تنمحي قوة العقل فلا يبقى غير قوة السيف »

وقد كان من نتيجة التعاليم الالمانية لها اضطرت الدول الاوربية الى البقاء مسلحة

متأهباً للحرب مدة نصف قرن تقريباً حتى ادت الحالة اخيراً الى هذا الانفجار الهائل

الفصل الثالث

نشوء المانيا الاقتصادي

١ — تقدم المانيا صناعياً وتجارياً

يُنبئنا التاريخ عن شعوب فقيرة اتخذت الحرب وسيلة للارتزاق . وقد كان نشوء بروسيا مثلاً على ذلك كما تقدم . على اننا قلما نجد دولة بلغت درجة عالية من التقدم الصناعي والتجاري ترغب في حرب تضر بمصالحها سواء خرجت منها غالبية أو مغلوبة — الا المانيا الحديثة التي بلغت في ربع قرن شأواً عالياً من الرقي الاقتصادي غبطتها به الدول العريقة في المدنية . فقد شهرت الحرب في حين نالت من الارتقاء ما بذلت انكساراً لبلوغه اكثر من قرن . واليك بعض الارقام الدالة على تقدم المانيا السريع العجيب :

كان عدد سكانها في سنة ١٨٨٨ لا يتجاوز ٤٨ مليوناً فاصبح نحو ٧٠ مليوناً سنة ١٩١٤ . اما ثروتها فقد ارتفعت في المدة نفسها من ١٠.٠٠٠ الى ١٥٠.٠٠٠ مليون جنيه . وقد كانت تجارتها قبل الحرب منتشرة في جميع الاقطار على الرغم من حقارة مستعمراتها بالقياس الى مستعمرات الدول الكبرى . الا انها كانت على وشك استعمار العالم بأسره استعماراً اقتصادياً

وفي مقدمة الاسباب التي ساعدت المانيا على هذا التقدم الصناعي الغريب استكشاف مناجم الفحم في املاكها . فبينما كانت فرنسا مضطرة الى استجلاب بعض الفحم اللازم لها من الخارج أصبحت المانيا وهي في غنى عن جانب من فحمها حتى كانت تصدره الى الدول الاخرى

ولكي ندرك معنى الارقام السابقة يجب ان تأمل في الثروة التي تمثلها : ان ثروة الدول في هذا العصر تقف خصوصاً على كمية القوة الميكانيكية التي تستطيع توليدها واستخدامها ، ولهذه القوة مصدران كبيران : عمل الانسان وإيقاد الفحم . وقد تتج

عن التجارب والتقديرات التي عملت للوقوف على مقدار ما يعادل عمل الانسان من الفحم ان طن الفحم (اي الالف كيلوغرام منه) يعادل عمل خمسة رجال مدة سنة . ولما كانت ألمانيا تستخرج سنوياً ١٩٠ مليون طن من الفحم فكأن لديها ٩٥٠ مليون عامل

زد على ذلك ان الفحم رخيص بالنسبة الى عمل الانسان فان الطن يساوي عادة نحو ١٥ فرنكاً فقط في حين ان العامل المتوسط يقبض نحو ١٥٠٠ فرنك في السنة . ولما كان الطن من الفحم — على ما ذكرنا — يقوم بعمل خمسة رجال فكأنه — وثمنه ١٥ فرنكاً فقط — يعادل من عمل الانسان ما قدره $١٥٠٠ \times ٥ = ٧٥٠٠$ فرنك فيتبين لنا من ذلك انه كلما زاد الفحم في المملكة كان ذلك في مقام تضاعف اهلها . وجملة القول ان لمناجم الفحم اليد الطولى في رقي ألمانيا الحديث

وأول تأثير كان لاستكشاف تلك المناجم انه حث الناس على هجر الزراعة الى الصناعة (حتى لم يعد من اهل الزراعة سوى ١٥ مليوناً من السبعين مليوناً) . ولتوافر الرجال والفحم لدى ألمانيا تمكنت من تقديم مصانعها للاسواق باسعار لا تجارى . وظل هذا التقدم يتضاعف حتى اصبحت معاملها عظيمة واسعة . وفي مقدمتها معامل كروب التي تستخدم ١٠٠.٠٠٠ عامل

فلما رأت ألمانيا نجاحها هذا اخذت تزيد كمية مصانعها زيادة عظيمة حتى اضطرت الى مواصلة البحث عن اسواق جديدة لنصريف مصانعها

ان ذلك الاحتقان الصناعي سبب من اسباب الحرب الخفية — ولا سيما ان ألمانيا كانت حينها ذهبت تجد مناظرين اقدم منها عهداً ، واولهم انكلترا

وقد قدر المسيو هلفريخ المالي الألماني ان ثروة ألمانيا تبلغ حول ١٦٠٠ مليون جنيه (وقد ذكرنا آنفاً ان التقدير الاصح ١٥٠٠ مليون جنيه) وان دخلها السنوي الفامليون جنيه . فلنفرض صحة تلك الارقام . فماذا تمثل هذه الثروة ؟ يمثل معظمها اموالاً انفتت في انشاء المعامل الضخمة ولما كان المصنوع في تلك المعامل عظيماً جداً يتعذر استفادته في داخل البلاد فقد كان جل اعتمادها على الاسواق الخارجية فنرى من ذلك ان اتساع الصناعة كانت يحتم على ألمانيا ان تضمن لها اسواقاً في الخارج . ولذا كانت تزداد كرهاً لمناظرها في تلك الاسواق ، وانكلترا خاصة

٢ — اسباب تقدم ألمانيا ووسائلها الصناعية

قد علمنا مقام الفحم في تقدم ألمانيا السريع . ولكن هناك اسباباً اخرى لهذا التقدم بعضها حتمى وبعضها وهمي يجدر بنا ان نذكرها

فمن الاسباب الموهومة اعتقاد البعض ان نجاح ألمانيا الاقتصادي نشأ عن انتصاراتها الحربية سنة ١٨٧٠ . وقد بين الكتاب الاقتصاديون خطأ هذا الوهم وبرهنوا على ان لاتساع في الملك لا تأثير له في ثروة الامم او بالحري في ثروة افرادها وترفعهم ولا يخطر للقارئ ان الخمسة مليارات فرنك التي قبضتها ألمانيا سنة ١٨٧٠ قد اثرتها . فان السلم المساح الذي اضطرت الى المحافظة عليه بعد ذلك كفها اكثر من ستين ملياراً . زد على ذلك ان حالتها الاقتصادية في العشر سنين الاولى بعد محاربتها فرنسا لم تكن حسنة ، فقد اضطرت وقتئذ الى الاقتراض وسعت في عقد قرض من فرنسا التي قهرتها وابتزت مالها ! فالحقيقة هي ان تلك الحرب اخرت تقدم ألمانيا الاقتصادي

اما الاسباب الحقيقية التي ساعدت على ارتقاء ألمانيا العجيب فمنها تفوقها في التربية الفنية وانتظام عاداتها وطرقها المستمدة من نظام جنديتها . فان بين عيشة العمل وعيشة الثكنة شبيهاً كبيراً . والانتقال من احدهما الى الآخر يتم عند الألماني بسهولة عظيمة قال احد الاقتصاديين الالمان : « ان الروح النظامية المنتشرة في الجيش الألماني هي نفس الروح التي سببت تقدمنا الاقتصادي وجرت علينا حقد انكارتا . فالنظام العسكري هو مدرسة لعمالنا »

لا ريب في ان النظام الصارم الذي يخضع له الألماني في اثناء خدمته العسكرية هو افضل مرب له بعده لدخول المصنع والعمل فيه بنظام . وينبغي لنا الآن ان ندرس كيف عرف الالمان ان يستفيدوا من نظام مصانعهم وما هي الطرق التي يستخدمونها في الصناعة والتجارة

ومع اني قد ذكرت تلك الطرق في كتيبي السابقة فقد رأيت ان انقل شيئاً من مقالة لاحد الكتاب المحايدين — واعني به المسيو ميليو السويسري : فقد بين هذا الكتاب في بدء مقاله ازدياد الالمان النازلين في بعض الدول الاجنبية واتساع نفوذهم فيها ، ولا سيما البلجيك التي دخلوها ممثلين لتجارهم الوطنية ثم اشترروا فيها المحلات التجارية والمعامل اما باسمائهم مباشرة او تحت اسماء مستعارة

ثم ان للامان نظاماً اقتصادياً منتشراً في بلادهم يعرف بنظام « الكارتل » . والكارتل هو اجماع المشتغلين بصناعة واحدة على انشاء مكتب واحد لصناعتهم تحدد فيه الائتمان وتباع المصنوعات وتجمع الارباح ثم توزع منه على الاعضاء . فبفضل هذا النظام يتمكن الالمان من التغلب على منافذهم وكسر شوكتهم حتى ولو اضطروا الى بيع سلعهم باقل مما تكلفهم . ولكنهم يفعلون ذلك ريثما يفلس منافذهم فيعودوا الى رفع الاسعار . ومن نتائج هذا النظام الاحتكاري الغريب ان الالمان يبيعون مصنوعاتهم في الخارج (حيث مزاحمهم كثيرون) باقل مما يبيعونها في المانيا نفسها (حيث لا مزاحم لهم) . خذ مثلاً لذلك الحديد فيينا كانت الجسور الحديدية يباع الطن منها بسعر ١٣٠ ماركاً في المانيا كانت تباع في سويسرا بسعر ١٢٠ وفي ايطاليا بسعر ٧٥ فقط (وفي هذا السعر الاخير خسارة لا تقل عن ٢٠ ماركاً في الطن)

فيمثل هذا التخفيض في الثمن وبفضل المساعدات التي يقدمونها لعمالهم من حيث الوفاء بالدين (اذ يمولونهم زمناً يتراوح بين ١٢ و ١٨ شهراً) قد تمكن الالمان من ايجاد عملاء وزبائن في جميع الاسواق كما تمكنوا من التغلب على منافذهم ثم ان الحكومة الالمانية قد ساعدت الصناعة بكل ما في وسعها فرغبت فيها الاهلين وحرصتهم على تصدير السلع الالمانية الى جميع الاقطار فقدمت لهم مساعدات عظيمة في هذا السبيل

على ان هذه الطرق تستلزم رؤوس مال كبيرة ، فمن اين اتى بها الالمان ؟ لقد حصلوا عليها اولاً من المصارف الالمانية التي كانت تجمع ما يدخره الشعب الالمانى ويستودعها اياه فتساعد به الاعمال الصناعية الكبيرة . ثم ان المال كان يأتيها ايضاً من البلاد الاجنبية — كفرنسا مثلاً — بواسطة بعض المصارف الفرنسية

ولما كان طلب النقود يتزايد في كل يوم اضطرت المصارف الالمانية الى الاستعاضة عن النقود الذهبية والفضية التي تحتفظ بها للاحتياط (كما تفعل مصارف العالم كافة) باوراق مالية مختلفة . والفرق بين الاوراق المالية والنقود هو أن الاولى لا تعتمد الا اذا كانت الثقة موطدة . على خلاف الثانية فان قيمتها فيها نفسها . هذا هو ضعف المصارف

الالمانية فان النسبة فيها بين عملة الورق وعملة الذهب عالية جدا وفضلاً عن ذلك فان الحصول على فوائد الأموال الباهظة التي بذلت في الاعمال

الصناعية كان يستدعي زيادة المصنوعات زيادة مستمرة حتى تجلب من الربح ما يكفي لدفع تلك الفوائد . ولكنهم لم يستطيعوا تصريف كل ما كانوا يصنعونه ولا سيما أنهم كانوا يجدون حيثما ذهبوا مناظر يهيم الانكسار !

واليك النتيجة التي توصل اليها الكاتب المتقدم ذكره بعد هذه المقدمات قل :

شعر الامان — من غير ان يهددهم احد — أنهم مهددون من جميع الجهات . ولا شك أنهم مصابون في قلوبهم أنهم يحاربون لاجل بناتهم وحياتهم . فن ماليهم وتجارهم ورجال حكومتهم دفعوهم الى فتح العالم اقتصاديا بطرق ووسائل لم يستطيعوا معها العدول عما شرعوا فيه . وقد شعروا ان النصر خانهم — وان لم يكونوا قد غلبوا بعد . فكانوا بين أمرين اما الانكسار ووقوف المصانع رافلاس الناجر والجوع والنقر والحراب واما الحرب المنقذة من هذه الاخطار . قالوا وما زالت الحرب تشبه عاجلا أو آجلا لمنحتر الوقت الذي بلغنا فيه اشد قوتنا بالنسبة الى الدول الاخرى

على اني — وان سلمت بخطورة هذه الاسباب الاقتصادية وانها ربما كانت وحدها دافعا كافيا لنشوب الحرب في المستقبل — لا اعتقد انها كانت كافية وقت اعلان هذه الحرب ، لان الشعب الالماني لم يكن قد شعر بعد بالضغط الاقتصادي الشديد . وانما كان على ابوابه كما يستدل من انذار المستر بالن صديق امبراطور المانيا ورئيس شركة ملاحه « هامبورغ اميركا » للشعب الالماني قبل الحرب بشهر اذ قال : « ان اسواق العالم أخذت تتقلص وتضيق في وجه الصناعة الالمانية » . وقد كانت في برلين وقت الحرب ١٠٠٠٠٠٠ عامل بلا عمل . ولم يعد في امكان اصحاب الاعمال اقتراض المال بفائدة تقل عن ٨ في المئة (ولا يخفى ان ارتفاع الفائدة دليل على قلة الثقة)

فترى مما تقدم ان الشعب الالماني كان مهدداً وان يكن تقدمه عظيماً

٣ — انتشار التجارة الالمانية في فرنسا وفي العالم

بالرغم من الاخطار المتقدمة التي كانت محدقة بالمانيا كانت تجارتها منتشرة انتشارا واسعا في جميع انحاء العالم . وليست فوائد التجارة مقصورة على الربح المادي فان الدولة التي تستولي على أسواق دولة أخرى ومراققتها ومتاجرها تكون كأنها فتحها فتحاً عسكرياً

تلك كانت حالة الالماني في بعض الدول ومنها البلجيكي وروسيا وفرنسا . فان

مقاطعات فرنسية كاملة كانت ملكاً لهم ، كشاطى ، فرنسا الجنوبي واسمه الشاطىء ، الساموي (Côte d'Azur) المشهور بمحلات الاصطياف والنزهة والتمتع فقد كانت فنادقه وملاهيه في يد الالمان . هذا فضلاً عن الصناعات الفرنسية الاخرى كالمواد الكيمية والآلات الطبية والمواد الملونة الخ .

وقد دلت حوادث الحجز التي أجرتها الحكومة الفرنسية بعد الحرب على وجود ١٢٠٠٠ محل الماني . فلو ظل الالمان على تقدمهم هذا عشرين سنة أخرى لاصبحوا أصحاب البلاد الحقيقيين

وحدث مثل ذلك في إيطاليا وروسيا حيث كانت معظم المصارف والمصانع الكبرى في يد الالمان . أما في انكترا فلم يكن للالمان الا أثر طفيف والجملة ان الالمان كانوا على وشك فتح العالم فتحاً اقتصادياً . فقد كانت روسيا شبه مستعمرة المانية كما يستدل من الخطاب التي أقيمت في مجلس الدوما اثر تهجير الروس ومنها استخلصت احدى الجرائد ما يلي :

ان ما جرى لروسيا يفوق كل ما عرف عن تسلط الالمان على متاجر العالم فقد كانوا سائرين في سبيل استعمار روسيا لا ينتمى عنده شيء ، وكثيراً ما كانوا يرشون الموظفين كباراً وصغاراً . حتى أصبحت المصارف والمخلات التجارية الكبيرة والمناجم وعدد من المصانع في يدهم . زد على ذلك ان الالمان المستوطنين روسيا واكثرهم من الذين آوئهم كاترينا الثانية ما برحوا محافظين على جنسيتهم ولغتهم واكثر سكانهم في ضواحي المدن الحصينة وعلى جوارب خطوط المواصلات . وقد كان بينهم وبين دعاة الجامعة الجرمانية روابط متينة . ولكن أشد الخطر كان ناجماً عن نفوذ الالمان في البلاط الامبراطوري وفي الوزارات والجيش . وقد اتهم الخطباء نقرأ من اكابر الرجال بنبيلهم الى الرعايا الالمان والنسويين

واذا كانت كل بلد يستثمرها قوم تعد مستعمرة لهم جاز لنا ان نعتقد فرنسا وروسيا والبلجيك قبل الحرب شبه مستعمرات المانية

ولم يقتصر هذا الاستعمار على أوروبا بل انتشر بسرعة في جميع انحاء العالم ناشراً معه اللغة الالمانية والمدنية الالمانية

قال الاستاذ بلسور الفرنسي الذي كان في اليابان قبيل الحرب ما يأتي :

زرت اليابان ثانية بعد زيارتي الاولى بخمس عشرة سنة . فاول مشهد شهدته كاد ينظر له قلبي اذ وجدت النفوذ الالمانى قد حل محل نفوذنا . وعكسنا الانكليز فانهم لم يفقدوا شيئاً من مكانتهم السابقة .

الحرب الاوربية

دأيت في زيارتي الاولى مدارسنا الحربية واساتذتنا وكتبنا وطرقتنا وامتنا محترمة مبيعة لدى اليابانيين . أما اليوم فمدارس الالمان واساتذتهم وكتبهم وطرقتهم وانفتهم هي صاحبة المقام الاول في جامعة طوكيو . مثلاً يتعلم الفرنسية مئة تلميذ فقط حالة كون الذين يتعلمون الالمانية يتجاوزون الالف . ومقابل كل تلميذ ياباني يرسل الى فرنسا يذهب خمسة الى المانيا . وقس على ذلك

وقد نسب الكاتب هذا الانقلاب الى مساعي الالمان ونشرهم الجرائد والكتب من جهة ومن الجهة الاخرى الى اضطهاد الحكومة الفرنسية للرهبنة التي كانت تنقل آداب فرنسا وعلومها الى جميع أقطار العالم ثم قال :

ما برحت في أثناء العشرين سنة الماضية — وانا انتقل بين أقطار الشرق والغرب — ازداد اقتناعاً بان حرب سنة ١٨٧٠ لا تزال ناشبة بين فرنسا ومانيا وانا معاشر الفرنسيين ما زلنا منذ ذلك الحين نتقهقر امام عدونا الجسور . ولم يقتصر الالمان في هذه المدة على الاستفادة من أغلاطنا واماننا — وهذا حق لهم — بل انهم ما برحوا يشوهون وجه التاريخ لمنفعتهم واضرارنا وينسبون اليها التقهقر والانحطاط وجميع الرذائل . .

غير ان المانيا على الرغم من هذه الانتصارات الصامته ظنت انها لم تنل بعد « مقامها تحت الشمس » وظلت تقاوم مساعي الدول الاخرى في الخارج وتعرقل حركتها الاستعمارية

ولكن الاختبار قد دل المانيا على أنها لا تصلح الاستعمار . ومستعمراتها الافريقية التي اهرقت الدماء في سبيلها أنهاراً اكبر برهان على صحة ذلك . فقد يستقبل الالماني على الرحب بصفته تاجراً ولكنه متى أصبح صاحب الامر والنهي لا يعود في استطاعة أحد أن يعيش وينمو تحت ظله

الفصل الرابع

العقل الالمانى الحديث

١ — منشأ الزواج لعقلى الالمانى

ترجع صورة العقل الالمانى الحديث الى اتحاد المانيا تحت سيطرة بروسيا منذ نصف قرن تقريباً . ولا نعني بذلك اتفاق الالمان فى الروح والجنس وانما نريد به بعض الصفات العامة التى انتشرت بين الالمان من جراء اتحادهم فسطبغت بها جميع الشعوب التى تكون الامبراطورية الالمانية — من سلاف وقلت ومغول وبادين وبروسيين وبفارين وورتمبرغيين وسكسون — مع احتفاظ كل منها بصفاته وميزاته الخاصة . فهذه الروح المشتركة — وان لم تُزل ما بين تلك الشعوب من الفروق الجنسية — قد كانت كافية لتوحيد ايمانها ورغائبها ونزعاتها

وقد امتازت الشعوب الالمانية بسهولة اندماجها بالدول التى أخضعها فيما مضى ، بفضل ما تأصل فيها من احترام القوة . والتاريخ يشهد بذلك ، فقد كانوا ينظرون بعين التبجيل والاحلال الى كل من استولى على بلادهم من الفاتحين ، وفي جملتهم نابليون فانه لما دخل برلين منصوراً تقدم اليه اكبر الامراء متوسلين أن ينحهم بعض الرتب فى جيشه حتى استفزت هذه العبودية احتقاره وغضبه فكتب الى صديق له أثر ذلك : « ان اولئك القوم ذليلون فى تعاستهم بقدر ما هم متعجفون ومتكبرون عند أقل بريق من السعادة »

ولا شك ان ماضى تلك الشعوب هو الذى محى شخصيتها ووطد فيها تبجيل القوة ، فقد كان الالمان تحت نير امراء وسادة مختلفين الا انهم اتفقوا جميعاً فى القسوة والصرامة

ولما كان تاريخ المانيا كثير الشعب قليل الاتصال والتوحد فقد سعى مؤرخوها أن يؤلفوا لها تاريخاً أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، كما يسعى حديث النعمة فى

اختلاق نسب مجيد . ومن أغرب مزاعمهم ان اكتساح الشعوب الجرمانية لاقطار
الاوربية قد أحيا العالم ، والحقيقة انه أبداً المدنية الرومانية ونشر في أوروبا الخراب
والدمار . بل ان تلك الشعوب الوحشية لم تستطع ان تدرك الرقي الذي خلفته الامم
القديمة فظلت اكثر من أربعة قرون وهي كالوباء أصاب البلاد الاوربية « لا تحافظ
على عيود ولا ترحم مغلوباً ولا تحترم أحداً سواء في ذلك النساء والاولاد والضعفاء »
على ما قال أحد الكتاب في ذلك الحين

ثم ان اولئك المؤرخين نسبوا الى بني جنسهم في القرون الوسطى ابتكارات فنية
وأدبية واختراعات علمية شتى . والحقيقة انهم كانوا اذ ذاك أبعد الشعوب عن الابتكار ،
والالمانى ميال بطبعه الى التقليد والاقتداء لا الى الابتكار والاختراع
ولا يجوز أن يبرح من ذهننا ما فطر عليه الالمانى من سهولة المراس والانقياد حتى
نفهم كيف ان بروسيا استطاعت في مدة قصيرة ان تكيف روح الشعوب الالمانية
وتخضعها لافكارها ومبادئها

٢ — ميزات المزاج العقلي الالمانى

لا يسع مستظلاً ميزات امة من الامم الا الاقتصار على بعض الصفات العامة
المشتركة بين الجميع . ففي الامة الواحدة ميزات خاصة لكل مقاطعة من مقاطعاتها
— كالشمالي والجنوبي والجبلي والمدني — ولكل مهنة من المهن ، فضلاً عن الميزات
الفردية . على ان هذه الفروق لا تنفي وجود ميزات عامة تنطبق على مجمل الامة
فمن الميزات العامة عند الالمان : اولاً الخضوع والاحترام التام للسلطة الشرعية ،
والتضامن ، والشعور المشترك بتفوقهم على الامم الاخرى (والى هذه الميزة
ينسب احتقارهم لآراء الغير وتعاميمهم عنها) ، وجهلهم التام لكل ما يتعلق بالاحوال
النفسية للامم الاخرى . وهذا الاعتداد بالرأي يستوي فيه جاهلهم وعالمهم الا ان
علماءهم يزيدون عليه ادعاء وميلاً الى التأكيد الاعمى . ولا شك ان المغالاة في
التخصص العلمي قد ضيق عقولهم . أما في المسائل العامة فانهم يقتبسون اقوال
الشائعة في الصحف والآراء المتداولة على اللسان

ويؤثر عن فريدريك الكبير ملك بروسيا قوله « لقد سلّمت الملك على عبيد »
مما يشهد بسهولة انقيادهم وخضوعهم . ولا شك ان هذه الصفات مما يرضي الحكومة

ويسهل عليها حكم شعبها . فقد قالت لهم انها لم تخرب البلحيك الا لمعاقبتها على خروجها عن الحياد التام ، وقالت انها شهرت الحرب على فرنسا لان الطيارات الفرنسية القت القنابل على خط حديدي ألماني فسرعان ما صدقوا القولين !

ومن الميزات الألمانية ايضاً قلة التهذيب ، والخشونة ، وعدم الاخلاق الكريمة — تجدها بين العامة والخاصة

وقد دلت المذكرات والكتب التي وجدناها الخلفاء مع الاسرى الالمان على حقيقة عواطفهم وروحهم الهمجية . قال كولونل فرنسي ترجم جزءاً منها :

اني أود من صميم مؤادي ان اترجم تلك الاوراق يوماً ما وتشرح بين الامم المتعدية ففيها تتجلى روح الالمان الحقيقية . وقد وجدت بينها وصفاً لاحتراق المدن كأنه أمر معتاد ، واطلعت على عبارات الفرح اثر التخريب القبيح ، والفسق الذي لا يرتكبه الا من فقد شعوره . والشره الحيواني الشبيه بتواقع الذئاب الجائعة على غنيمة باردة . وانتهاك حرمة النساء والاولاد والشيوخ الى آخر ما وجدته من الخسائس والذائل

وقد نشرت جريدة الطان كتيباً عنوانه « خواطر ليوتنان الماني » فيه من الاقوال والآراء ما تسمئ منه النفوس الدنيئة . فقد حث المؤلف قومه على القتل والنهب والاحتراق وانتهاك حرمة النساء حتى ينموا ويثروا ، وتمنى ان تدوم الحرب على « جبال من الاشلاء وبحار من الدموع » واليك فقررة من كتابه هذا :

هل يجدر بالمدينة ان تشيد هياكلها على اكبت الاشلاء وبحار الدموع ؟ نعم هذا هو الواجب عليها ، كذلك يجب ان تعتمد فتوحات الشعب المختار للسيطرة على العالم متدسة عند المغلوب بل عليه ان يمتدها واجباً أدبياً سامياً . وويل للمغلوب !

وقد عرفت شخصية هذا الكاتب بعد اسره في ايبرس فقد كان استاذاً للتاريخ في بعض المدارس الألمانية وكان مشمولاً برعاية الفيلد مارشال هسler الألماني وقد اقر بان مبادئه انما هي مبادئ حاميه . ولا شك انها ايضاً مبادئ نزر كبير من رجال الجندية ورجال العلم

وقد لاحظ معظم الحمايدين الذين زاروا ألمانيا بعد الحرب خسرنة الاخلاق الألمانية . قال احدهم وهو اسباني الاصل :

لقد وجدت أحد الآراء وأشدها تطرفاً بين رجال العلم والادب . فرجال المال والسياسة اكثر اعتدالاً من أساتذة الجامعات الذين لم يستطيعوا أن يدركوا حقيقة الحال

والخلاصة ان تلطف الاخلاق ورقتها امور مستهجنة عند الالمانيات ، وعكسهم الشعوب اللاتينية . فاللطف والرفقة في نظر الالماني مرادفان للعجز والضعف . وأصل هذا الشعور اعتماد الالمانيات بأنهم الشعب المختار للسيادة على العالم وانه لا ينبغي لهم ان يمارسوا الشفقة والرحمة تجاه الشعوب الاخرى

ويرافق الحشونة الالمانية في الغالب نقص في التربية والادب يدركه الغريب لأول وهلة . وقد علم الجميع كيف اساء امبراطور المانيا معاملة سفير فرنسا عند اعلان الحرب اذ تركه ٢٦ ساعة في القطار الحديدي بلا اكل يحرسه بعض الجنود حتى اضطر الى دفع ٥٠٠٠ فرنك ذهباً ليكمل سفره — مما لم يسمع في معاملة السفراء . بل انه في الوقت نفسه كان سفير المانيا لدى فرنسا على قطار خاص يتجه به نحو الحدود الالمانية

وقد اعترف قوم من الالمانيات الذين اعتركهم الدهر وجابوا البلاد الاجنبية بتفوق الفرنسيين والانكليز في ميدان الآداب . لانهم على ما قاله احد اساتذتهم « ابناء مدينة أقدم من المدينة الالمانية »

ومن خواص الالماني انه سهل الاستهواء ، فلا يخطب والمقالات تأثير كبير على عقله تراه يصدق بسهولة أغرب القصص وأبعدها عن العقل . وبفضل هذا الاستهواء تتماثل افكار الالمانيات تماثلاً غريباً . اما الانكليز فهم على عكس ذلك يميلون الى التفكير بأسلوب جديد والسير على نهج مبتكر . وزد على ما تقدم ما اشتهر به الالماني منذ القدم بالمكر وعدم الاخلاص

لم أدرس فيما تقدم الاقسام من المزايا العقلية الالمانية . اما الميزات التي بها حازوا نجاحهم فلم اذكرها لانها ستأتي في فصل قادم

٣ — تأثير النظام العسكري البروسي في المزاج العقلي الالماني

قال الفيلسوف لبنتز « ان في استطاعة التربية والتعليم ان تغيرا روح الامة في أقل من نصف قرن » فهذا القول نصف الحقيقة ، ولو أضاف الى تأثير التربية تأثير النظام العسكري لكان قد أصاب كل الحقيقة اذ لا ريب ان الروح الالمانية قد تكونت بفعل النظام العسكري ، والالمانيات انفسهم يعترفون بذلك . فان جميع الرجال الاصحاء يقضون سنتين على الاقل في ايشكنة تحت نظام استبدادي يعاقبهم

بصرامة على ادنى هفوة ، فمن الطبيعي اذاً ان يكتسبوا المواظبة والدقة والانقياد
واساس النظام العسكري هو الخوف وقد بين فريدرىك الثاني خطورة هذا
العامل بجلاء اذ قال :

أترى هؤلاء الرجال ؟ لو فحصتهم واحداً واحداً لوجدتهم يكرهوني . ولكنهم متى اجتمعوا في
صفوفهم وعلموا أن الضابط وراءهم بعصاه ففهم يضطرون خوفاً مني ولا يترددون في تحليصي
من كل اعتداء أو خطر . وأغرب من ذلك انه يكفي أن آمرهم حتى يرموا بأنفسهم الى النار
ويضحوا بحياتهم من أجلي دون أدنى تفكير . لانهم يحولون كل شيء حتى الغرض الذي من أجله
يحاربون . غير انهم يصدقوننا فوراً — أنا وقوادى — حين نقول لهم انه يجب عليهم أن يموتوا .
واذا سألتني كيف حصلت على هذه النتيجة الغريبة أجبتك « بالعصا في المقام الاول »

ولا يخفى ان استخدام العصا والسوط في الجيش البروسي عادة قديمة جداً . وقد
ذكر أحد مندوبي فرنسا لحضور مؤتمر راستاد (سنة ١٧٩٧) في مفكراته انه كان
يفيق كل صباح على صراخ الجنود يضربهم الضباط بالاسواط

وبالرغم من الحاح الجرائد الالمانية لم ينقص شيء من قسوة هذا النظام بل عم
جميع الشعوب الالمانية بعد انضمامها الى بروسيا . فالسوط يرجع الفضل في كون الشعب
الالمانى اليوم حسن النظام وسهل الانقياد وشديد الاحترام لرؤسائه ، فان صورة السوط
لا تفارق مخيلة الالمانى أبداً وهي التي تدفعه الى القيام بواجبه

ولا غرابة أن ينتج عن هذا النظام عقائد الالمان بشأن القوة والحق ، فان الرجل
الذي يظل تحت رحمة رؤسائه وصورة السوط لا تزال فكره لا يلبث أن ينسب هذا
الحق الى القوة ، فلا يرى فرقاً بين الحق والقوة

ومع اننا نعترف بفائدة هذا النظام للشعوب التي تعودت الذل والعبودية فالذي
لا ريب فيه هو انه ليس في استطاعة أمة على الارض أن تتحمله — اللهم الا قبائل
الزنج في أواسط أفريقيا

وبالنظر الى سلطة الضابط في الشكنة تجده له مقاماً رفيعاً بين قومه . ولما كان
لا يعرف الا القانون العسكري فان روحه هذه تتجلى في جميع معاملاته . وأي برهان
أقوى من حادثة زابرن (في الالزاس) التي حدثت قبل الحرب بقليل فضجت لها جرائد
العالم . وخلاصتها ان كولونلاً أمر بسجن ثلاثين مدنياً بينهم قاض في أحد الاقبية مدة
٢٤ ساعة لانه اشتم من سلوكهم عدم الاحترام لشخصه . فلما طلب المحاكمة امام

مجلس عسكري برئت ساحته بأجماع الآراء . والاغرب ان ولي العهد (الكونبرنز) قدم له تهانته الشخصية . ولو حدث مثل ذلك في انكارترا لعوقب الكولونل بلموت أو النني المؤبد على الأقل . ولما كان الضابط الالماني على الاجمال يجهل كل ما خرج عن وظيفته تراه لا يلتهبي الا باللعب والسكر

٤ — اثر التربية في المزاج العقلي الالماني

بجانب أثر التكنة العسكرية بل تحتها بمراحل يجب ان نضع تأثير المدرسة ، وهي عندهم كثيرة الشبه بالثكنة . ومن ميزات نظام التعليم الالماني انه شديد الملازمة لحاجات هذا العصر الصناعي ، فالتعليم الفني فيه مقام رفيع وهو ذو فروع شتى — حتى ان الطبخ له مدارس خاصة

والقاعدة الشاملة كل التعليم الفني والعالي انما هي تقسيم العمل تقسيماً متناهياً . ففي المباحث التاريخية واللغوية والعلمية وغيرها نجد العالم الالماني يتبع بمبحث ضيق يقضي حياته في استجلائه ، تاركاً المباحث العامة والقواعد الشاملة جانباً . وهذا النظام شديد الملازمة لشعب بعيد عن الابتكار كالشعب الالماني ، فيه تستخرج الفوائد الثمينة من العقول المتوسطة . ولا شك ان تخصيص البحث في المسائل الفنية جم النتائج . ومن أمثلة ذلك دواء ارليخ المعروف باسم ٦٠٦ فان مستكشفه ركب بمساعدة معاونيه مئات من التراكيب حتى وصل الى ضلته المشودة

ان هذا التخصيص اذا كان منظماً على قواعد تشمل جميع الفنون والفروع يأتي بأعظم النتائج — الا ان الاستاذ اسوالد الالماني واهم في زعمه ان الالماني وحدهم يستطيعون السير على هذا الطريق ! فان اميركا وانكارترا قد وصلتا الى نتائج لا تقل قيمة عما استنبطه الالماني — ولكن عن غير الطريق التي اتخذها هؤلاء . فبينما الالماني لا يعرفون منظماً غير الحكومة نجد الانكليز والاميركان قلما يعتمدون عليها

فترى مما تقدم ان الفرق الجوهرى بين الالماني ومعظم الشعوب المتمدنية يرجع الى هذه المسئلة : هل للدولة حق المداخلة في ظواهر الحياة الاجتماعية كافة لتديرها وتنظيمها أم عليها ان تترك الحرية لرعاياها قاصرة قوانينها على ما لا غنى عنه لحفظ الامن والراحة ؟ وقد رأينا ان المزاج الالماني لا يوافقه غير التنظيم المتناهي على يد الحكومة

٥ — أثر الدين في المزاج العقلي الالمانى

ان أثر الدين في تكوين المزاج العقلي الالمانى طفيف جداً بجانب أثر النظام العسكري وانما ذكرناه هنا دعماً لأي بيناه في عدة كتب انا وهو ان وحدة العقيدة الدينية وهم ، أو بعبارة أخرى ان الدين الواحد يتخذ صوراً مختلفة وفقاً لامتزجة الامم التي تدين به

وانه لمن المفيد ان ندرس كيف يختلف تأثير الدين الواحد والكتاب الديني الواحد باختلاف الاجناس . ففي انكلترا مثلاً كان للمذهب البروتستنتي أثر عظيم في نشوئها ونموها في حين ان هذا المذهب لم يترك أثراً يذكر في البلاد الالمانية ويرجع أثره في انكلترا الى مقام الكتاب المقدس وضرورة قراءته ، اذ ان المذهب البروتستنتي انما يعتمد على تعاليم وحدها . وقد كانت هذه الطريقة المبينة على حرية الشرح شديدة الموافقة للطبع البريطاني الميال الى الحرية والاستقلال . فلا عجب ان ينشأ من ذلك دين انكليزي يعبر عن اميال الشعب الانكليزي ونزعاته . فكأن اله الكتاب المقدس قد اصطبغ بانتقاله الى بلادهم بصبغة وطنية -- ولو تنصر الصينيون لاصطبغ الاله بصبغة صينية

أما في المانيا فان اله المسيحيين الذي يمثل المحبة والرفقة ويحب المتواضعين قد تحول الى صورة وحشية فتراه يحتقر الضعفاء ولا يحبي الا الاقوياء ! ولا يستغرب هذا الانقلاب من علم ان الدين والآلهة لا تغير روح الامم بل بالعكس انها هي تتغير وتتكيف وفقاً لتلك الروح

ان هذا الرأي الذي شرحته بتوسع في غير هذا الكتاب يوافق تمام الموافقة نشوء الديانة المسيحية في المانيا الحديثة . فقد جمع الالمان بين تعاليم الانجيل المبينة على الاحسان والمحبة والرفقة (التي سماها نيتشي دين الارقاء) من جهة ونزعاتهم الوحشية التي لا تعرف حقاً غير القوة ولا سلطة الا السيف من الجهة الاخرى ! . ولما كانت المنطق الروحاني لا يعبأ بالمتناقضات العقلية فقد وقعت المانيا بين الدين المسيحي والروح الالمانية على رغم ما بينهما من التناقض الشديد

٦ — وحدة الروح الالمانية الحديثة

التأثيرات التي تقدم وصفها قد تاصلت في نفس جميع الشعوب الالمانية تحت

سيطرة بروسيا الحديدية . وقد فقد الالماني من جرائها روحه الفردية ليندمج في روح الجماعة الشاملة . ولا يعرف التاريخ امة بلغت من الوحدة النفسية ما بلغته المانيا . وليس ادل على ذلك من مشاهدة الاسرى الالمان . فقد دهش جميع الذين شاهدوهم من وحدة افكارهم على الرغم من انتسابهم الى طبقات مختلفة . واليك ملاحظات محرر سويسري بهذا الشأن ، وهي مثال لغيرها :

ما كنت اظن قط انه يمكن توحيد الجماعات الى هذه الدرجة . واقف امام اولئك الاسرى وانا أسائل نفسي هل هذا التوحيد مستحسن أو مستهجن ؟ فانه خيل الي ان هناك عقلاً واحداً يفكر في الوف من الرؤوس . فهل هذا ناتج عن العدوى أم هو نتيجة التربية العسكرية الصارمة ؟ لا أدري . ولكن الذي تأكدته هو انه بالرغم مما بين الالمان من الاختلاف في الشعور والادراك والتعبير فقد فقدوا جميعاً ذاتيتهم حتى كأنه لم يعد في المانيا أفراد مستقلون وانما فيها شعب واحد أو جسم اجتماعي واحد ذو رأس وعقل واحد هو الحكومة . فلا يقوم لشيء قائمة عند الالمان بغير الاتحاد كأن الالماني قد أصبح عاجزاً عن العمل الامتداداً — حتى في المباحث العامة الراقية فانك كثيراً ما تجد على كتيب صغير اسماء عشرة مؤلفين معاً

ولا يجب ان يبرح ذلك من ذهننا حتى ندرك قيمة بعض المنشورات التي نشرها الالمان ولا سيما البيان الشهير الذي امضاه ٩٣ عالماً من علمائهم ، فان فيه تتجلى الروح الالمانية الحقيقية بل ان هذا البيان أفضل برهان على بعد روح الجماعات عن احكام العقل الصحيح . وهو يثبت ان ارقى العقول تفقد ذاتيتها وقوة تمييزها عند الاختلاط . وقد كان الغرض من ذلك البيان تبرئة الالمان من تهمة القتل والنهب والاحراق والهتك التي كانت موجبة اليهم . واليك فقرات منه :

لا صحة لما نسب اليها من انتهاك حرمة البلجيك فقد ثبت ان فرنسا وانكلترا كانتا موطنتي العزم على انتهاكها وثبت أيضاً ان البلجيك كانت متفقة وياهما على هذا ، ولولا اننا سبقناهم لكانا في حكم المتحررين

لا صحة لما نسب الى جنودنا من التعدي على أملاك بلجيكي واحد الا متى حكمت عليهم الضرورة القاهرة بذلك

لا صحة لما قيل عن جنودنا من انها اضطهدت اهل لوفن فان التعدي كان في الاول من الاهلين الذين هجموا على الجنود الالمانية في معسكراتهم

واسنا اليوم في حاجة الى المجادلة بشأن هذه التهم فقد اثبتت المستندات الرسمية صحتها والارجح ان اولئك العلماء الذين أمضوا البيان السالف قد ندموا على ما فعلوا . واليك اعتراف صريح للكاتب الالماني المشهور مكسيميليان هاردن :

لنضع جانباً مساعيها لتبرئة المانيا مما أقدمت عليه ولتكف عن سب العدو باحتقار ، فاننا لم ندخل مرغمين في هذه الحرب ولم يضطرونا اليها أحد . وانما أردناها . ولم يكن في وسعنا الا ان نريدها . لسنا اليوم امام محكمة أوربية فنحن لا نعترف بسلطة قضائية اجنبية نخضع لها . ولكن قوتنا سوف تخلق قانوناً جديداً لاوريا ان المانيا اختارت هذه الحرب لانها تطلب مقاماً رفيعاً في العالم وتحتاج الى منافذ تصرف فيها مصنوعاتها

٧ — لماذا اتفق المزاج العقلي الالمانى مع التقدم الصناعى الحديث

لم يكن تقدم شعب من الشعوب الغابرة متواصلاً بلا انقطاع ، فلا بد للدولة بعد التقدم والارتقاء من التفتقر والاضمحلال . بل ان بعض المدنية بادت كلها حتى ان علماء الآثار جهلوا عواصمها الى زمن قريب . فبالامس فقط استكشفوا آثار طروادة وبابل ونيوى

ان الاسباب التى ترفع الامم وتحطها عديدة نذكر في مقدمتها سنة « التكيف وفقاً للبيئة » التى تصح على المجتمع البشرى كما تصح على العالم الحيوانى والنباتى . وهذه السنة تقضي على كل مخلوق حي ان يتطور مع تطور وسطه . فالذي يلتحم بوسطه يحيا وينمو واما الذي لا يلتحم به فينقرض

وكما ان تغير الطقس والظواهر الجوية يتبعه تغير النباتات والحيوانات فكل تغير اقتصادى أو سياسى أو دينى يستلزم كذلك تغيرا في مزاج الامة العقلي يختلف باختلاف تلك التغيرات ووجهتها

فالتقدم الصناعى الحديث يتطلب صفات لم تكن ذات مقام كبير فيما مضى . ومن حسن حظ الالمان انهم حاصلون عليها . فالصناعة الحديثة تستدعي تقسماً متناهيًا في الوظائف بحيث يتقن الواحد جزءاً صغيراً جداً من مجموع العمل . ولا بد لذلك من الضبر والاناء والمواظبة والانتظام مما يتعذر على الامم الحادة الطباع وصاحبة الخيالات البعيدة ان تتطبع به . أما الالمان فلم يفتروا بطبعهم الفطري ونظامهم العسكرى يمارسون هذه الصفات بسهولة

على ان تلك الصفات لم يكن لها منذ قرن هذه الخطورة لان الصناعة والعلم كانا لا يزالان في مهدهما ، وانما احتاج العالم فيما مضى رجالا يتطلعون الى الابتكار والاستكشاف أمثال غاليليو وديكارت ونيوتن لوضع أساس العلوم والفنون الحديثة . أما اليوم فقد حل محلهم ملايين المشتغلين قسموا العالم الى ملايين من الاقسام الصغيرة

وقد تخصص كل فريق منهم لقسم خاص لا يتعداه . وقد بلغ هذا التقسيم أقصى درجاته في المانيا

ولكن يتقص اولئك الاختصاصيين — وان أفادوا الصناعة — ادراك القواعد الشاملة واستخراج النتائج العامة فلا يستطيع أن يخرج من بينهم رجال أمثال دارون وبستود وكلود برنار وتين وغيرهم ، ولا تنبت في معاملهم الاختراعات الحديثة كالتلفون والاوليوموبيل والطيران والتلغراف اللاسلكي وغيرها . الا ان العتو الالماني مع ذلك قد بلغ مبلغاً عظيماً جداً حتى ادعى بعض مؤرخي الالمان ان دانتي ورمبراندت وبسكال وراسين وشكسبير وغيرهم من اصل الماني

غير ان المعامل العلمية الالمانية وان لم تولد افكاراً جديدة فانها بارعة في اقتباس افكار الغير والعمل بها . فهنا سر قوتهم . وهذا الحكم يصح على الفلسفة كما يصح على المسائل العلمية فانك لا تجد فيلسوفاً المانياً كبيراً ظهر بعد الاتحاد الالماني ولا تستطيع ان تذكر واحداً كان له تأثير يذكر — ألا نيتشي . ولكنه انما توسع في تأليه القوة وهو مذهب قديم في تلك البلاد

ولا غرابة في كون المانيا قد جعلت بالمقام الاول الصفات التي ادت بها الى العظمة بل هذا امر طبيعي . ولستكني أشك في ان المستقبل سيقدر تلك الصفات في هذا المقام . ولا شك ان هناك رغائب واماني اسلمى من صنع الادوات والآلات والمأكولات والمشروبات بكثرة هائلة تحت حماية المدافع !

لا ندري ما نخبئه الاقدار للشعوب في المستقبل وانما نستطيع القول بانه اذا فازت الروح العسكرية البروسية فيكون ذلك في قوة قتل للروح الفردية وابادة للخاصة صحاب الابتكار والاختراع

الباب الثالث

اسباب الحرب البعيدة

الفصل الاول

الاسباب الاقتصادية والسياسية

١ - الاسباب الحقيقية والاسباب الوهمية

تنشأ الحوادث العظمى كالحروب مثلاً عن أسباب بعيدة واسباب مباشرة. وسندرس الاولى منها في هذا الباب من الكتاب وندرس الثانية في الباب التالي

الاسباب البعيدة نوعان فمنها ما هو حقيقي ومنها ما هو وهمي — وليست الاسباب الوهمية (أي المبنية على الاوهام) بأقل تأثيراً من الاسباب الحقيقية ، بل قد يكون الاوهام سلطة على النفوس تدفعها الى أعظم الاعمال وأخطرها . وقد ذكرت غير مرة في كتيبي السابقة ان وظيفة الفيلسوف لا تقضي عليه بان يقيس العوامل التي تدفع الناس بالنسبة الى أحكام العقل على اعتماد انها القياس الامثل ، وانما الواجب عليه درس تلك العوامل ناظراً الى خطورتها فقط والى تأثيرها في مجرى التاريخ . ولا شك اننا لو بحثنا من التاريخ الممارك التي نشبت بسبب الاوهام لما بقي منها شيء يذكر

يجد المتبصر في منشأ هذه الحرب ان الاسباب التي هيأتها تبلغ من العمر نصف قرن تقريباً في حين ان الاسباب التي باشرتها حدثت في اسبوع واحد فقط . فعلينا ان ننظر في سؤالين : أولهما ما هي الاسباب البعيدة التي اعدت اوربا للحرب في الخمسين سنة الماضية ؟ والسؤال الثاني ما هو مصدر الحرب الحقيقي في اسبوع

المفاوضات السياسية التي تقدمت اعلان الحرب ؟

ليس الجواب عن هذين السؤالين بالسهل الميسور اليوم اذ ان لكل من الفريقين مزايعم تناقض مزايعم الآخر . فالألمان جميعاً مقتنعون بان الانكيز والفرنسيين تمنوا هذه الحرب منذ مدة بعيدة . ومن الجهة الأخرى ترى فرنسا مقتنعة بان المانيا تمسكت بعذر تافه اشهر حرب تشبهها . وستترك استجلاء هذه المسئلة الى ما بعد لندرس الآن اسباب الحرب البعيدة

٢ — زعم ازدياد سكان المانيا

ان الاعتقاد بازدياد سكان المانيا منتشر انتشاراً عظيماً سواء في فرنسا والمانيا — على الرغم من مخالفته للواقع . وهذا الاعتقاد ناتج عن ميل كتاب الالمان الى تطبيق السنن الطبيعية على المجتمع البشري ، وفي مقدمتهم برناردي الذي يكثر من ذكر مذهب دارون ومذهب ملثس — على ان الفرق بين عوالم الحيوان وعالم الانسان هو ان الاولى تخضع خضوعاً تاماً لسنن الطبيعة في حين ان الانسان قادر على مكافحة تلك السنن الى حد ما

واليك خلاصة مذهب ملثس : تنزع جميع المخلوقات الحية ومن ضمنها الانسان الى اكاثر النسل . ولما كانت موارد الرزق محدودة فلا بد من حفظ التوازن بين الجهتين وذلك يتم بالحروب والابوثة التي تبديد ما يزيد من الناس . نعم ان تقدم الصناعة والزراعة يجعل المساحة المعينة من الارض تعمل عدداً متزايداً من الناس . ولكن هناك حداً لهذه الزيادة ولا بد ان يأتي وقت يختل فيه التوازن بين موارد العيش وطلابه . فيضطّر الشعب اذاً بطبيعة الحال القاهرة الى احد امرين : أما ان يحارب جيرانه للاستيلاء على ما عندهم من أسباب الرزق او ان يهاجر الى بلاد سكانها قليلون . والتاريخ يدلنا ان هذه الحال تكررت غير مرة في تاريخ الشعوب الجرمانية قديماً وتاريخ اليابان حديثاً

غير اننا سنبين ان المانيا الحديثة لم تكن في مثل هذه الحال ، وان يكن كتابها الحربيون وغيرهم قد زعموا ان تكاثر الاهلين في المانيا يضطرها الى الحرب . واليك بعض ما قاله الجنرال برناردي ، وما قوله الامثالا من أقوال غيره . قال :

إذا نظرنا الى حالة العالم في الوقت الحاضر تيقنا ان الحرب ضرورية لان عليها يقف نمو امتنا في المستقبل . فان ألمانيا تقوت اليوم ٦٧ مليوناً في حين ان فرنسا لا تقوت الا أربعين مليوناً . ومساحة الدولتين متساوية تقريباً . ويزداد الشعب الألماني مليوناً في كل سنة على وجه التقريب . وانه من المستحيل ان تتمكن الصناعة والزراعة في المستقبل من اعالة شعب يتناسل بهذه السرعة . فلا بد لنا اذاً من توسيع مستعمراتنا ولكن ذلك لا يتم الا بانتزاع بعض المستعمرات من الدول الاخرى أو بالاشتراك مع تلك الدول . ولهذا الغاية يجب أن نوظف موقفنا في أوروبا المتوسطة . وقد أصبحنا اليوم عند كل حركة تهددنا في السياسة الخارجية مهددين بحرب أوربية . على ان مثل هذا الضيق لا يحتمل طويلاً

لو صح هذا الزعم لرأينا المهاجرة الألمانية تزداد تدريجاً والواقع انها نقصت نقصاً عظيماً في المدة الاخيرة حتى أصبحت أقل من المهاجرة الانكليزية . بل ان الحالة بعكس ذلك فقد أصبحت ألمانيا في حاجة الى العمل ، وهي تستجلب سنوياً لهذه الغاية مئات الالوف من العمال الاجانب لمعاونتها في اعمال الحصد واستثمار المناجم

نعم ان سكان ألمانيا يزدادون سنوياً نحو ٨٠٠.٠٠٠ نفس وهم الآن يتجاوزون السبعين مليوناً ولكن البلاد لم تضق بهم بعد . بل ان كثافة الشعب الألماني (أي نسبة الاهلين الى المساحة) أقل من كثافة كثير من الشعوب الاخرى . واليك جدولاً يبين عدد السكان في الكيلو متر المربع

فرنسا	٧٤	ألمانيا (وألمانيا)	١٢٠	اليابان	١٣٩
انكلترا	١٤٤	هولندا	١٨٢	البرازيل	٢٥٤

ولكن لنفرض صحة زعم اولئك الكتاب الالمان : فمع هذا الفرض ليس لألمانيا مصلحة في الحرب الا اذا كانت الدول الأخرى تمنع دخول الالمان اليها . والواقع على ما يعلم الجميع خلاف ذلك فان الالمان انتشروا بين جميع الامم بل واستولوا على متاجرها ومراقفها الاقتصادية

على اني اخالف الرأي الشائع في فرنسا وهو الذي يجعل قوة الدولة موقوفة على عدد سكانها . ولو كان صحيحاً لرأينا الصين في مقدمة الدول قوة وبطشاً . والحقيقة ان عوامل القوة هي وسائل النقل والذخائر والذهب

زد على ذلك انه من الوهم ان نعتقد بفائدة الخطب والمقاتلات في ازدياد السكان . وانما الميسور ان نحسن نوع الموجودين منهم ونزيد جودتهم . وانه لا فضل ان ينتسب الانسان الى نخبة قليلة راقية كالليونانيين القدماء الذين لا تزال آثار مدنياتهم حية الى

هذا اليوم ولا ينتسب الى قطع هائل من البشر لا يشفع به الا عدده . ولا تعدد الامم الراقية — وان قل عددها — وسيلة في دفع هجمات المعتدين عليها من الشعوب الكثيرة العدد اما بالاختراع أو بالاتحاد على العدو المشترك أو بغير ذلك

٣٥ — الحاجة الى الاتساع والى المنافذ التجارية

ان طلب الاتساع شعور طبيعي للامم التي تزداد قوتها العسكرية . فف من مجرد شعور قوم بقوة بطشهم يحجب اليهم الامارة والسلطان . ولما كان الانسان لا يعترف بما يوحيه اليه كبرياؤه وطمعه فتجده يخلق اسباباً محسوسة ليبرر اعماله . اما الاسباب المحسوسة التي تذرع بها الالمان فهي حاجتهم الى منافذ تجارية يصرفون فيها سلعهم . ولا شك ان هذا الزعم لم يكن الا وهماً . فقد كانت تلك المنافذ مفتوحة للالمان في جميع الاقطار حتى اوشكوا ان يسيطروا على اسواق العالم غير ان هذا الوهم شائع بين الالمان والفرنسيين على السواء حتى لم يبرأ منه المسيو هانوتو المؤرخ الكبير فقد قال :

لا يجهل أحد سعي امبراطور المانيا لفتح منافذ تجارية في جميع اقطار العالم بنفس منها شعبه خوفاً من الاختناق الاقتصادي . فقد كانت تلك الرغبة الباعث الاول على هذه الحرب . واقد سميت هذه السياسة « سياسة المعدة » لان الشعب الالمانى أشبه شيء بمردمة ذات برائة

وقال أيضاً في هذا المعنى الاستاذ ليفي بروهل الفرنسي في كتاب عن اسباب الحرب الاقتصادية :

لو كان لالمانيا مستعمرات واسعة غنية لوجدت فيها منافذ ثابتة مأمونة لتجارتها كما تفعل انكلترا وفرنسا . والارجح عندي ان هذا النقص هو السبب الخفي الذي دفع المانيا الى التسليح المستمر اذ ما فائدة تفوقها الحربي ان لم يضمن لها تجارتها

ان الآراء المستخلصة من الفقرتين المتقدمتين — وكثيرون هم الكتاب الذين يرددونها — لمن أجسم الاغلاط المنتشرة بين الناس . ومن الغريب ان نجد من يقولها في هذا العصر فانه يكفي ان نلقي نظرة سطحية على احصاءات التجارة الدولية لتؤكد ان معظم تجارة انكلترا وفرنسا ليست في مستعمراتها بل في الدول الاخرى . وعلى فرض ان المانيا استوت على مستعمرات هاتين الدولتين فمن المستحيل ان تكون تجارتها فيها اعظم من تجارتها في فرنسا وانكلترا وروسيا نفسها قبيل الحرب

وقد بينت في فصل من كتابي «روح السياسة» عنوانه «طرق الاستعمار الجديدة» كيف أصبح الألمان أصحاب مصالح عظيمة في مستعمرات الدول الأخرى من غير أن يكلفوا أنفسهم مشقة المحافظة على الأمن فيها وتدريب شؤونها الإدارية والسياسية

ثم لو فرضنا أن ألمانيا استولت على فرنسا وانكسترا فهل تزيد تجارتها فيهما؟ لا ريب في أن الجواب بالنسبة لأن هاتين الدولتين تصبحا أثر الحرب في فقر مدقع فنستخلص مما تقدم أن طلب المنافذ التجارية يجب أن يعد بين أسباب الحرب الوهمية — ولكن ذلك لا يقلل من خطورته في إثارة الحرب

٤ — المنافسة الاستعمارية

كانت رغبة ألمانيا في الاستيلاء على موانئ أجنبية تجعلها محطات لسفن أسطولها سبباً حقيقياً من أسباب الحرب تزيد خطورته على خطورة السبب المتقدم ولقد علمت الدول — أثر حوادث مراكش — شيئاً من مطامع ألمانيا في هذا الباب . إلا أن تلك الحوادث أعلمت ألمانيا من الجهة الأخرى أن الدول الأوروبية لا تجعل الاستيلاء على شيء من مستعمراتها ومناطق نفوذها هيناً سائغاً . ولا يخفى أن معظم المواقف والمحطات البحرية والحرية في العالم هي في أيدي الدول الأوروبية القديمة العهد في الاستعمار . وقد رأت ألمانيا أنها لا تستطيع الحصول على شيء منها إلا بالحرب ولا سيما بعد ما رأتها من رباطة جأش فرنسا في مسألة أغادير وموازرة انكسترا لها وقد دلت الحوادث على خطأ ارتكبه بسمارك — وقما خطأ ذلك الداهية — في شأن السياسة الاستعمارية . فقد كانت سياسته ترمي إلى حث فرنسا على الاستعمار أولاً لصرف نظرها عن الثأر من ألمانيا وثانياً لكي تتنافر مصالحها ومصالح انكسترا . ولم يخطر بباله خطورة الاستعمار لألمانيا

غير أن رغبة بسمارك لم تتحقق . فلم يلبث بين انكسترا وفرنسا تنافر استعماري وإنما حدث تنافر بين مصالح ألمانيا وفرنسا . ولم يفكر ذلك السياسي المحنك وقتئذ — إذ لم يكن لألمانيا إلا أسطول صغير — أن توسع فرنسا يضر بمصالح ألمانيا مباشرة على أني لم اعتقد يوماً بأن ألمانيا تقدم على الحرب لأجل المسألة المراكشية أو

نحوها فان مطاعمها أرفع وأبعد . ومن رأيي ان الاستيلاء على ميناء انفرس في مقدمة الاغراض التي ترمي اليها المانيا . ولكي يقتنع القارئ بصحة هذا الرأي يكفي ان يقرأ الفقرة التالية من كتاب أرسله المسيو دارنبرج وزير المستعمرات الالمانية السابق الى مجلة المانية تنشر في اميركا قال :

ان اعظم منفذ للتجارة الالمانية في يد البلجيكي . فهي التسع الطبيعي للامبراطورية الالمانية . بل هي المنفذ البحري الوحيد للتجارة الالمانية . وقد اوجدتها انكلترا وحمتها منعاً لالمانيا من الاستفادة بمركزها الطبيعي . الا انه لن يسعنا الاستغناء عن تلك البلاد والذي أراه ان الالمان يفضلون بلا ريب ان يتنزلوا عن مقاطعة الالزاس على التنزل عن ميناء انفرس

٥ — الاغلاط السياسية

ان سرد الحوادث السياسية التي كان لها اثر بعيد في منشأ هذه الحرب يستدعي وحده مجلداً ضخماً . لذلك تقتصر على نظرة اجمالية

ولا بد لنا من الرجوع الى استيلاء بروسيا على مقاطعتي شلويج وهولستين الدانماركيتين الاصل (سنة ١٨٦٤) فقد كانت الغلطة الاولى ان فرنسا لم تعترض اعتراضاً ما على هذا الاستيلاء . وكانت الغلطة الثانية انها لم تمنع بروسيا من كسر النمسا في معركة سادوفا (سنة ١٨٦٦)

وفي سنة ١٨٧٠ كانت الاغلاط في جانب انكلترا وروسيا اللتين لم تمنعا المانيا من كسر فرنسا . وقد بينت في كتاب نشر قبل الحرب بسنوات نتيجة خطأ انكلترا وقصر نظرها اذ ذاك قلت :

اذا كانت انكلترا تتخبط اليوم بين مشاكلها الداخلية والخارجية وتفرض الضرائب لتزيد اسطولها خوفاً من تفوق المانيا فما ذلك الا لان ساستها في سنة ١٨٧٠ لم ينظروا الى بعيد . فانهم اطاعوا ما اوحته اليهم ضغائنهم القديمة نحونا ورفضوا جمع مؤتمر يقف المانيا عند حدها وقد كان بسمارك شديد الخوف من هذا المؤتمر كما يستدل من مذكراته

اما ساسة روسيا وقتئذ فان خطأهم لا يقل عن خطأ ساسة انكلترا فانهم في سنة ١٨٧٠ مهدوا السبيل الى نصر المانيا بالتضييق على النمسا ومنعها من معاونة فرنسا زد على ذلك اغلاط مؤتمر براين الذي كان السبب في توليد مشاكل عديدة ولا سيما المشاكل البلقانية التي شغلت اوربا زمناً طويلاً والتي آلت نهائياً الى هذه الحرب

الفصل الثاني

الضغائن الجنسية

١ — الضغائن الجنسية الناشئة عن اختلاف الامزجة العقلية

إذا اتعمت النظر في البواعث الخفية التي أدت الى هذه الحرب وجدت بينها الضغائن الجنسية المتأصلة في الشعوب البلقانية . وليست هذه أول حرب سببها تلك الضغائن . وقبل درس نتائجها يجدر بنا ان نبحث عن منشأها فنقول :

قد تزداد هذه الضغائن شدة بتنافر المصالح الاقتصادية ولكن بواعثها الأولى أعمق وأبعد ، فهي ترجع الى اختلاف الامزجة العقلية وما يتبع ذلك من اختلاف التأثير بالظواهر المتماثلة واختلاف النظر الى الأمور الجارية . فمن هذا الاختلاف ينشأ تباين العواطف والأعمال وصعوبة التوافق والتفاهم

قد يسهل الاتفاق على المسائل العلمية والنبية التي ترجع الى أحكام العقل وحده . ولكن الناس كما رأينا لا يخضعون الى أحكامه في المسائل السياسية والدينية والاجتماعية وإنما يطيعون الدوافع العاطفية والروحانية والجماعية التي تدفعهم مهما تكن درجة رقيهم العقلي — فلا عجب اذا لم تتفق الشعوب في آرائها وعقائدها

ثم ان أهل الاجناس المتباينة لا يختلفون في الرأي فقط بل يصعب عليهم جداً أن يتصوروا وجود آراء غير آرائهم . ولا ينبغي ان ندهش من ذلك فإنه لا يتيسر للانسان أن يفهم عقل أحد غيره فهماً تاماً — اللهم الا اذا تقل اليه مزاجه العقلي

وليست وحدة اللغة دليلاً كافياً على اتفاق المشارب والمدارك فقد يختلف معنى الكلمة الواحدة باختلاف الادمغة التي تفهمها ، ولا سيما المعاني المجردة كالنفس والحرية والطبيعة فإن وقعها في النفس يختلف باختلاف الامزجة العقلية . أما الكلمات التي تدل على شيء محسوس فقلما يختلف الناس في ادراكها

على ان اختلاف الامزجة العقلية لا يمنع الشعوب ظاهراً من أن يعامل بعضها

بعضاً بالادب والاحترام المتبادل ، وأن تعقد اتفاقات سياسية وتجارية تفيد الفريقين .
ولكن لكي تدوم المودة بينها ينبغي ألا تكثر من الاختلاط حتى لا تصادم مدراكها
ومشاعرها المتناقضة

٢ — الضغائن الجنسية الناشئة عن اختلاف الدين والمصالح

ان تبين العقائد الدينية والمصالح الاقتصادية لما يزيد قوة الضغائن الطبيعية . أما
العقائد الدينية فان نظرة سطحية الى الحروب والاضطهادات التي ملأت تاريخ الدول
الاوربية وغيرها تكفي للاقتناع بما لها من السلطان على نفوس البشر ، وساقصر
كلامي فيما يلي على تنافر المصالح

أمامنا اليوم مثال حي لهذا التنافر الشديد — نعي بغض الالمان للانكلز — فان
بين هذين الشعبين قرابة جنسية ، ولكن التنافس التجاري قد أقام بينهما عدواناً شديداً
أدى بهما الى امتشاق الحسام . وكانت أول نتائج هذا التنافس ان ألمانيا أنشأت اسطولها
العظيم بسرعة غريبة . وما برحت الصحف الالمانية تظهر انكلترا بظهور العدو الذي
ينبغي كسره مهما انفق في هذا السبيل . وقد كان هذا البغض منتشرًا بين العامة
والخاصة على السواء كما يتضح من الفقرة التالية المنقولة عن مقالة للاستاذ ماير
(من جامعة برلين) بتاريخ اول مارس سنة ١٩١٥ قال :

ان ميزة القرن العشرين هي التنافر الشديد والبغض الذي لا يرجى ازالته بين انكلترا ومانيا .
انا نشعر ونعلم جميعاً من هو عدونا اللدود الذي يسعى في هدم مدينتنا وحياتنا الوطنية . ولئن تم
الصالح معه في الظاهر فان الهوة العظيمة التي انفتحت بيننا وبينه ستظل فاعرة فاعها . وسوف تمر
اجيال عديدة قبل ان تنفق اتفاقاً مستديماً

على ان هذا الاختلاف لا يرجع الى تنافر المصالح الاقتصادية فقط بل الى تبين
العواطف والعقائد . فان الالمانى الذي يعتقد بتفوق أمته على سائر الشعوب يضيق صدره
عن أن تكون انكلترا صاحبة المقام الاول على الكرة الارضية ، ويرى في ذلك
اجحافاً بمحقوقه . فلا غرابة أن يحمل الفلاسفة الالمان على منافسي امتهم وبلادهم وأن
يزعموا ان عظمة انكلترا ليست موطدة الاساس وانه يكفيها صدمة من ألمانيا حتى
تسقط من ذروة مجدها . قال الدكتور لينارد احد اساتذة جامعة هيدلبرج :

ان المركز الاعلى لا في العالم من خبث ومكر كائن على ضفاف التاميز وعلينا ان نمحوه . . . لانه من

المستحيل ان يأمن قوم شر عصابة لصوص الا بتشتيتهم وقتلهم
فهذه الحرب ليست حرباً للمحافظة على حياة ألمانيا وشرفها فقط بل هي ايضاً حرب تقصد منها
توطيد دعائم الصدق والاخلاص على الارض

اذا كانت هذه عبارات العلماء فليتصور القارئ مايقوله عامة الكتاب ! بل أي
مقال أبلغ من هذه الجملة المأخوذة عن جريدة المانية تصدر بأميركا :

مضى اذللنا اعداءنا واستولينا على املاكهم فانا لا نأذن للاهليين الاصليين من انكليز وفرنسيين
وايتاليين وغيرهم ان ينسوا بئس شقة . فذا رفع احدهم صوته الى اعلى من التنهيد كسرناه
شر كسر

وبعد ان تهدم المعابد المسوسة والابنية القبيحة نقيم مكانها هياكل اعظم وافخم للمجد فيها
امبراطورنا الرفيع وشعبه المجيد غالبي الامم المنحطة ومزيليها من وجه الارض
كم من المرات يجب علينا ان نشكر الله الذي وكل الى امبراطورنا الفريد وشعبه هذه المهمة
العظيمة ! ألم يقل دارون (ولا شك انه اخذ فكرته عن بعض علماء الالمان) انه لا يصح الا
الصحيح ولا يبقى الا الانسب

هذا مثال من آراء الالمان . أفليس من العجيب الغريب أن يوجد اليوم شعب
متعلم متهدب كالشعب الالماني يفكر على هذا النحو !

٣ — الضغائن الجنسية الناشئة عن اختلاف المذاهب السياسية

ان شكل الحكومة موقوف على المزاج العقلي، فبعض الشعوب تكون معدة بطبيعتها
لقبول نظام ما دون سواه . وقد رأينا كيف ان الشعوب الالمانية قبلت بسهولة مذهب
استنثار الحكومة (البروسي الاصل) بل ان تلك الشعوب قد نشرته تشرّباً تاماً حتى
أصبحت تراه الصورة المثلى التي يجب أن تقدي بها جميع لعم الارض
ان روح الالماني الجماعية خاضعة لارادة الحكومة . أما الانكليزي والاميركي
فان روحه الفردية تأتي ان تنزل من حريتها الى الحكومة ألا عما لا بد منه للاحتفاظ
بالامن العام والراحة العامة . ولو نصرت ألمانيا لكان ذلك انتهاء عهد الحرية في
اوربا . والله در السر ادورد غراي اذ قال « اني أفضل الموت او هجر اوربا الى الابد
على ان اعيش تحت ذلك النظام »

فترى مما تقدم ان بين ألمانيا والدول الاخرى بوناً شاسعاً من حيث العتائد السياسية.
وقد كان يكفي هذا وحده ليولد بين الفريقين ضغائن لا تحمد

٥ - اثر الضغائن الجنسية في اخلاقيات السياسة

يرى المتبصر في نشوء اوربا الحديث مبدئين سياسيين كان لهما القسط الاوفر في توجيه مجرى التاريخ الاوربي: اولهما مبدأ التوازن الدولي وهو قديم يرجع الى القرن الثالث عشر، وثانيهما مبدأ الاحتفاظ بجنسيات الشعوب وهو ابن القرن الماضي ظهر اولاً في ايطاليا . ويتبين من درس التاريخ الحديث بعد تكوين ايطاليا ان هذا المبدأ ما برح يزداد توطداً وهو يرمي الى تكوين الدول حسب جنسيات الشعوب اي ان يجمع أهل كل جنس جماعة واحدة . على ان هذا المذهب لا يخلو من الخطر على مستقبل اوربا لانه حين نمو الروح الوطنية في هذه الشعوب لا تلبث أن يستيقظ ما بينها من الضغائن الجنسية المتأصلة في النفوس ومن ثم تنشأ الحروب بينها

ولا يخفى ان امبراطورية النمسا والمجر^(١) اكثر الدول جمعاً لشعوب مختلفة فاذا انكسرت لا بد ان تطالب تلك الشعوب باستقلالها . وفي معظم الدول البلقانية ايضاً تجد خليطاً من الشعوب المتباينة المشارب والامزجة على نحو ما في النمسا . فالخطر الذي يخشى منه هو ان تقوم تلك الشعوب المتباغضة اذ تشعر بشيء من الحرية فتقاتل فيما بينها قتالاً لا يقفها عنه الا يد حديدية تخضع الجميع (كما هو الحال في النمسا اليوم) . ويكفيك برهاناً على ذلك ما حدث في الحرب البلقانية الثانية . فان تلك الشعوب لم تسكد تتخلص من الحكم التركي حتى انقلب بعضها على بعض . ولا تزال تلك الضغائن والاحقاد المتوارثة جيلاً عن جيل تزداد شدة ولا سيما ان لكل دولة من الدول البلقانية امان وطنية لا بد في سبيل تحقيقها من محاربة جيرانها

ستظل مشكلة الاجتناس حجر عثرة في سبيل السلم الاوربي ولا سيما اذا كان من نتائج هذه الحرب ان تحرر جميع الشعوب الصغيرة التي تعودت الاستعباد . ولا شك ان رجال السياسة القداماء كانوا حكما في احتفاظهم بالتوازن الاوربي

وسوف تمزق احشاء اوربا طويلاً وتسيل الدماء فيها انهاراً قبل ان ينجم السلم المستديم على ربوعها لان الشعوب المتباغضة المتنافرة متى كانت متمتعة بالحرية والاستقلال لا بد ان تشبك فيما بينها ، كما انها تثار اذا اصابها ضغط شديد من الخارج

(١) فيها ١٢ مليوناً الانياً ١٠ ملايين مجري ٦ ونصف شيك ٥ بولونيين وشعوب اخرى

الفصل الثالث

سياسة ألمانيا الوعيدية . فكرة ثار فرنسا

١ - اتحاد ألمانيا وسياسة الوعيد

رأينا كيف تقدمت ألمانيا تقدمها الاقتصادي بسرعة غريبة . وقد كان لهذا الأثر السريع المتزايد أثر كبير في اخلاق الالمان . ففهم لما رأوا تفوقهم التجاري في انحاء العالم ورأوا جيشهم واسطولهم يزدادان قوة في كل يوم هان عليهم الاعتقاد بأنهم امة هي ارفع سائر الامم في الذكاء والقوة

ان كبرياء الجماعات مرض سريع الانتشار بين افرادها ، فلم يلبث الالمان مدة قصيرة حتى اصبح عجبهم لا يعرف حداً ولا سيما بعد ما كتبه اساقفتهم وصحافيهم لدعم هذه المزاعم واثباتها بالبراهين العلمية والتاريخية . فسرعان ما اعتقد الشعب الالماني بأنه شعب اختاره الله للسيطرة على العالم

وقد لخص الاستاذ لاسون (من جامعة برلين) آراء الكتاب الالمان بالجملة الآتية :

كل غريب عنا عدو لنا ما زال لم يبرهن على عكس ذلك . اتنا بلارب ارق من جميع الامم بمراحل سواء من الجهة الادبية والعقلية ... وان الله معنا

وما برح اعتداد الالمان بانفسهم يتزايد مع الايام واليك ما قاله احدهم اخيراً :

ان الواجب الاول المحتم علينا جميعاً هو ان نخرج العالم بأسره على التكلم باللغة الالمانية . فملى كل الماني — علا أو سفلى ، قرب أو بعد — ان يخرج من حوله على التكلم بلفته حتى تفوز هذه اللغة الشريفة وتعلو على سائر اللغات وتوطد سيادة الشعب الالماني على سائر الشعوب . يجب ان يعلم كل انسان انه اذا لم يتعلم اللغة الالمانية يكون ممقوتاً مردولاً . ولا بد ان تصبح الامة الالمانية لغة العالم بأسره

وقد تبعت الحكومة الالمانية تيار الكبرياء العام فاخذت لهجة مفاوضاتها السياسية تزداد شدة ووقاحة . حتى ان جميع العقلاء واحبهم للسلم من الفرنسيين شعروا بان تلك الحال ان تدوم طويلاً

نعم ان مكاتباتها السياسية لم تعد في الظاهر حدود اللياقة الا ان مغامزها

ومعانيها الخفية لم تكن لتخفى على الليب . هذا فضلاً عن لهجة الخطب السياسية ولا سيما خطب امبراطور المانيا الذي ما برح يوصي شعبه بوجوب حفظ « البارود جافاً » و « السيف مشحوداً »

وقد كانت فرنسا ازاء هذا التهديد المظلي والوعيد المستخفي تسلك بكل حذر ودقة احتفاظاً بالسلم العام — وان كان جرحها اثر حرب السبعين لم يلتئم بعد . هكذا فعلت في المسائل المراكشية والبلقانية مما شهد الجميع لها « حتى ان اصدقاء فرنسا — على ما قال محرر سويسري — خشوا عليها ان يقل نفوذها تدريجاً من جراء تساهلها وتسامحها . بل خشوا على العالم اجمع ولا سيما الدول الصغيرة من جراء وعيد المانيا وتهديدها الذي انما كان يعبر عن مطامعها الخفية »

لا مغالاة البتة فيما تقدم فقد كان كل عاقل يشعر بانه لا مناص لفرنسا من قبول الحرب التي تتوعدها بها المانيا بطرف خفي — عاجلاً أو آجلاً — الا اذا اختارت ان ترمي بنفسها الى اسفل دركات الامم

ان في الكتاب الاصفر الذي نشرته الحكومة الفرنسية فقرات عديدة تدل على مبلغ الوقاحة الالمانية . ومن هذا القبيل ايضاً قول احد اعضاء الريشتاغ اثر جعل مدة الخدمة العسكرية في فرنسا ثلاث سنوات (وهي لم تلجأ الى ذلك الا لتأهب المانيا الهائل) اذ قال « ان هذا القانون اهانة لنا . فلا يجب ان نبيحه » . وقس على ذلك امثلة كثيرة

٢ — فكرة استئثار فرنسا

قد كان خوف المانيا من استئثار فرنسا سبباً بعيداً من اسباب الحرب . والمظنون ان بسمارك خشي ايلام فرنسا فلم يشأ ان تضم الالزاس الى المانيا ولكنه اضطر الى ذلك اثر الحاح الحزب العسكري

ولا شك ان انضمام الالزاس الى المانيا قد كافها من النفقات الحربية اكثر بكثير مما افادها . ولو ان المانيا استعملت الرفق في معاملة الالزاسيين لكانت بلا ريب اسمائهم وادعيتهم فيها وانتزعت من فرنسا حق المطالبة بالالزاس ، ولكنها لم تحسن السياسة بل استعملت القسوة والصرامة تجاه شعب ذاق الحرية وعرف طعمها . على انه لا ريب في ان فكرة الاستئثار كانت على وشك الزوال من ذهن الناشئة

الحديثة . ولم يبعثها من رقدتها الا الجرائد الالمانية التي كانت تتذرع بها لكي يقتنع الشعب بوجوب اتخاذ هذه التدابير الحربية العظيمة . وما برح اولو الشان في ألمانيا يكررون على مسامع الجمهور ان فرنسا تتحين الفرصة لتتأثر حتى انك قلما تجد ألمانيا الا وهو مقتنع باننا اغتصبنا هذه الفرصة لمحاربة بلاده

وعلى رغم ان رجال السياسة الفرنسيين لم يعيروا فكرة الاستئثار من ألمانيا عناية حقيقية فقد كانت هذه المسئلة سبب جفاء طبيعي بين الدولتين . الا ان سفير فرنسا في براين قد اخبرني عن امبراطور ألمانيا انه اظهر له غير مرة رغبته في حفظ العلائق الودية بين ألمانيا وفرنسا ، ولكن لهجة السياسة الالمان في المشاكل المراكشية وغيرها لم يكن فيها ادنى دليل على هذه الرغبة

فنرى مما تقدم ان مسئلة الاتراس واللورين تعد بلا ريب بين اسباب الحرب البعيدة بمعنى انها كانت العذر الذي طالما تذرعت به ألمانيا لزيادة قوتها العسكرية تلك الزيادة الهائلة التي جرّتها حتماً الى الحرب

الفصل الرابع

اثر العوامل الروحانية في منشأ الحرب

١ — العوامل الروحانية في الحرب الاوربية

لكل شعب من الشعوب — سواء المتمدنين والهمجيين — مطمح نفساني ينزع اليه يسعى في تحقيقه بجميع قوته ويضحى في سبيله بكل ما لديه
انظر الى القرطاجيين الذين كانوا يحرقون اولادهم احياء عملاً بشعائرهم الدينية ، والى
هنود اميركا الذين كانوا يسلخون جلد أسراهم تمجيداً لاصنامهم تعلم شيئاً من قوة الدوافع
الروحانية التي تسيطر الناس ، بل اي تاريخ أبلغ من تاريخ العرب لتبيان سلطة العقيدة في
نفوس الامم . ففضل ايمان العرب تمكنت تلك الجماعات القليلة في مدة وجيزة من فتح
جميع العالم المتمدنين تقريباً وشيدت مملكة امتدت من مشارق الارض الى مغاربها
ومن قبيل العقائد الروحانية اعتقاد الالمان اليوم بأنهم شعب مختار . فتراهم ينشرون
الحرب في ربوع اوربا ويسفكون الدماء تحقيقاً لمطامعهم واثباتاً لتفوقهم على سائر
اهل الارض

والذي يزيد قوة العوامل الروحانية هو خلوها من القياس العقلي . ولو كان للعقل
نفوذ وسلطان عليها لما ضحى الناس في سبيلها بتملكاتهم وبارواحهم غير مباليين .
فليس لاحكام العقل التي تفيد العالم في مباحثه العامة ان تقيم الجموع وتقعدها
ويتكون المطمح الروحاني تدريجاً كما سنرى عند درس تكون مطمح ألمانيا في
السيطرة على العالم

٢ — اثر الجنس في فكرة السيطرة العالمية

قليلة هي الامم — ومنها الصينيون والأتراك — التي لا تعتقد بتفوقها على سائر
الامم . وقد يعد هذا الاعتقاد نافعا في بعض الاحوال ولكنه كثيراً ما يدفع اصحابه
الى استعمال القوة الجبرية لتوطيد هذا التفوق الموهوم

وقد نشر الألمان في الثلاثين سنة الماضية عدداً كبيراً من المؤلفات التي ترمي إلى إثبات تفوقهم على سائر شعوب الأرض ، ومنها يستدل أن اعتقاد الألمان بتفوقهم فوق اعتقاد الأمم السابقة من هذا القبيل — اللهم إلا اعتقاد اليهود في عهد التوراة واعتقاد العرب في أول الإسلام

ومدار اعتقاد الألمان يدور حول توهمهم أنهم شعب خاص وكّل الله إليه السيطرة على العالم بعد فتحه . والحقيقة أن الألمان خليط شعوب مختلفة متباينة الأصل وفي مقدمة المؤرخين الذين بشروا بهذا المذهب تريتشكي ولمبرخت ، وقد تبعهما عدة كتاب آخرين . ولا شك أن طيب الأمراض العقلية يجد في كتبهم أمثلة كثيرة من الاختلال العقلي الناشئ عن الأمراض النفسية الجماعية . وفي التاريخ أمثلة كثيرة لهذه الأمراض التي تشمل أمماً بأسرها ولكن ليس منها مثال بلغ مبلغ العجب الألماني أن التاريخ في نظر تريتشكي سلسلة حوادث مترابطة إنما يرمي بها الله إلى نصرته المذهب البروتستنتي وتوطيد دعائمه على الأرض . وفي رأيه أن الألمان الذين خصهم الله بالسيطرة على العالم مدينون بعظمتهم إلى لوثيروس وإن ظهور هذا الرجل العظيم هو في الحقيقة ابتداء عهد الإصلاح والارتقاء في العالم وليس من غرضنا أن نبخس هذا المؤرخ حقه بل نحن نعترف له بآراءه أسمى من تلك الآراء الصنيانية منها قوله :

على العمل لا على الفكر يقف مسير الأمم . ولكن كما أن الأمة بلا عمل لا تقوى على شيء فإن العمل بلا فكرة تقوده لا يؤدي إلى شيء . وقد كفى العالم أن تنو فيه بعض الأفكار الدينية والسياسية حتى انقلب وجه التاريخ غير مرة .

وقد كان الاقبال على هذا المؤرخ عظيماً جداً لأنه عبّر عن آماني الشعب الألماني التي بثها فيه رجاله العسكريون — لا المذهب البروتستنتي على ما قال تريتشكي أما لمبرخت الذي تقدم ذكره فإن آراءه كانت أقل تخيلاً وتوهماً من آراء تريتشكي . فانه لم يلجأ إلى إثبات مداخلته الله في التاريخ وتمييزه للمذهب البروتستنتي لأن الإنسانية في نظره هي ولية أمر نفسها ، بل أن كلا المذهبين الكاثوليكي والبروتستنتي عنده قد قدم عهدهما وأن لما الزوال ليحل محلهما مذهب جديد . وفي اعتقاده أن الحياة الاقتصادية هي العامل الأول في التاريخ . وقد بين تفوق المانيا من هذا القبيل

الى ان قال ان المنافسة السامية لا بد أن تأول الى الحرب حالما يشعر فريق من المتنافسين بالنمو الكافية للنصر . ومبرخت من الذين يعتقدون بأن الحكومة يجب ان تتولى جميع الامور وتعرض لكل شيء

وبالاختصار ان رأيه هو نفس رأي نيتشي الذي جاء بعده . وهما يجعلان الآداب المسيحية في مقام الآثار التاريخية التي ليس لها قيمة محسوسة

ومن الآراء التي نشرها لمبرخت المتقدم انه يجب ضم سويسرا والبلجيك وهولندا الى ألمانيا تمهيداً للسيطرة على العالم . اما الممالك البعيدة كشيلى وبرازيل ونحوها فيمكن فيها نشر المدارس والمعامل والمصارف الالمانية الخ .

يطول بنا الشرح لو سردنا آراء اولئك الكتاب الالمان وانما تقتصر على مقتطفات وجيزة : قال بلنتشيلي الكاتب الحقوقي الشهير :

حيثما تضع المانيا قدمها يصبح لها حق تام بالتلك دون النظر الى المعاهدات

ومن أشهر الذين عجموا تلك الافكار بين الشعب الالمانى كاتب اسمه هوستن شميرلن فقد ألف كتاباً سماه « منشأ القرن العشرين » حاز اقبالا عظيماً بين الجمهور لانه يطري العجب الالمانى . ويؤكدون ان الامبراطور وهبه مبالغاً من المال لقاء خدمته هذه . اما آراؤه فليست الا تكراراً لآراء من سبقوه موضوعه في قالب جديد . فمن أقواله :

لو ان الشعوب الجرمانية عند فتحها اوربا ابذت الشعوب القديمة واستأصلت جرثومتها اذا لما رأينا الشعوب اللاتينية اليوم تتصل من النفوذ الالمانى — وهو الوحيد القادر على احيائها

وعلى هذا القياس يمكننا ان نأسف على ان الرومانيين لم يبيدوا الشعوب الجرمانية التي كانت تتعدى على حدودهم دفعة واحدة بدلاً من اقتصارهم على قتل مئات الالوف في كل مرة . فما كانت المدنية على الاقل رأت عهد الاجيال المظلمة

يتضح لنا مما تقدم ما هي الاسباب الحقيقية التي أدت الى الحرب ومنه يتبين لنا ايضاً تفاهة الاعتقاد بأن هذا الامبراطور أو ذاك اراد الحرب

ان حرباً هذه بواعثها الخفية يمكن ارجاؤها فقط من يوم الى يوم وليس في الامكان

اتقاء شرها

٣ — أثر العوامل الاقتصادية والحرية في فكرة السيطرة العالمية

ما كانت النظريات وحددة تتفوق الاثنان وامكان سيطرتهم على العالم سيطرة فعلية لولم تتخذ شكلا محسوساً وتخرج من حيز الافكار الى حيز العمل فهناك سبيان حملها الشعب الالماني على الاعتقاد بأن أحلامهم الذهبية قد اصبحت قريبة التحقيق وهما : ازدياد القوة العسكرية وتقدم الصناعة تقدماً سريعاً أما القوة العسكرية فقد كان الجيش الالماني في وقت السلم لا يزيد على ٤٠٠.٠٠٠ مقاتل في سنة ١٨٧١ فأصبح قبيل الحرب اكثر من ضعف هذا العدد . فضلاً عن الاسطول الذي أوجد من العدم وأصبح يعد نفسه مناظراً للاسطول الانكليزي . فلاغرو ان تتوطد فكرة السيطرة العالمية على مثل هذه الاساسات وان تنمو المطامع الالمانية بسرعة غريبة

وقد طلبت احدى المجلات الالمانية من بعض كبار العلماء ان يوافوها بآرائهم فيما يجب ان تستفيده المانيا من الحرب فجاءت الاجوبة وفيها تتجلى الروح الالمانية . واليك ما طلبه الاستاذ ارنست هيكل العالم الشهير : اقتسام البلجيك والاستيلاء على المستعمرات البريطانية ومستعمرة الكونغو البلجيكية وعلى المقاطعات الفرنسية الواقعة على الحدود وعلى ولايات البلطيق الخ .

اما الاستاذ استواند فكان أقل طمعاً من الاستاذ هيكل فقد قصر طلباته على ملاشاة الاسطول الانكليزي واشتيت جميع الجيوش الاوربية ما عدا الجيش الالماني ! وقد تباينت الاجوبة الاخرى الا انها اتفقت كلها في وجوب الاستيلاء على الدول الصغيرة التي ليس لها حق البقاء مستقلة

بل أغرب من كل ذلك ان استاذاً المانياً يسمى فيروردت اقترح اقتراحاً مبتكراً يرمي الى تنظيم اوربا بعد الفتح الالماني . فقد رأى هذا الاستاذ ان طرق الاستعمار المعروفة لا تنفي بالغرض المطلوب فكتب مقالة في احدى الجرائد الشهيرة نقض فيها الحكومة الالمانية ان تقتل الشعوب المغلوبة بألمانيين حتي لا يبقى لها أثر في اوربا فيقطبها الالمان وحدهم ويتناسلون فيها . فتأمل !

٤ — اكتمال تكوين الروح الالمانية

رأينا فيما تقدم منشأ فكرة السيطرة العالمية والعوامل المادية التي اعتمدت عليها .

وقد حدا منظر تلك العوامل المادية بعض المفكرين الى انكار تسلط العقائد الروحانية على نفوس الالمان . على ان اعتقاد الالمان بتفوقهم قد اتخذ في محيلتهم صورة شبه دينية واصبح دافعهم الرئيسي فهم يعدون انفسهم آلة بيد الله ويعتقدون ان القانون الاول لهذه الحياة ليس طلب الفضيلة ولا طلب الحقيقة بل طلب الاتساع والنفوذ والسيطرة والتضحية بكل شيء في هذا السبيل

وبعبارة أخرى ان الدوافع الروحانية تحيي في الالمان الغرائز الوحشية التي ما برحت المدنية تحمدها وتضعفها . فما تاريخ المدنية الا تاريخ مساعي العقل البشري للتسلط على الغرائز الطبيعية الوحشية

٥ — اجمال العوامل النفسية

يتبين للمطلع على الفصول السابقة المتعلقة باسباب الحرب البعيدة اننا اقتصرنا على ذكر العوامل الحيوية والعاطفية والروحانية والجماعية من غير ان نذكر شيئاً عن أثر الاحكام العقلية فيها

ان السبب في ذلك يسير اذا اننا لا نرى لاحكام العقل مقاماً يذكر في هذه الحرب كما انه لم يكن لها مقام في الحروب السابقة . نعم ان لها دخلاً في تنظيم المعارك ولكنها حتى في المعارك ليست العامل الاولي كما سنرى . ان العقل خادم للدوافع الروحانية والعاطفية ليس الا

واذا كان القارئ لم يقتنع بما قدمت فارجو منه ان يراجع المجلد الآتي . وفيه بينت اسباب الحرب النفسية التي دفعت كل امة الى الدخول في الحرب :

(١ --- النمسا) أهم الاسباب التي دفعت النمسيين الى الحرب بغضبهم الشديد للسرب وهو من قبيل الاحقاد الجنسية المتأصلة في النفوس ولا سيما ان الائتمار بقتل ولي عهد النمسا دبر في البلاد السربية واتهمت الحكومة السربية باشتراكها فيه . فهاج الشعب من جراء ذلك وكان له تأثير جماعي عظيم

(٢ --- روسيا) العوامل العاطفية التي دفعتها الى الحرب هي : حقدها على النمسا منذ ضمت البوسنة والهرسك وخوفها من فقد مكائنها بين الشعوب السلافية اذا تركت السرب بلا معونة

(٣ --- فرنسا) الدافع الاولي هو دافع شريف حملها على مؤازرة حليفها روسيا وان لم يكن لها مصلحة من ذلك . زد على ذلك ضيق صدور الفرنسيين عن احتمال وعيد المانيا وتهديدها المتكرر

أثر العوامل الروحانية في منشأ الحرب

(٤ — أكثر) الشعور بواجب الدفع عن حرمة البلجيك التي تمهدت انكساراً بحفظها . زد على ذلك خوفها من استيلاء ألمانيا على ميناء انفرس وشل التجارة البريطانية .

(٥ — ألمانيا) رغبته في بيان تفوقها وقوتها بتدليل روسيا . فقد كانت ألمانيا تتوقع خضوعها لمطالب النمسا من غير حرب — وقد قوت فيها الحرب فكرة السيطرة العالمية .

فما تقدم نرى ضعف القياس العقلي ازاء العوامل النفسية الأخرى . ولو كان له أقل سلطة على النفوس لما نشبت الحرب ولا سيما من جهة ألمانيا التي كانت على وشك استعمار العالم استعماراً سلمياً ، إلا ان العوامل الروحانية كانت أقوى من ان تقتنع بهذه البراهين .

فرغنا من درس اسباب الحرب البعيدة وقد كان يجوز لنا الاكتفاء بما تقدم لولا انه من اللذيد معرفة الاحوال التي جعلت الحرب تنشب في سنة ١٩١٤ لا في سنة أخرى . ولا سيما أن في درس المفاوضات السياسية فائدة عظيمة وعبرة لمن يعتبر . بل ان سلوك رجال السياسة في اسبوع المفاوضات لا كبر برهان على ان الانسان مهما يكن راقياً ينقاد بقوى غير منظورة

الباب الرابع

اسباب الحرب المباشرة

الفصل الاول

انذار النمسا واسبوع المفاوضات السياسية

١ - التعاليم البيكولوجية المستخلصة من المكاتبات السياسية

ليس لدينا من المستندات الرسمية المتعلقة بانشاء الحرب الا التقارير والمراسلات التي دارت بين السفراء ودولهم . وقد نشرت هذه المراسلات في كتب مختلفة الالوان أصدرتها الدول المتحاربة كالكتاب الازرق (انكلترا) والكتاب الاصفر (فرنسا) والكتاب الابيض (ألمانيا) والكتاب الاشهب (البلجيك) والكتاب البرتقالي (روسيا) . وأخطر هذه الكتب الكتابان الازرق والاصفر وسنرجع اليهما في معظم استشهاداتنا الآتية

ان لهذه الكتب قيمة عظيمة لمن يريد ادراك خفايا الحرب الاوربية وهي تدل دلالة قاطعة على عجز العقل البشري ازاء الدوافع العاطفية والروحانية وتبين كيف تنقاد الحكومات الى حيث لا تريد

وقد ارتكبت المانيا والنمسا بعض غلطات نفسانية كان لها القسط الاوفر في حملها على خوض غمار الحرب . من ذلك توهمهما بادئ الامر ان فرنسا وانكلترا وروسيا لا تزج بنفسها في المشكلة التي قامت بين النمسا والسرب وانها لن تجسر على التعرض للحرب . فلما رأت المانيا ان روسيا تحشد جنودها خلافا لما ظنته خشيت أن تسبقها في مضمار الاستعداد الحربي (ولا يخفى ما للحركات الحربية الاولى من الخطورة) فطلبت

اليها تسريح جيشها تحقيقاً لرغبة الحزب العسكري — وهي اذ ذاك متأكدة من حياد
انكلترا — فقامت رفضت روسيا أعلنتها بشهر الحرب

الآن ان الحوادث لم تتسلسل على هذه الصورة فان القرارات التي يقرها البشر
لا تصدر دفعة واحدة بل تتكون شيئاً فشيئاً الى ان تستقر في شكلها النهائي . وسنرى
في يلي ما تقدم دخول انكلترا في الحرب من التردد الطويل وكيف ان امبراطور
المانيا اندفع مع التيار العام الى فشر حرباً مناقضة لمصالحه

يستخلص هذه النتائج وغيرها كل من اطلع على الكتب الرسمية التي تقدم ذكرها .
الآن اننا فيما من التفاصيل الضوئية قد رأينا ان نلتقي منها الفقرات الخطيرة ورتبها
وفقاً لمقصده — وهو درس العوامل النفسية التي تحللت المفاوضات السياسية
وبديهي ألا تذكر المكاتبات الرسمية شيئاً من أسباب الحرب البعيدة . فليست
تلك المكاتبات الا مساعي ممثلي الدول ليمنعوا سقوط نقطة الماء التي تكفي لأن تطف
الكأس الممتلئة

ولا شك ان السؤال الجوهرى ليس « من هو الذي اسقط تلك النقطة ؟ » بل
« ما الذي جعل الكأس تمتلئ شيئاً فشيئاً حتى أصبحت عرضة للطفوف »

ولم تزد مدة المفاوضات على اسبوع ، الا انه مع هذا كان كافياً لقلب وجه التاريخ
واذا اقتصر مستطلع خفايا الحرب على قراءة المكاتبات الرسمية ثم سئل « من ذا
الذي اراد الحرب ؟ » اضطر الى ان يجيب « لم يردها أحد »

نعم لم يردها أحد . فقد كان الجميع يخافونها ، الا انها مع ذلك شبت وشمل لهيها
معظم الدول المتمدينة . فهل من دليل أقوى من هذا على عجز الحكومات ازاء مجاري
العواطف والاهواء البشرية ؟

ان أربعة من روساء الحكومات قد أمضوا اعلان الحرب وهم مطلقو السلطة وفي
يدهم قيادة القوى البرية والبحرية . ولكن سلطتهم لم تمنعهم شيئاً ولم تستطع الوقوف
في سبيل تيار القدر الجارف

غير ان العالم العصري لا يجوز له ان يكتفي بنسبة الحوادث الى القدر ، بل عليه
ان يحللها الى عناصرها التي تتألف منها . فان تلك العناصر باجتماعها تكون قوة هائلة
لا تردها ارادة البشر

٢ — اسبوع المفاوضات

ولا بد لنا قبل تحليل المكاتبات السياسية من ذكر ملخص الحوادث التي توالى في ذلك الاسبوع المشهود الذي ابتداء في ٢٣ يوليو وانتهى في أول أغسطس سنة ١٩١٤ لبيان تسلسلها وارتباطها يوماً فيوماً :

(الخميس ٢٣ يوليو) علمت الدول ان النمسا قدمت انذاراً نهائياً الى السرب اثر مقتل ولي العهد في سرايافو تطلب فيه ان تقبل السرب « مداخلة بعض المندوبين النمسيين في البلاد السربية لقمع الحركة العدائية التي ترمي الى هدم كيان المملكة النمسية »

(الجمعة ٢٤ يوليو) طلبت روسيا الى النمسا ان تمد أجل الانذار النهائي . — اعلن سفير المانيا في باريس وجوب حصر الخلاف بين النمسا والسرب

(السبت ٢٥ يوليو) رفضت النمسا مد أجل انذارها للسرب — اقترحت انكلترا ان تتوسط مع المانيا وايطاليا لازالة الخلاف الواقع بين النمسا وروسيا — لا تزال المانيا متيقنة من حياد انكلترا

(الاحد ٢٦ يوليو) تولت روسيا الدفاع عن السرب في فينا وطالبت الى المانيا مساعدتها — بدأت النمسا حشد جيوشها حشداً جزئياً

(الاثنين ٢٧ يوليو) وفقاً لما جاء في الكتاب الازرق قبلت المانيا مبدئياً وساطة الدول الاربعة (اي انكلترا ومانيا وفرنسا وايطاليا) بين النمسا وروسيا — ولكن الكتاب البرتغالي يخالف ذلك اذ يقول « اكسد سفير المانيا في باريس استحالة التوسط أو عقد مؤتمر » (الثلاثاء ٢٨ يوليو) وافقت المانيا على خطة النمسا الصارمة وقد أعلنت هذه الخطة امام وشهرت الحرب على السرب — طلبت روسيا من انكلترا توسطها

(الاربعاء ٢٩ يوليو) بدا من المانيا شيء من التساهل ونصحت باستئناف المفاوضات بين روسيا والنمسا — الا ان روسيا اضطرت الى حشد جيوشها على الحدود النمسية لان النمسا قد حشدت جيوشها رغم سير المفاوضات في سبيلها — هددت المانيا روسيا بانها تبدأ بحشد جيوشها اذا لم تقف تأهبها الحربي فاجابت روسيا بانها لا تستطيع وقفه ما زالت النمسا مصرة على خطتها

(الخميس ٣٠ يوليو) أعلنت روسيا انها تقف استعدادها الحربي اذا اعترفت النمسا بان الدول الاوربية شأنها في خلافها مع السرب — اظهر سفير المانيا في سان بطرسبرج خوفه الشديد من نشوب حرب اوربية وطلب الى وزير الخارجية الروسية ان يقترح اي اقتراح من شأنه رفع الضغط السياسي

(الجمعة ٣١ يوليو) رجعت المفاوضات بين روسيا والنمسا الى سيرها وقد قبلت النمسا اقتراحاً عرضته انكلترا — ولكن المانيا أعلنت ان التآهبات الروسية تضطرها الى حشد جنودها (السبت اول أغسطس) أرسلت المانيا انذاراً الى روسيا دعته فيها الى تسريح جيوشها في ظرف ١٢ ساعة — اما النمسا فاتها اظهرت تساهلاً كبيراً باعترافها لروسيا بان لاوروبا حق

الداخلية في مشككتها مع السرب — وتجنباً للحرب أعلنت روسيا انها تستكتفي بضمان استقلال السرب وحفظ حدودها

ولكن الامر كان مقضياً ! ففي الساعة ٧ مساءً أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وفي ٣ أغسطس أعلنتها على فرنسا

وسنحلل فيما يلي تلك الحوادث من حيث مغزاها والتعاليم البسيكولوجية التي تستخلص منها

٣ — شكوى النمسا من السرب . عزيمتها الاكيد على محاربتها .
صرامتها في المفاوضات

كان الانذار الذي ارسلته النمسا الى السرب اثر مقتل ولي العهد مسبوكة في قالب يتعذر قبوله ، مما دلّ على ان في صدر النمسا عداوة وحقدًا للسرب . فقد طلبت اليها ان تقبل « معاونة عمال من الحكومة الامبراطورية والملكية أي (النمسية) لقمع الحركة العدائية التي ترمي الى هدم كيان المملكة النمسية » . ولما أن بلغ الدول العظمى هذا الانذار ادركت انه ليس الأحمجة تذرعت بها النمسا لدخول السرب وبناء على المعلومات التي وردت الى وزارة الخارجية الفرنسية في ٢٣ يوليو سنة ١٩١٤

كانت مقاصد الحكومة النمسية الحرجية في البدء — بناء على ما علمه سفير فرنسا في فيينا — ان تعمل بأشد الصرامة ضد السرب وان تعد ثمانى اورديات Corps d'armée للحرب

وفي ٢٤ يوليو كتب سفير فرنسا في روسيا يقول :

ان قصر اجل الانذار لما يقف في سبيل مساعي الدول وتوسطها لدى حكومة فيينا وقد كانت مقاصد النمسا جلية لم تخف على احد من رجال السياسة . وهذا ما كتبه سفير انكلترا في فيينا بتاريخ ٢٤ يوليو :

زار معتمد روسيا في هذا الصباح وزير الخارجية (النمسية) وقال له مبدئياً رأيه الشخصي ان المذكرة النمسية مسبوكة في قالب يستحيل معه قبولها وان عباراتها شديدة الصرامة غير مألوقة للهجة . فاجاب وزير الخارجية ان الاوامر قد صدرت الى معتمد النمسا في بلغراد أن يغادرها اذا لم تقبل جميع الطالبات النمسية قبل الساعة الرابعة من بعد ظهر غد

ولما أحست السرب حرج موقفها داخلها الخوف وقبلت طلبات النمسا كلها تقريباً

ولكن هذا التساهل لم يند شيئا . فقد أرسل معتمد انكلترا في برلين الى حكومته خلاصة محادثة دارت بينه وبين الوزير الالماني قل :

كان الوزير يحمل مقدار القوة التي اعتتها النمسا ولكنه اعترف بان الحكومة النمساوية الخيرية ارادت ان تعطي السريين درسا وأنه في نيتها اتخاذ التدابير الخيرية

وكذلك كتب سفير فرنسا في برلين الى حكومته بتاريخ ٢٤ يوليو :

قد عزمت الحكومة النمساوية عزما ثابتا على اذلال السرب فهي لا تقبل مداخلة اي دولة من الدول الى ان تبلغ مرماها وتضع السرب في وجهها

ان جميع السفراء أحسوا نفس الشعور تجاه مقاصد النمسا . وكتب سفير انكلترا بتاريخ ٢٧ يوليو يقول :

قد تحدثت مع جميع زملائي الذين يمثلون الدول العظمى فاجعت الآراء على ان الانذار الذي بعثته النمسا قد وضع في صيغة تؤدي حتما الى الحرب ولكن النمسا نشرت بعد ذلك مذكرة لتبرئة نفسها قالت فيها :

ان مساعي السرب لا تنزع الشعوب السلافية الجنوبية من المملكة النمساوية قديمة العهد . وقد اختلفت تلك المساعي شدة وقوة ولكن مقصدها لم يتغير . وقد بلغت اقصى مظاهرها حين حدثت ازمة انضمام البوسنة والهرسك . . .

ولما رأت السرب الخطب يتفاقم خشيت على نفسها وقبلت بكل مطالب النمسا كما يستدل مما كتبه سفير انكلترا في روما بتاريخ ٢٨ يوليو :

في هذا الصباح دار حديث طويل بيني وبين معتمد السرب اخبرني في اثناءه انه اذا اوضحت النمسا صورة مداخلة عماها (لقمع الحركة العدائية ضد النمسا) فيحتمل ان تقبل السرب كل مطالب النمسا التي وردت في مذكرتها

ولكن الحكومة النمساوية بقيت على صلابتها واصرارها . وقد كتب سفير انكلترا في فينا بتاريخ ٢٨ يوليو الى حكومته يقول :

اخبرني سفير روسيا ان الحكومة النمساوية قد رفضت اقتراح الحكومة الروسية الذي من شأنه حل المشكلة السرية فيما بين وزارة الخارجية الروسية وسفير النمسا في سان بطرسبرج

الا ان النمسا لم تثن عن عزمها كما تبين من قول وزير الخارجية الانكليزية في ٢٩ يوليو :

ان كل ما بلغني من برلين وفيينا يجعلني اعتقد ان النمسا لا تقبل مداخلة دولة ما بينها وبين السرب

ولكن لا يبقى ريب في مقاصد النمسا شهرت الحرب على السرب في ٢٨ يوليو .
ويظهر مما كتبه معتمد انكلترا في الاستانة ان مطامعها الخفية كانت كثيرة ، فقد
قل بتاريخ ٢٩ يوايو :

لدي من القرائن والادلة ما يحتملني على الاعتقاد بان مقاصد النمسا لا تقتصر على معاقبة
السرب . وأخص من ذلك ملاحظة ابدائها في سفير النمسا بشأن الحالة الاقتصادية السيئة التي وقعت
فيها سالونيك تحت الحكم اليوناني وما يتوقعه من مساعدة الالهين المسلمين للجيش النمساوي
لنضجرهم من الحكم السربي

وقد كان يكفي النمسا أن تقتصر تأهبها الحربي على جيشها العامل لأنه يستطيع وحده
اخضاع السرب . ولكن يظهر انها كانت تتوقع مشا كل أخرى فلها حشدت
كل ما يمكنها حشده من الرجال — كما جاء في رسالة سفير فرنسا في فيينا بتاريخ ٣١
يوليو اذ قال :

قد شملت التأهبات العسكرية جميع الرجال بين سن ١٩ و ٤٢ بمقتضى أمر صادر هذا
الصباح من الحكومة النمساوية الحربية

٤ — اعتقاد النمسا وألمانيا بأن ضعف روسيا وفرنسا عسكرياً

يمنعهما من دخول الحرب

لا بد ان يتساءل القارىء عن السبب الذي من أجله أظهرت النمسا تسندها
ألمانيا تلك الصرامة والصلابة في مفاوضاتها ولماذا ظلت متمسكة بعذرها التافه حتى
عرضت نفسها الى حرب اوربية قد تجر عليها الويلات

سبب بيسكولوجي بسيط دفعها الى اتخاذ ذلك الموقف فان النمسا وألمانيا كانتا
تعتقدان بأنه ما زالت روسيا وحدها بين الدول الاجنبية صاحبة المصلحة في المشكلة
السربية فلها ان تجسر على التعرض لها . وقد كان عندهما بواعث خطيرة تحملاهما على
هذا الاعتقاد فان النمسا استولت على البوسنة والهرسك بأمرها سنة ١٩٠٨ من غير
ان تقاومها روسيا مقاومة جدية — الا باعتراضها الكتابي

ولا شك ان هذه النقطة جوهرية في نظر الذي يستجلي ماشأ الحرب فلو كانت
النمسا على يقين من مداخله بعض الدول الاوربية مداخله فعلية في مشكلتها مع السرب
لما لجأت الى تلك الشدة على الارجح

واليك مقتطفات من المكاتبات الرسمية تؤيد ما تقدم
كتب سفير فرنسا في فينا بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٩١٤ :

بحسب بعض صحف فينا في قوات فرنسا وروسيا ونظامهما العسكري وبيد ان هاتين الدولتين
عاجزان عن ان تقولوا قولاً فاصلاً في الشؤون الاوربية . وهذا مما يسهل على النمسا بمؤازرة
المانيا اخضاع السرب

وكتب سفير فرنسا في برلين في ذات المبنى بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩١٤ ما يأتي :

بيدي سفير البالجيك اهتماماً عظيماً بسير الحوادث وهو يعتقد ان النمسا والمانيا قد اغتتمتا
فرصة انهماك روسيا وفرنسا بمشاكلهما الداخلية

وكتب سفير انكلترا في فينا بتاريخ ٢٦ يوليو :

سألت سفير المانيا عن احتمال ضغط الرأي العام الروسي حتى يحمل الحكومة على نصرته . شجب تشفع
به القرابة الجنسية فاجاب ان المسألة تقف على شخصية وزير الخارجية الروسية . . . ثم قال انه
يظن ان لدى ذلك الوزير من الحكمة ما يمنعه من اتخاذ خطوة يكون من شأنها ايقاظ مسائل
عديدة تتعاقب بمحدود روسيا واحياء المشاكل الاسيوية والبولونية والروثينية والفارسية وزاد قوله
ان فرنسا بلا شك غير مستعدة للحرب

وقد ابرق السرا دوارد غراي بتاريخ ٢٧ يوليو الى سفير انكلترا في سانت
بطرسبرج :

بالنظر من المصادر الالمانية والنموية ان الاعتقاد عام فيها بان روسيا لا تتعرض للمسئلة السرية
ما زالت النمسا تتمهد بالآلات لتتولى على شيء من الاملاك السرية

وفي ٢٨ يوليو كتب سفير انكلترا في روسيا :

قال لي اليوم زميلي سفير النمسا بانه من المستبعد جداً نشوب حرب عمومية لان روسيا ليست ميالة
ولا مستعدة للحرب

وفي ٢٩ يوليو كتب سفير انكلترا في روما يقول :

قد كان من الصعب اقتناع المانيا بان روسيا تنظر الى مجرى الامور نظراً جديداً الا انه بناء على
رغبة المانيا في المحافظة على علاقتها الودية بانكلترا فان سفيرها يرى احتمال تغييرها خطتها اذا
تيقنت ان انكلترا تعين روسيا وفرنسا

وكتب ايضاً سفير فرنسا في روما بتاريخ ٢٩ يوليو :

قال لي الماركيز ديسان جليانو ان الذي يؤسف عليه في هذه المشكلة انما هو كون المانيا
والنمسا تعتقدان ان روسيا لا تحرك ساكناً

وقل ما يشبه ذلك سفير انكلترا في فيينا عند قوله :

قد عبرني سفير ألمانيا في ٢٤ يوليو عن اعتقاده بأن روسيا لا تتعرض للخلاف

٥ اعتقاد النمسا وألمانيا حياد انكلترا اذا شبت الحرب

كما انه لم يحظر بيان النمسا وألمانيا ان روسيا وفرنسا تتعرضان بالفعل في المشكلة السرية كذلك كانتا مقتنعتين ايضاً بمحافضة انكلترا على الحياد التام وقد كان اعتقاد ألمانيا هذا المعتقد قوياً جداً كما يستدل مما كتبه سفير انكلترا في سان بطرسبرج في ٢٥ يوليو :

.. اجابني دولة الوزير (الروسي) انه يأسف على ان ألمانيا تعتمد تمام الاعتماد على حيادنا

وابرق وزير الخارجية الانكليزية بالمعنى نفسه في تاريخ ٢٧ يوليو :

اخبرني سفير روسيا ان الاعتقاد سائد في الدوائر السياسية الألمانية والنموية باننا نظل على الحياد مهما تكن الحال

ويؤخذ ذلك ايضاً من قول معتمد فرنسا في لندن بالتاريخ نفسه :

قد اظهر سفير النمسا وألمانيا ثقتهم بحياد انكلترا في حال نشوب الحرب

ولم يحمل انكلترا على خوض غمار الحرب الا انتهاك حرمة البلجيك . ولولا ذلك اصح حساب ألمانيا في حيادها

الفصل الثاني

نفور انكلترا من الحرب

١ - نفور انكلترا الشديد من فكرة الدخول في الحرب .

رفضها في البدء ان تعد فرنسا بمساعدتها اذا نشبت الحرب بينها وبين ألمانيا

يندر ان يقر الرجال المفكرون على آرائهم دفعة واحدة ولا سيما اذا كانت تلك الآراء مخالفة لما هو شائع بين الجمهور . لذلك كانت درس تحول وزير الخارجية الانكليزية في الرأي من كره الحرب الشديد الى وجوب اعلانها وما تخلل ذلك من التردد الطويل مفيداً غاية الفائدة لمن يستجلي العوامل النفسية التي سیرت الحرب الاوربية . ولم يكن هذا التحول مقصوداً على وزير الخارجية بل ان الملك والبرلمان والجمهور تحولوا معه تدريجاً . ولا شك ان الالمان اظهروا سوء تصرف سياسي وجهاً للقوانين النفسية بمس عواطف انكلترا كما فعلوا

ولنرجع الى المكاتبات الرسمية لاستفيد من عباراتها

يستدل على أفكار السر ادوار غراي وزير الخارجية الانكليزية من رسالة كتبها

بتاريخ ٢٠ يوليو قال فيها :

ان نشوب حرب بين الدول الاوربية تستفز سخطي وانه لمن الفظيع ان تنجر احداها الى الحرب من اجل السرب

ولا يجوز ان يبرح من ذهننا ان انكلترا لم تكن مرتبطة بفرنسا حتى ولا باتفاق شفهي خلافاً لما ظنه الجمهور . وذلك على الرغم من المساعي العديدة التي قام بها سفير فرنسا سنة ١٩١٢ فانه لم يحصل الا على كتاب من الوزير الانكليزي برفض أي تعهد رفضاً واضحاً

فيرى القارئ نفور الوزير الانكليزي من الحرب في أول الامر وقد كتب بتاريخ

٢٣ يوليو يقول :

على فرض ان أربعة من الدول الكبرى — كاتانيا وألمانيا وروسيا وفرنسا مثلا — اشبكت في حرب فالذي يقرأ في ان نقائصها الباطنة وعرقلتها للتجارة تؤدي بالوربا الى التقهقر الصناعي والافلاس المؤكد

ويظهر ان الحكومة الانكليزية أرسلت تعليماتها الى جميع سفرائها بالتزام خطة الحياذ في مفاوضاتهم — يستدل على ذلك من الحادثة التي دارت بين سفير انكلترا في بطرسبرج وسفير فرنسا فيها، على ما جاء في رسالة الاول الى وزير الخارجية الانكليزية بتاريخ ٢٤ يوليو قال :

أما أنا فبينت أنه لا ينبغي لفرنسا ان تنتظر من حكومة جلالة الملك تمهداً بالموازرة الفعلية لها ولروسيا في حال نشوب الحرب . فليس لبريطانيا العظمى مصلحة ما في السرب ولا شك ان حرباً كهذه لا تلقى موافقة الرأي العام

وقد أجاب وزير الخارجية الانكليزية على هذه الرسالة في تاريخ ٢٥ يوليو بقوله : لا أظن الرأي العام يوافق ولا ينبغي له أن يوافق على حرب تدور حول خلاف سرني ورداً على الحاح السفير الفرنسي في لندن ومساعدته لنيل معونة انكلترا في حال نشوب الحرب قال الوزير الانكليزي بتاريخ ٢٩ يوليو :

لا نرى في الوقت الحاضر ما يسوغ تعرضنا فعلياً بين النمسا والسرب — حتى ولو تفاوتت الحال بين النمسا وروسيا . لان المسألة ليست الامساكية على النفوذ البلقاني بين التوتون والسلاف . وما برحت سياستنا منذ زمن بعيد تتجنب الدخول في اي حرب تنشأ من مشكلة بلقانية

وبالرغم من مساعي رئيس الجمهورية الفرنسية بنفسه أصرت الحكومة الانكليزية على رفضها . واليك ما كتبه سفير انكلترا في باريس بتاريخ ٣٠ يوليو في هذا الشأن :

يرى رئيس الجمهورية ان النمسا لن تنزل عن شروطها وهو يعتقد ان الاحتفاظ بالسلم الاوربي موقوف على خطة انكلترا وانها اذا أعلنت معاونتها لفرنسا في حال نشوب حرب بينها وبين ألمانيا من جراء المشكلة السربية فان ألمانيا تغير خطتها بلاريب . وقد أثبت له الصعوبات التي تحول دون اتخاذ حكومة جلالاته مثل هذه الخطة ولكنه أصر على قوله بأنها الوسيلة لحفظ السلم

وقد جاءت المكاتبات المتبادلة بين رئيس الجمهورية وملك انكلترا تؤيد ما قلناه عن نفور انكلترا من الحرب . واليك فقرة من رد الملك وفيه يتخلص بطريقة لطيفة من اجابة طلب الرئيس . قال بتاريخ اول اغسطس :

اني باذل جهدي لوقف التأهبات الحربية التي اتخذتها الدول حتى تتمكن من البحث فيما بينها بهدوء وسكون . . . أما من حيث موقف دولتي فان الحوادث تتقلب بسرعة عظيمة بحيث لم يعد

في الاستطاعة التنبؤ عن القدر . ولكن تأكدوا ان حكومتى ستستمر على مفاوضة الميسو كامبون
(سفير فرنسا في لندن) بصراحة واخلاص في كل ماله اساس بمصالح الامتين
انه لمن الصعب بعد ما تقدم ان نفهم كيف اقتنعت ألمانيا بأن انكلترا هي التي
أرادت الحرب !

٢ — مساعي انكلترا في أوروبا لمنع الحرب

وقد سعى السرا دوارد غراي وزير الخارجية الانكليزية سعيًا متواصلًا بنفسه
وبواسطة سفرائه لمنع الحرب بين الدول . وكانت أول خطوة في هذا السبيل نصح
السرب بقبول مطالب النمسا . فقد كتب بتاريخ ٢٤ يوليو :

لا ندري هل تعجم النمسا عن اتخاذ خطة حريية في حال رفض السرب ببعض طلباتها .
والذي يتراءى لي ان المنفذ الوحيد هو ان تتجنب السرب الرفض البات وان تقبل كل ما يسعها
قبوله قبل الاجل المحدود . واقد بذلت جهدي لدى سفير ألمانيا أن يقنع النمسا بالتعمل قبل تنفيذ
خطتها الحربية

وقد سعى جميع السفراء للغرض نفسه . واليك ما كتبه سفير انكلترا في روسيا
بتاريخ ٢٩ يوليو :

طلب الي سفير ألمانيا أن أبذل نصائحي لدى وزير الخارجية الروسية حتى أحمله على التساهل
فأجبتني اني ما زلت أفعل ذلك منذ البدء وأنه قد آن الوقت لسفير ألمانيا في فيينا أن يتخذ الموقف
نفسه تجاه الحكومة النمساوية . وقد بينت له بوضوح ان روسيا معنية بالامر عناية شديدة وأنه
من الصعب تجنب حرب اوربية اذا دخلت النمسا اراضي السرب

ولما رفضت الدول صاحبة الشأن اقتراح الحكومة الانكليزية بعقد مؤتمر لحل
المشكلة أعلن الوزير الانكليزي في ٢٩ يوليو استعدادده لقبول اي اقتراح لحفظ
السلم قال :

رجوت الحكومة الالمانية عندئذ أن تقترح أي اقتراح من شأنه حل الدول الاربع
الكبرى على منع الحرب بين النمسا وروسيا . وكانت فرنسا موافقة على هذا الرأي وايطاليا ايضاً
ولم يقطع الوزير الانكليزي امله بعد اعلان النمسا الحرب على السرب . فقد كتب
بتاريخ أول أغسطس يقول :

لا أزال اعتقد انه استطاع حفظ السلم اذا تمكنا من اتخاذ التدابير اللازمة قبل
دخول دولة من الدول الاخرى في الخلاف . وقد أخبرتني الحكومة الروسية ان النمسا أظهرت
ميلها الى ارجاع المفاوضات بينها وبين روسيا لقبول أي اقتراح يكون طالياً من الموانع التي احتواها
الاقتراح الاول

ولكن سبق السيف العذل !

٣ اتهام ألمانيا لانكلترا بخصوص منشأ الحرب

يظهر لتدريء من المقتبسات السالفة درجة النفور الذي كان مستولياً على انكلترا من فكرة الحرب ولكن ألمانيا لم تقتنع بصدق ذلك ولا شك ان خطب المستشار الألماني في الريشتاغ ولا سيما خطاب آخر اغسطس الذي برهن فيه على ان انكلترا ارادت الحرب هو أفضل مثال على تأثير الاهواء والعوامل الروحانية في حجب الحقيقة . ولنا نعتقد ان المستشار عمد الى الكذب لانه يعلم جيداً ان كلامه يسجل في التاريخ ولكن هي العوامل النفسية التي دفعت الى ان يقول تلك الاقوال وهو مقتنع بصحتها تمام الاقتناع . وليس من الغريب أن يقتنع بها الشعب الألماني فقد علمنا انه رهن إشارة حكومته . ويكفي ان نرجع الى ذلك الخطاب لنرى كيف ان المستشار اكتفى بإيراد اعتقاده وتأكيده بلا برهان منطقي معقول فقد أكد ان « مساعي العدو ليبرهن على مبادرتنا بالعداوة قد سقطت امام الشهادات التي نشرت » وانه « من المؤكد ان المأساة البشرية ما كانت لتحدث لو توقفنا الى الاتفاق مع انكلترا » وان « مداخله انكلترا بجانب فرنسا في مسألة مراكش قد برهنت للعالم كيف ان انكلترا ما برحت تهدد السلم العام باجبار الجميع على قبول سياستها » الخ . .

وما كان اصدق المستشار لو عكس الآية وقال ان ألمانيا هي التي هددت السلم العام لانها ارادت ان تجبر الدول على التسليم بأرلها وما آربها السياسية

الفصل الثالث

تحول عواطف انكلترا

١ - تحول عواطف الحكومة الانكليزية

رأينا كيف سعت الحكومة الانكليزية لتتجنب الدخول في المشكلة السرية وما بذلته في سبيل حفظ السلم الاوربي . وسندرس الآن الاسباب التي حملت انكلترا المسألة على الانقلاب في ظرف اسبوع حتى رغبت في الحرب وأعلنتها

ان مرجع هذا الانقلاب كان قصر نظر المانيا، فان سياستها كانوا قد اقنعوها بان مشاكل انكلترا الداخلية ولا سيما المشكلة الارلندية لن تأذن لها ان تخوض غمار حرب ليس لها فيها مصلحة ولا ترجي منها نفعاً . فهان على المانيا اذ ذاك ان تحترق البلجيك للوصول الى باريس بسرعة . هذه هي بلا ريب الخطوة التي جلبت على المانيا عداء انكلترا

في ٣١ يوليو كتب وزير الخارجية الانكليزية رسالة لا يزال في لهجتها أثر للتردد قال :

لا بد منا ان نعهد بالدخول في اي حرب يتوقع تشوبها وقد قلت ذلك لسفير فرنسا ولكنه طالب الى حكومة جلالة الملك ان تعيد النظر في المسألة فاجبته انه لا يمكننا ولا يجوز لنا ان نعهد بشيء في الوقت الحاضر ولكننا سوف ندرس الحالة ثانية حالما يحدث حادث جديد

وبعد ان بين سفير فرنسا للوزير الانكليزي تأثير قرار الحكومة الانكليزية رجع الوزير عن تردده قليلاً ولكنه لم يشأ ان يتعهد بشيء حاسم . فقد كتب بتاريخ ٣١ يوليو ايضاً :

أخبرني المسيو كمبون (سفير فرنسا) اليوم بملخص اشارة تليفرافية وردت من سفير فرنسا في برلين جاء فيها ان تردد الحكومة الانكليزية انما هو كتشجيع للحكومة الالمانية وأنه يكفي ان نعلن انخيازنا الى جهة روسيا وفرنسا حتى تقر المانيا على خطة من شأنها حفظ السلم . . . وقد أخبرت المسيو كمبون ان الوزراء أمروا في جلسة هذا الصباح على رفض التعهد بصورة نهائية في الوقت الحاضر اذ ان من الواجب علينا ان نعرض سياستنا على البرلمان ولا نستطيع ان نضمن

سلفاً ما يقره . وان الاعتقاد سائد بين رجال الحكومة والجمهور باننا غير مرتبطين بتعهد أو اتفاق يجبرنا على التعرض الفعلي . وقد يغير سير الحوادث رأي الحكومة والبرلمان ويحملنا على اتخاذ خطة أخرى . وأخص بالذكر حرمة البلجيك لو مست فقد يكون لها تأثير عظيم — ولا أقول حسم — في تعيين الخطة التي تجري عليها في سياستها . وقد كرر المسيو كمبون سؤاله عن مؤازرتنا فرنسا في حال هجوم ألمانيا عليها فأجبت أنه لا ينبغي ان أزيد شيئاً على ما قمته آنفاً

الا انه بعد رفض سفير ألمانيا التعهد باحترام حياد البلجيك كتب السر ادوارد غراي بتاريخ اول اغسطس :

قد أخبرت اليوم سفير ألمانيا ان جواب الحكومة الألمانية بشأن احترام حياد البلجيك يستدعي الاسف الشديد لان الرأي العام في انكلترا يهيمه أمر ذلك الحياد . ولو اكدت لنا ألمانيا احترامه مثل ما فعلت فرنسا هان انفراج الازمة هنا وزال الارتباك . ولا شك انه لو اخترق أحد المتحاربين الاراضي البلجيكية في حين ان الآخر ظل محافظاً على حرمتها لاصبح من الصعب السير وقت تيار الشعور العام ضد المعتدي

فنرى من ذلك ان الوزير الانكليزي اخذ يلين وان عزمه الاول على الاحتفاظ بالسلم معها يكن الحال بدأ يتزعزع . وفي ٢ اغسطس ارسل سفير فرنسا في لندن تلغرافاً الى حكومته قال فيه :

ابذلني السر ادوارد غراي أثر انعقاد مجلس الوزراء في هذا الصباح ما يأتي : « اني مفوض لاعلامكم بأنه اذا دخل الاسطول الألماني مياه المانش او قطع بحر الشمال لاتيان عمل حربي على السواحل الفرنسية أو السفن التجارية الفرنسية فان الاسطول البريطاني يقوم بكل ما في استطاعته من الحماية ، غير ان هذا التأكييد موقوف على شرط موافقة البرلمان البريطاني على سياسة الحكومة . ولا يجب ان يعتد تمهيداً بضطر الحكومة الانكليزية الى ان تأتي عملاً ما قبل حدوث الحادث المذكور أي اثناء الاسطول الألماني على عمل حربي »

فنرى ان هذا التأكييد لم يكن الا وعداً بحماية السفن التجارية الفرنسية لا اعلاناً للحرب على ألمانيا . ولو ظلت الامور على ذلك لتجنبنا ألمانيا اتيان الاعمال الحربية على السواحل أو السفن الفرنسية حتى لا تثير عداوة انكلترا

الا ان عواطف الوزير الانكليزي ما برحت تتطور مع تغير الاحوال السياسية . ففي ٤ اغسطس كتب السفير الانكليزي في بروكسل رسالة الى حكومة البلجيك بناء على التعليمات التي جأته قال فيها :

قد كانت ان اخبر الحكومة البلجيكية انه اذا شددت ألمانيا الضغط حتى تضطر البلجيك الى الخروج

عن حيادها فإن حكومة جلالة البريطانية تنتظر من البلجيك ان تقاوم هذا الضغط بكل ما لديها من الوسائل

وحكومة جلالة البريطانية مستعدة في هذه الحال ان تنضم الى روسيا وفرنسا لتقديم الى حكومة البلجيك - اذا رغبت في ذلك - معوناتها المشتركة بلا ابطاء تقاومة التدابير الخيرية التي تتخذها ألمانيا - ولتقدم ضماناتها في الوقت ذاته بخصوص استقلال البلجيك وسلامتها في المستقبل

اذ ذاك اصبح الامر مقضياً ففي التاريخ نفسه (٤ اغسطس) ارسل سفير فرنسا في لندن اشارة تلغرافية طالما انتظرتها الحكومة الفرنسية قال فيها :

دعائي السر ادوارد غراي في هذه الساعة ليخبرني بان رئيس الوزارة الانكليزية سيهان اليوم في مجلس العموم ان الحكومة الانكليزية قد طلبت الى ألمانيا ان تسحب الانذار الذي أرسلته الى البلجيك وان تبعث بجوابها في هذا المساء قبل نصف الليل

وقد استولى الذهول على ألمانيا امام هذا القرار لانها تأكدت حياد انكلترا - ولا سيما ان جيوشها كانت قد اكتسحت البلجيك فلم تستطع الرجوع بعد ذلك . وقد وصف سفير انكلترا في براين ارتباك المستشار الألماني واضطرابه في رسالته المشهورة التي جاء فيها :

وجدت المستشار في اضطراب شديد

ثم بدأ جنابه في الحال خطبة طويلة دامت عشرين دقيقة تقريباً فقال « ان الخطة التي اتخذتها الحكومة الانكليزية في غاية الغرابة . لأجل كلمة بسيطة - كلمة « الحياد » التي طالما اهمت في وقت الحرب - لأجل خرقه من الورق ، تقدم انكلترا على محاربة أمة تربطها بها رابطة الجنسية ولا أمنية لها الاصدقاتها . ان جميع مساعيها في هذا السبيل قد ذهبت ادراج الرياح ازاء تلك الخطة الغريبة » . فكان المستشار احسن اذ ذاك ان السياسة التي اتبعها منذ تولية منصبه - على ما خبرت بنفسه - قد سقطت دفعة واحدة كأنها بناء من ورق ! ثم قال جنابه بجدية ان العمل الذي اتيناه يفوق التصور بل هو اشبه شيء بمن يهجم من خلف على رجل يخلص حياته ممن يعتدي عليه وانه يلقي على عاتق بريطانيا العظمى تبعه كل الحوادث العظيمة التي يحتمل حدوثها . وقد اختلجت على هذه الاقوال بشدة وأجبت قائلاً كما ان جنابه وجناب الهرفون يا كوف (وزير الخارجية الألمانية) ارادوا ان يقتنعاني بان الخطط الخيرية تقضي باختراق البلجيك وان حياة ألمانيا او موتها موقوفان على هذه الخطة فاني ارجو ان يدرك جنابه ان انكلترا تعتبر وفاء وعدها بالدفاع عن حياد البلجيك مسئلة « موت وحياة » كذلك

وقد كررت قولي بانه من الضروري احترام تلك المعاهدة — والا فاني أتمنى يستطيع العالم ان يبينها على عهود انكلترا في المستقبل ! ولما هممت بالخروج قال لي ان الصدمة التي وجهتها انكلترا الى ألمانيا بانضمامها الى العدو يزيد بها شدة ان رجال حكومته ما يرحوا يعملون بالاشترك معنا في سبيل التوفيق بين النمسا وروسيا . فاجبت جنابه ان من المحزن ان تشترك الامتان في الوقت

التي كانت علاقتهما فيه اشد وداً وصداقة مما كانت عليه منذ سنوات

من تلك الرسالة التاريخية لأفضل درس على الفرق الشاسع بين مدارك الالمان ومدارك الانكليزي فان « نخرقة الورق » التي ليس لها قيمة في نظر الاول مقاماً رفيعاً في نظر الثاني

٢ - تحول الرأي العام الانكليزي عند انبوب الحرب

رأينا كيف تطورت آراء الوزارة الانكليزية ، وقد صادق على خطتها الملك والبرلمان . بقي أن يتطور الرأي العام النازع الى السكون والذي كان يجهل ما دار بين رجال السياسة ولا يخفى ما للرأي العام من السلطة العظيمة في السياسة الانكليزية ، ولذا كان من المحتم اقناعه واسمائه . وقد تم ذلك بفضل الخطب التي ألقاها الوزراء على الجمهور والمقالات التي نشرتها الصحف

ولاشك ان ذلك المسعى لم يكن تحقيقه بالامر الهين فقد كان ينبغي اقناع الرأي العام للدخول في حرب تدور حول دولة صغيرة لا صلة له بها وربما جهل اسمها ! وقد كان يستدعي نجاح هذا المشروع معرفة المزاج العقلي الانكليزي معرفة تامة وطرق التأثير فيه . فان وزراء انكلترا انما نجحوا بضرهم على وتر شرف الامة ومقامها ووجوب احترام معاهداتها لا ببيان المصالح المادية الموقوفة على الحرب . ومعلوم ان السياسة الانكليزية ما برحت منذ القرن الرابع عشر تحافظ على علاقتها الودية مع الدول الصغيرة صديقات انكلترا اللواتي يقمن حاجراً بين الدول المتوسطة والجزر البريطانية . وقد ضمنت انكلترا وفقاً لهذه السياسة حياد البلحيك . قال المستر لويد جورج « لو تركناها تنهك ل بقي صدى عازنا ين مدى الدهور »

ولا يسعنا هنا الا أن ننقل فقرات من خطب وزراء انكلترا في الاجتماعات العمومية واليك ما قاله المستر اسكويث بتاريخ ٤ سبتمبر سنة ١٩١٤ :

اسألكم واسأل العالم أجمع عن موقفنا كأمة لو منعنا الجبن او وحي المصالح المادية أو شال عاطفة الشرف والواجب عن القيام بعهودنا وحملنا على خدع أصدقائنا ؟ بأي وسيلة كنا نبرر مركزنا نحن رجال الحكومة وسائر أهل البلاد أمام محكمة الوجدان الوطني والشرف لو شكنا عهودنا ولم نبذل ما في وسعنا لمنع تلك الاعمال الشائعة ؟ لا بل للانتقام منها

أما فيما يخصني فاني أفضل ان تحي هذه البلاد التي نكبتها من وجه الارض على ان تقف صامتين ، وكأننا بسكوننا نشجع ارتكاب الجريمة وننصر القوة على الحق والهمجية على الحرية

واليك فقرة من خطاب للمسترلويد جورج بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩١٤ :

لا أظن أحداً ممن في هذه الغرفة نظر الى نشوب حرب كبرى بأشمئزاز وكراهية مثلي في اناء حياتي السياسية كلها . أما الآن فلا أظن أحداً في هذه الغرفة أو بعيداً منها أشد اقتناعاً مني بضرورة دخول الحرب صوتاً لشرف الوطن

ثم بين الوزير انه على « خرق الورق » تقف حياة الامم اليوم ليس من الوجهة السياسية فقط بل من الوجهة التجارية والاقتصادية أيضاً ولا يخفى ان التجارة انما تقوم بالثقة المتبادلة . ثم قال مبيناً الفرق بين ادراك الانكليزي والالماني للشرف :

يدرك الالماني ان الحرب قد تنشب للانتقام أو لامتلاك الاراضي ولكن يتعذر عليهم ان يدركوا كيف ان سلطنة عظيمة تعرض مرافقتها الحيوية وقوتها وتحاطر بحياة ابنائها بل بكيانها ووجودها لحماية أمة صغيرة تنخبط في الدفاع عن نفسها

٣ — اثر انتهاك حرمة البلجيك واكتساحها في الرأي العام الانكليزي

قلما تتأثر الجماعات بالبراهين المنطقية وانما تتأثر بالبراهين العاطفية والروحانية . فالذي أتم تطور الرأي العام في انكلترا بعد انتهاك حرمة البلجيك كان ائتلاف المدن وتخريبها واحراق آثارها وقتل سكانها

والذي جرح الانكليز على الخصوص طرق الخداع والمكر التي اتخذتها ألمانيا لاختراق البلجيك : فانه في صباح اليوم الذي دخلت فيه ألمانيا الاراضي البلجيكية كان سفيرها في بروكسل يؤكد احترام دولته لحرمة البلجيك . ففي ٢ اغسطس قابل وزير خارجية البلجيك سفير ألمانيا ، قال الوزير نقلاً عن لسان السفير « انه لم يكلف الى الان ان يبلغنا شيئاً بصفة رسمية واننا مع ذلك نعلم رأيه الشخصي بخصوص الامانة التي لنا ان نتظرها من جيراننا في الشرق » ثم قال :

فأجيبته فوراً ان كل ما علمناه من مقاصد هؤلاء على ما ظهر في المحادثات السابقة لا يترك لنا مجالاً للشك في سلوكهم القانوني ازاء البلجيك . وزدت اننا نود بالرغم من ذلك ان نحصل على قرار رسمي من الحكومة الالمانية في هذا المعنى ولا شك ان الامة تستقبله بالفرح والشكر وفي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم قدم السفير المتقدم نفسه انذاراً نهائياً

يطلب فيه الاذن بمرور القوى الالمانية على الاراضي البلجيكية
فنرى ان مثل هذا الخداع والخبث مما يقلل ثقة الساسة بعضهم ببعض . ولا
يسعنا الا الاعتراف بان آداب الافراد في معاملاتهم الخاصة اسى من تلك الآداب
الدولية . وسنرى ان عدم الثقة بين الدول كان في مقدمة الاسباب المباشرة للحرب
ويعلم الجميع توحش الالمان عند اكتساحهم الاراضي البلجيكية وقتلهم للاهليين ،
وهم انما فعلوا ذلك تطبيقاً لمبادئ اركان الحرب الالمانى التي ترمي الى الارهاب
منعاً للمقاومة

وهنا ايضاً ارتكب الالمان خطأ يدل على قصر نظرهم في الامور النفسية . فان نتيجة
اعمالهم بدلاً من ان تمنع مقاومة الاهلي قد جلبت سحق الانكليز وعدائهم حتى
تطوع منهم مليونان بمحض اختيارهم
ويذكر الجميع الطريقة الشائنة التي برر بها المستشار اختراق الجيوش الالمانية
لارض البلجيك ، فانه اعتمد على نظرية المؤرخين الالمان (المشروحة فيما تقدم) التي
تجعل الدولة لا تحفل بأي معاهدة تحول دون نيل مرامها وهذا قوله المشهور : « ان
الضرورة لا تعرف قانوناً »

الفصل الرابع

موقف المانيا والنمسا وروسيا وفرنسا في اثناء المفاوضات

١ - مساعي روسيا وفرنسا لمنع الحرب

لم تكن فرنسا وروسيا مستعدتين للحرب . وكانت روسيا قد شرعت تمتد خطوطها الحديدية ولكنها لم تنفذ الا اليسير من مشروعاتها . فلا يعقل اذاً ان احدى هاتين الدولتين ارادت الحرب ، بل ان اعتقاد النمسا قعودها عن التعرض لها كان كما رأينا باعثاً على استعمالها الشدة والصرامة في بدء المفاوضات . وقد وقعت روسيا ازاء خطة النمسا في حيرة عظيمة . فلما قبل هذه الحوادث بسنوات قليلة تركت النمسا تستولي على البوسنة تحجباً للحرب . ولكنها لو تركتها هذه المرة ايضاً تطأ السرب تحت اقدامها أفلا تفقد مكانتها في البلقان ؟ انها على الرغم من ذلك اظهرت تساهلاً عظيماً الى ان فاجأتها المانيا بطلب يتعذر الاذعان له وقد ابدت روسيا ميلها الى المسالة منذ بدء المفاوضات . كتب سفير انكلترا في بطرسبرج بتاريخ ٢٥ يوليو يقول :

لو طلبت السرب تحكيم الدول الاوربية فروسيا مستعدة لان تسحب وتترك المسألة في أيدي انكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا

وكتب السفير نفسه ايضاً وكأنه تنبأ بما كان على وشك الحدوث :

ان عمل النمسا موجه في الحقيقة الى روسيا : فهي تريد السيطرة بنفوذها على دول البلقان . ولا يعتقد الميسو سazonوف ان المانيا تحب الحرب وانما يظن ان موقفها ينجلي اذا رأينا (أي الانكليز) نشد ازر روسيا وفرنسا فلا يبقى خوف من الحرب . ويرى اننا اذا لم نفعل كذلك فان الدماء تسيل انهاراً وسوف نرغم على دخول الحرب عاجلاً أو آجلاً

ان صحة هذا النظر تستحق العناية فان رفض انكلترا ايضاح خطتها جعل المانيا تعتمد على حيادها وربما صح ان يعد هذا الاعتقاد من بواعث الحرب . وقد شرح السفير المتقدم بتاريخ ٢٥ يوليو مقاصد روسيا اذ قال :

الجاني جنبه (أي الوزير) انه لا يسمع روسيا ان تأذن للنمسا بكسر السرب ونبيل السيطرة في البلقان . واذا تثبتت روسيا من معونة فرنسا فانها لا تحجم عن المجازفة بالحرب . وقد أكد في المسيو سازونوف مرة أخرى انه لا يريد التورط في الخلاف : ولكنني مع ذلك ارى الحالة تستدعي اليأس الا اذا كانت ألمانيا تقف النمسا عند حدها

ولكن هذه اللهجة الخازمة لم تلبث ان خفت وبدأت روسيا تتساهل حفظاً للسلام . ففي ٢٥ يونيو كتب سفير فرنسا في روسيا يقول :

سيمع غداً مجلس الوزراء تحت رئاسة القيصر وقد أبدى المسيو سازونوف تساهلاً كبيراً اذ قال لي «يجب ان تجنب كل ما من شأنه تعجيل الحرب وأرى انه لا ينبغي لنا ان نقف سير المفاوضات حتى في حال تعدي النمسا على السرب »

وبعث بمثل ذلك سفير فرنسا في روما بتاريخ ٢٦ يوليو :

قال المسيو سازونوف أمس لسفير إيطاليا في بطرسبرج ان روسيا ستستخدم كل الوسائل السياسية لمنع الحرب وانها لم تقطع الامل في رجوع النمسا عن صرامتها اذا توسطت لديها احدى الدول . ولكنه لا يستطيع ان يبيع للنمسا سحق السرب

فقد كانت الحكومة الروسية تظهر استعدادها لقبول أي اتفاق تجنباً للحرب . وكتب وزير الخارجية الروسية بتاريخ ٢٧ يوليو :

اذا لم يتيسر لنا الاتفاق مباشرة مع حكومة فيينا فاني مستعد لقبول اقتراح اسكتلندا أو أي اقتراح آخر يكون من شأنه حل المشكلة

ولكن لسوء الحظ ان النمسا — التي ما برحت تعتقد ان روسيا لن ترفي بنفسها في الحرب ولا سيما بعد التساهل الذي بدا منها في المفاوضات — أعلنت الحرب على السرب ، فكان ردّ الحكومة الروسية على ذلك انها حشدت جزءاً من جيشها وأعلنت سفيرها في برلين في ٢٨ يوليو بالتدبير الذي اتخذته قالت :

نظراً لاعلان النمسا الحرب على السرب ستذيع الحكومة الامبراطورية غداً (٢٩ يوليو) خبر حشد الجيوش في دوائر اودسا وكييف وموسكو وقازان فالرجو ابلاغ ذلك الى الحكومة الألمانية مع التأكيذ بخلو ذهن روسيا من كل عداوة نحو ألمانيا

على ان روسيا لم تقطع الامل بالسلام فان وزير خارجيتها كتب في التاريخ نفسه :

من الواضح الجلي ان اعلان النمسا الحرب على السرب قد قطع الامل بنسوية الخلاف مباشرة بين النمسا وروسيا . فمن الضروري جداً الان ان تسعى الوزارة الانكليزية بكل ما في وسعها

وتتوسط لوقف حركات النمسا الحربية في اقرب وقت . وان لم ينتج عن هذا التوسط وقف تلك الحركات فاما يكون قد اجل الشر وابلح للنمسا ان تسحق السرب

وعلى اثر التعليمات التي وردت الى سفير روسيا في فينا سعى هذا السفير سعياً جديداً ولكن من غير أن ينجح كما يؤخذ من رسالته بتاريخ ٢٨ يوليو :

. . ان الحكومة النمسية التي لجأت الى تدابيرها الشديدة ضد السرب بالرغم من ارادتها لم تستطع ان ترجع عنها ولا ان تناقش في شيء من المذكرة التي أرسلتها . وقد زاد الكونت برختولد قوله ان الازمة بلغت درجة من الحدة ابس تبسور للحكومة معها — حتى ولو شاءت ذلك — ان ترجع عن خطتها ولا سيما ان جواب السرب يدل على عدم اخلاصها الوعد في المستقبل

ولكن الحكومة الروسية لم تشأ قطع الرجاء ففي ٢٩ يوليو كتب سفير فرنسا في بطرسبرج الى باريس :

استطيع الآن ان اؤكد لجنابكم موافقة الحكومة الروسية على كل الاجراءات التي تقترحها فرنسا وأنجلترا لصون السلم . وقد ارسل زميلي سفير إنجلترا الى دولته تلغرافاً بهذا المعنى نفسه

لكن الحكومة النمسية ازدادت تصلباً. ولما شعر وزير الخارجية الروسية بتفاقم الخطر علق أمه الاخير على دخول انجلترا في المشكلة . واليك ما بعث به الى سفيره في لندن بتاريخ ٢٩ يوليو :

لم يبق لنا الا ان نوكل الامر الى الحكومة البريطانية لتتخذ الخطوة التي تراها مؤدية الى الغرض المطلوب

ومن هذا التاريخ أظهرت المانيا ميلاً قاطعاً للحرب بعد ترددتها الطويل . كتب سفير فرنسا في برلين الى حكومته بتاريخ ٣٠ يوليو :

الظاهر ان السيو سارزونوف قد اقتنع على اثر حديث دار بينه وبين كونت بورتالس (سفير المانيا) ان المانيا لا تريد ان تفوز في فينا بالكلمة الحاسمة التي يقف عليها السلم في اوربا . وقد احس القيصر ذلك الشعور نفسه من تلغرافات خصوصية تبادلها هو وامبراطور المانيا . ومن جهة اخرى فان اركان الحرب والبحرية الروسية قد تلقوا أخباراً مقلقة عن تدابير جيش المانيا واسطوطها وعند ما اخبرني بذلك السيو سارزونوف ذكر لي ان الحكومة الروسية لا تزال تبذل مساعيها في سبيل الاتفاق . وقد كرر قوله « نجدني الى آخر دقيقة مستعداً للمداولة »

وقد أبدى القيصر نفس العناية ففي ٣٠ يوليو أرسل سفير فرنسا في روسيا مجمل محادثة دارت بينه وبين وزير الخارجية الروسية جاء فيه :

ان رغبة القيصر نقولا الشديدة في ملافاة شر الحرب تجعلني اقدم لك اقتراحا جديدا باسمه وهو « اذا اعترفت النمسا بان مشكلتها مع السرب تعني اوروبا اجمع وكانت مستعدة ان تخفف من مذكرتها النهائية العبارات التي تصيب استقلال السرب فان روسيا تقف كل تدابيرها العسكرية »

ولكن السيف كان قد سبق العذل فان النمسا لم تتنزل عن شيء، وفي ٣١ يوليو كتب سفير انكلترا الى حكومته يقول :

صدرت الاوامر بالحشد العام وقد اتخذ هذا القرار الر تقرير ورد من سفير روسيا في فيينا جاء فيه ان النمسا قوت لا تقبل مداخلة الدول الاوربية وانها بدأت تحشد جيوشها ضد روسيا وضد السرب في آن واحد . وعند روسيا اسباب تحملها على الاعتقاد بان المانيا تستعد استعدادا عسكريا جديدا فلا يمكنها والحالة هذه ان تبيح لسواها ان يسبقها في هذا المضمار

ان العبارة الاخيرة من هذا التلغراف عظيمة الشأن : فان الخوف المتبادل أدى الى التسابق حتى لا تتقدم دولة على أخرى وتكون أشد منها قاهبا الى أن أصبح نشوب الحرب أمرا لا مفر منه

على ان الميسو سارونوف وزير الخارجية الروسية اضطر أخيراً أن يقطع كل رجاء وقد أظهر يأسه في محادثة دارت بينه وبين سفير فرنسا أرسل هذا الاخير مجملها تلغرافياً الى باريس بتاريخ أول أغسطس :

بين لي الميسو سارونوف فتوطه من نجاح مساعيه دون الحرب وقال انه لم يرفض اقتراحاً ما عرض عليه . فقد قبل اقتراح مؤتمر اربع دول تتوسط في الخلاف واقتراح توسط انجلترا وإيطاليا واقتراح تسوية الخلاف مباشرة بين النمسا وروسيا . ولكن في كل هذه الاحوال كان الرفض من جهة المانيا والنمسا اما صريحاً او غير صريح وبدا ذهبت كل الساعي في سبيل السلم ادراج الرياح

قد يقول البعض انه كان في استطاعة روسيا ألا تتعرض للنمسا في خطتها تجاه السرب ولا سيما لانها لم تقاوم ضم البوسنة سنة ١٩٠٨ فالجواب ان هذه المسألة مسألة كرامة وشمم وانفة لا يستطيع الحكم فيها من كان غريباً عن ذلك الشعور . ولا شك ان روسيا عدت استيلاء النمسا على السرب أمراً جوهرياً لحياتها ومكانتها حتى خاضت بنفسها وجرت معها اوروبا في الحرب . وقد لخص سفير انكلترا في بطرسبرج نظر روسيا الى هذه المسألة بقوله :

لا تستطيع روسيا السكوت عن استيلاء النمسا على السرب كما ان انجلترا لا تسكت لو استولت ايطاليا على هولندا

٢ — رغبة ألمانيا في حصر الحلاف وترددها في أمر الحرب من الصعب أحياناً أن نتمثل بجلاء بواعث الاعمال البشرية حتى أن أصحاب الاعمال أنفسهم كثيراً ما يجهلون تلك البواعث . فلا يسع الباحث والخال هذه الا الاكتفاء بالحدث والتخمين

يؤخذ من المستندات المنشورة الى هذا اليوم ان المانيا لم تشأ الحرب أولاً ولكنها قررت في الساعة الاخيرة لاسباب سنيينها في فصل آخر . واذا لم تعن بتهدئة غضب النمسا في البدء ولم تسع في ارجاعها عن شدتها فما ذلك الا لاقتناعها بان دول الوفاق الثلاثي لن تتعرض لها بالفعل فاستغتمت المانيا هذه الفرصة لاذلال روسيا بلا حرب كما دلت عند ضم البوسنة والمهرسك

ومتي فهمنا ذلك ادركنا قنبه ألمانيا على سفرائها بان يلحوا في طلب حصر الخلاف بين النمسا والسرب

واليك ما كتبه المعتمد الانكليزي في برلين بهذا الشأن بتاريخ ٢٢ يوليو :
بالامس لقيت وزير الخارجية فكرر قوله بان حل المشكلة انما يرجع الى النمسا والسرب وحدهما وانه لا ينبغي لدولة اخرى ان تتعرض لهما

وكتب وزير الخارجية الفرنسية في المعنى نفسه بتاريخ ٢٤ يوليو :
قد نبهني سفير المانيا الى الفقرتين الاخيرتين الواردتين في مذكرة قائلاً قبل قراءتهما انهما محور المذكرة وخطر فقراتهما . وقد حفظت صورتها بالحرف وهي :
« ترى الحكومة الالمانية ان المشكلة الحاضرة يجب ان تسوى فيما بين النمسا والسرب وان من مصالحة الدول ان تسمى في حصر الخلاف بين هذين الفريقين
« ان الحكومة الالمانية ترغب رغبة شديدة في حصر الخلاف اذ ان تعرض اي دولة من الدول الاخرى لا بد ان ينشأ منه بفعل التحالفات الدولية نتائج خطيرة جداً »

والذي يتراءى للمنصف ان ألمانيا كانت في ذلك الحين تريد فعلاً حصر الخلاف وقد ذكر معتمد انكلترا في برلين مجمل محادثة له مع الوزير الالمانى جاء فيها :

قال لي الوزير انه أخبر روسيا عن رغبة المانيا في تجنب الحرب العامة بكل قوتها وانه سيبدل جهده لمنع تلك المصيبة العظيمة . واذا تفاقم الخطر بين النمسا وروسيا فهو مستعد ان يقبل اقتراحكم بتوسط الدول الاربع في فيينا وبطرسبرج حتى يتساهل الفريقان

ويظهر ان ألمانيا كانت تريد ألا تتعرض روسيا للمشكلة كما يؤخذ من رسالة أرسلها وزير الخارجية الفرنسية الى سفرائه بتاريخ ٢٦ يوليو :

جاءني اليوم سفير ألمانيا يلفتني مذكرة ترمي الى توسط فرنسا لدى روسيا في سبيل السلم وقال ان النمسا قد أعلنت روسيا بأنها لا ترمي الى توسيع املاكها أو الى مس سلامة السرب وإنما قصد ان تضمن راحتها وتوطد الامن . فبناء عليه تقف المسئلة على ما تقره روسيا ، فن ألمانيا تشارك فرنسا في رغبتها السلمية ولها أمل كبير بان فرنسا تبذل نفوذها لتهدئة روسيا

وقد حدث مثل ذلك في لندن ، واليك ما كتبه السرا دوارد غراي بتاريخ

٢٧ يوليو :

أخبرني سفير ألمانيا ان حكومته قبلت مبدئياً توسط الدول الاربع لدى النمسا وروسيا ولكنها تحفظ لنفسها الحق وهي خليفة النمسا ان تساعد اذا تعدى عليها أحد . وقد جاءت أيضاً تعليمات ترمي الى حلي على استعمال مالي من النفوذ في بطرسبرج لخصر الخلاف وتوطيد السلم في أوروبا

الا ان ألمانيا رغم طلبها التوسط لدى روسيا كانت ترى ان المشكلة التي بين النمسا والسرب لا يمكن ان تعرض في حال من الاحوال على محكمة اجنبية تبت في امرها . فقد كتب سفير انكلترا في برلين بتاريخ ٢٧ يوليو :

قال الوزير ان المؤتمر المقترح عقده هو في الحقيقة مجلس تحكيم وان مثل هذا المجلس يتعذر اجتماعه الا على طلب روسيا والنمسا . ولذا فهو يأسف لانه لا يستطيع الموافقة على اقتراحكم رغم رغبته في حفظ السلم

اما النمسا فقد رفضت كل مداخلة اجنبية واليك ما كتبه سفير انكلترا في فينا

بتاريخ ٢٨ يوليو :

قال وزير الخارجية (التسوية) بهدوء — ولكن بحزم — انه لا يستطيع قبول أي مجادلة بشأن المذكرة السرية فان الحرب ستعلن اليوم وأنه ليكني يرهاناً على عدالة هذه الحرب وضرورتها ما يتصف به الامبراطور من حبه للسلم فضلاً عن ميله (أي ميل الوزير) الشخصي . وان هذه المسئلة ينبغي حلها فيما بين الفريقين صاحبي الشأن لا غير

ولكن الحكومة الألمانية ما برحت على الرغم من ذلك تظهر رغبته في حفظ

السلم . وقد كتب سفير انكلترا في برلين بتاريخ ٢٨ يوليو :

ذهبت لزيارة المستشار هذا المساء بناء على دعوته فطلب الي ان ابلغكم رغبته في الاشتراك مع انجلترا لحفظ السلم العام كما حصل في آخر ازمة اوربية . ولكنه لم يستطع قبول اقتراحكم بشأن مؤتمر يجمع ممثلي الدول العظمى (الاربع) لانه يعد مثل هذا المؤتمر شبه محكمة عليا تضم دولتين من كل جهة لمحاكمة الدولتين الاخرين . ولكن عدم تمكنه من قبول هذا الاقتراح لا يجوز ان يعد منافياً لرغبته العظيمة في الاشتراك معنا اشتراكاً جدياً . ويمكنكم ان تؤكدوا انه يسعى بكل قواه في فينا وفي بطرسبرج ليحمل هاتين الحكومتين علي تسوية المسئلة مباشرة وبصورة ودية

على ان تلك المقاصد الحسنة لم تدم طويلاً فقد كانت المانيا على وشك اتخاذ خطتها الباتة كما يستدل من تلوغراف ارسله سفير فرنسا بتاريخ ٢٩ يوليو جاء فيه :

أتى سفير المانيا ليعلم المسيو سارزوتوف انه اذا لم تقف روسيا تأهباتها الحربية فان الامر يصدر حالاً بحشد الجيش الألماني فاجاب المسيو سارزوتوف ان الباعث على استعدادات روسيا هو صرامة النمسا وحشدتها ثماني اورديات

على ان الالهجة التي استعمالها الكونت بورتالس (سفير المانيا) في تبليغ هذا البلاغ قد حملت الحكومة الروسية في هذه الالية على اصدار الامر بحشد ثلاثة عشر اوردياً للعمل ضد النمسا

الا ان المانيا ظلت مترددة الى تلك الساعة، فقد كتب سفير انكلترا في فينا

بتاريخ ٣٠ يوليو :

علم السفير الفرنسي من برلين ان السفير الألماني في فينا قد استلم تعليمات لحث النمسا على ان تتجنب في اعمالها ما من شأنه اضرار الحرب الأوربية . ولكن ما يؤسف عليه ان سفير المانيا نفسه موافق على عواطف العداة للسرب والروس فالأمل ضعيف بانه يخلص السعي لتوطيد اركان السلم

قليلة هي المعلومات الواردة في المكاتبات الرسمية بشأن مساعي المانيا لدى النمسا ولم يذكر شيء من هذا القبيل الا في خطاب المستشار الألماني في الريشتاغ في اغسطس سنة ١٩١٥ أي بعد مرور سنة على الحرب اذ قال :

أرسلت اشارة الى المسيو تاشيراشكي بفينا قلت فيها : « ليس في استطاعتنا ان نتطلب من النمسا مداولة السرب وهما في حالة حرب ولكن رفض التداول مع بتروغراد يعد خطأ عظيماً . نعم اننا مستعدون للقيام بما تفرضه علينا محالفتنا ولكن يجب ان نرفض ما يجرنا الى حرب أوربية عامة من جراء اهمال النمسا لصالحنا » ان حشد الجيوش الروسية وحده كان الباعث الحقيقي على الحرب

لقد جاء ذلك التعليل متأخراً جداً ولا ريب انه ليس فيه من الحقيقة الا شذرات قليلة — والله در من قال « لو قالت الحكومات الحق والحق وحده لما كان رجال السياسة بل لما كانت الحروب ايضاً »

فهل يؤخذ مما تقدم ان مداولات المانيا انما كانت ترمي الى كسب الوقت ؟ ان التلوغراف التالي الذي ارسله سفير انكلترا في بطرسبرج بتاريخ ٣٠ يوليو يدل على ان هذه الفكرة لم تخطر ببال سفير المانيا . واليك نص التلوغراف :

في الساعة الثانية صباحاً قابل سفير ألمانيا وزير خارجية النمسا للمرة الثانية وعلامات الاضطراب بدأت على وجهه فلهذا ان الحرب أصبحت أمراً لا مفر منه فطلب الى السيو سارونوف ان يقترح أي اقتراح يبطله الى حكومته ويكون الرجاء الأخير . فكتب السيو سارونوف العبارة الآتية وسلمها الى السفير « اذا اعترفت النمسا بأن مشكلتها مع السرب هي مسألة دولية تعني أوروبا اجمع وكانت مستعدة ان تخد من مذكرتها النهائية العبارات التي تصيب استقلال السرب فإن روسيا تقف للحال كل تدابيرها العسكرية »

ولكن الحوادث كانت اسرع من مداولات السياسة وكان حشد الجيوش الألمانية سيعلم قريباً في الجرائد . الا ان التلغراف الذي ارسله سفير فرنسا في برلين بتاريخ ٣٠ يوليو يحمل على الاعتقاد بان ألمانيا كانت لا تزال تردد . وإليك تلك الرسالة :

يلوح لي انه من المؤكد ان المجلس غير الاعتيادي الذي عقد أمس في بوتسدام بحضور رجال العسكرية وتحت رئاسة الامبراطور قد قرر حشد الجيوش وهذا يعطى الطبعة الخاصة التي اصدرتها الموكال الزبكر . ولكن بعض التأثيرات (كاعلان انجلترا انها تحفظ لنفسها حق التصرف التام وتبادل التلغرافات بين القيصر وغليوم الثاني) قد وقفت تلك التدابير العظيمة التي اقراها المجلس

ولكن ذلك الوقف لم يدم طويلاً فن الساعة الرهيبة كنت قد دنت . وفي ٢ اغسطس ارسل سفير فرنسا في بطرسبرج تلغرافاً قال فيه :

قد سلم سفير ألمانيا الى السيو سارونوف الساعة ٧ والدقيقة ١٠ من مساء امس اعلان الحرب وسيبرج بطرسبرج اليوم

وفي ٣ اغسطس قدم سفير ألمانيا في باريس البلاغ التالي الى وزارة الخارجية :

لحظت السلطات الألمانية الادارية والمسكرية اعمالاً عدائية قام بها بعض الطيارين الحربيين الفرنسيين على الاراضي الألمانية . ولذا كلفت ولي الشرف ان اخبر جنابكم بان الدولة الألمانية ازاء هذه التعديت تعد نفسها في حالة حرب مع فرنسا من جراء اعمالها هذه

ولا ينبغي ان تلك التهم ليست الا حججاً مختلفة ولكن ألمانيا رأت من المحتم عليها ان تكسر فرنسا قبل ان تستعد روسيا فلم تر بداً من شهر الحرب عليها في الحال

الفصل الخامس

أثر عواطف الجماهير في منشأ الحرب

١ — خطورة للرأي العام

قد أصبح للرأي العام شأن عظيم في العصور الحديثة فقلما يجرأ الملوك انفسهم على مقاومته . وقد كان له تأثير محسوس في منشأ الحرب الاوربية وان لم يكن ذلك التأثير ظاهراً . وما برح سياسيو الدول يحسبون له حساباً كبيراً ، ولا سيما في انكلترا حيث للرأي العام المقام الاول . وما كان في استطاعة الحكومة الانكليزية ان تدخل الحرب لو لم تقنع الجمهور بضرورتها

وقد ذكرت قبلاً ان مهارة رجال السياسة موقوفة على ايجاد بعض العواطف في الجمهور من حب أو بغض أو منافسة ثم نشرها بين جميع الطبقات حتى تصبح قوة عظيمة . وذلك سهل جداً على حكومة المانيا لاقياد الشعب الالماني وتبجيله لها . ومن أثر ذلك ان الالمان جميعاً يعتقدون اليوم ان انكلترا وروسيا قد تأمرتاً على المانيا وسوف يبقى هذا الاعتقاد راسخاً في اذهانهم زمناً لا يقل عن خمسين سنة أي بعد انقضاء الجيل الحاضر

تكون بغض الالمان الاجماعي لانكلترا وفرنسا بشترك العوامل التي تؤثر في الجماعات ، ولا سيما نفوذ بعض قادة الجماهير ذوي الارادة الشديدة . وقد كانت للصحافة والجمعيات الوطنية والكتب والجامعات قسط وافر في ادراك هذه الغاية

ومع ان الحكومة الالمانية تنزع الى السلم فانها ما برحت تدعم هذه العوامل لانها كانت خير معين يسهل عليها اقناع مجلس الامة بضرورة تقرير الاموال اللازمة للجيش والاسطول . وقد كانت تظن انه متى أصبح لجيشها قوة هائلة لا تعود الدول الاخرى تجسر على منازلته فيكون لالمانيا بذلك القول الفصل من غير ان تلجأ الى الحرب

ولكن الاختبار قد بين قصر هذا النظر وبرهن على ان آراء الجماهير متى ثبتت وتوطدت تصبح ذات قوة هائلة يتعذر وقفها حتى على الذين أوجدوها . وقد كان للصحافة الالمانية تأثير كبير في سمنة الرأي العام . وطرق اقناع الجماهير متوافرة لدى الصحف نغني التأكيد والتكرار والاستهواء والحظوة . ولا يخفى ان معظم الصحف الالمانية في يد الحكومة ومعامل الذخائر . فكما احتاجت الحكومة الى المال للانفاق على الجيش أو الاسطول دفعت تلك الصحف الى نشر المقالات الحماسية تبين للجمهور حرج الموقف السياسي ورغبة الفرنسيين في الثأر ونحو ذلك وكأن الالمان في بدء الحرب لم يحفظوا كثيراً بالرأي العام في البلاد المحايدة . الا انهم لما وجدوا النفور والاشمئزاز قد عمّا تلك البلاد أثر فظائهم في البلجيك اخذوا يسترضون اهلها ويستميلونهم بعزم وثبات فأسسوا الصحف في الدول المحايدة وبذلوا الاموال الطائلة في هذا السبيل . ولكن عجزهم عن ادراك مزاج الغير جعلهم يتطرفون فيما اذاعوا حتى فقدوا ثقة الجميع

٢ — احزاب الحرب في المانيا

لم يشعر قط الالمان في زمن من الازمنة بميل الى الفرنسيين بل ما برحوا يحسدونهم . وقد زاد نفورهم وكرههم في السنين الاخيرة أثر بعض المشاكل السياسية وعلى الاخص المسألة المراكشيه . وقد استغنمت الصحف الالمانية تلك الحوادث لتهميج الرأي العام على فرنسا

واليك فقرة من تقرير ورد في الكتاب الاصفر الفرنسي بهذا الصدد :

كل يوم يزيدنا تأكداً من مبلغ الصدمة التي اصابنا عتو الالمان والحقد الذي تأصل في نفوسهم أثر حوادث السنة الماضية فان معاهدة ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ (بين فرنسا و المانيا بشأن مراكش) قد جلبت الحبيبة والاسف على البلاد بأسرها فاصبح الجميع حتى الاشتراكيون ناقين علينا لا تنزعنا مراكش من ايديهم . . . فالرأي العام الالمانى يستكثر علينا ونحن لا نتجاوز الاربعين مليوناً مقامنا تحت الشمس

ولكنه كان لحجى السلم بينهم حزب كما كان لحجى الحرب واليك بعض ما جاء في الكتاب الاصفر في هذا الموضوع :

في المانيا مجريان الآراء بخصوص نشوب الحرب : فقريق يميل الى السلام ولكنه ضعيف وليس له زعماء محبوبون من الجمهور وهو يعتقد ان الحرب تجر الخراب على المانيا في حين انها تفيد انكائرا . واما الفريق الذي ينزع الى الحرب فيدخل فيه طبقات مختلفة لكل منها اسباب خاصة تحبب اليها الحرب . . .

فمن اولئك من يعتقدون ان الحرب ستنشأ حتماً يوماً ما فلا فضل لالمانيا ان تسرع في العمل ومنهم من يعتبرونها ضرورية لاسباب اقتصادية اخطرها نكاثر الالهين والافتقار الى منافذ تجارية . او لاسباب اجتماعية كالاعتقاد بان تحويل الافكار الى المشاكل الخارجية مما يضعف نفوذ العامة والاشتراكيين ويبقي السلطة في ايدي الخاصة .

ومنهم من داخلهم خوف بشأن مستقبل الامبراطورية لاعتقادهم ان الزمان يعمل لفائدة فرنسا ومنهم من اعماهم كبرياؤهم فظنوا انه من الخطأ ان يباحثوا شعباً ضعيفاً كالفرنسيين في حقوقهم وواجباتهم في حين ان لديهم من القوة ما يغنيهم عن هذا البحث ويحمل الحق في جانبهم

ومنهم اصحاب معامل الذخائر الذين لا تروج صناعتهم الا بالحرب الخ . . . وبالجمله كانت الحرب المقبلة يتراءى الالمان كأنها مبارزة بين فرنسا والمانيا

ان المعلومات المستخلصة من التقرير المتقدم مطابقة للواقع الا انني لا اوافق على الفقرة الاخيرة — أي ان الالمان كانوا ينظرون الى الحرب كأنها براز بين فرنسا ومانيا — والذي اراد ان بغض المانيا لانكائرا وهي مزاحمتها الحقيقية كان أشد وأبلغ من بغضها لفرنسا ، بل ان هذه الاخيرة كانت في مقدمة زبائنها . فمن الطبيعي اذاً ان يُكره المنافس ويسترضى العميل . وقد كانت روسيا في حكم فرنسا من هذا القبيل كما يننا سابقاً

ولو كانت محاربة فرنسا موافقة للمصالح الالمانية لاستغنت فرصاً ملائمة قد سنحت لها وعلى الخصوص اثر الحرب الروسية اليابانية اذ كانت روسيا شديدة الارتباك في بلادها . فلا شك ان المنافس الوحيد لالمانيا انما كان انكائرا التي اعترضت سبيل المطامع الالمانية في كل مكان

ولما نشبت الحرب لم يكن قد تم انشاء الاسطول الالمانى الذي ما برحت المانيا توجه اليه عنايتها ليضارع الاسطول الانكليزي فلا ريب ان الوقت لم يكن ملائماً لمصلحة المانيا ولذلك لا نرى ما يبعث على القول بانها هي التي ارادتها فهناك في الحقيقة اسباب مختلفة أضرمتها

٣ — عواطف الدول المتحاربة اثناء المفاوضات وعند نشوب الحرب

استقبلت كل من فرنسا وانكائرا التهديد والوعيد قبل الحرب ثم اعلان الحرب

نفسها كأنها مصائب لا مفر منها . ولم تكن الحال كذلك في الدول الاخرى فانه يؤخذ من الصحف الالمانية انها توقعت الحرب بشيء من السرور واليك ما كتبه معتمد فرنسا في بلغاريا بتاريخ ١٠ يوليو :

لا ريب في ان الرأي العام يدعم الحكومة في كل مشروع تدفع فيه — حتى ولو ادى الى الحرب . بل ان الرأي العام قد الف فكرة الحرب اثر الحوادث التي حدثت في الشرق في السنتين الاخيرتين واصبح يحبها ويعتدها حلاً مرغوباً فيه للمشاكل السياسية والاقتصادية التي أخذت تتفاقم تدريجاً

وقد أرسل وزير الخارجية الفرنسية الى معتمديه رسالة بتاريخ ٢٦ يوليو بناء على ما بلغه من التعليمات قال فيها :

ان برلين اليوم في شبه ثورة تعصب وطني . وسيرجع الامبراطور توما الى كيال . ويرى المسيو جول كامبون (سفير فرنسا في برلين) ان المانيا تدخل الحرب حالاً ترى شيئاً من الاستعداد العسكري في روسيا والارجح انها لا تنتظر حجة للهجوم علينا

وقد تم ذلك فعلاً . ولكن يظهر ان اعلان الحرب لم يسبب انفجار سرور بل سبب انفجار غضب . وقد أخبرني المسيو كامبون نفسه ان الالمان من جميع الطبقات اهاتوه واهانوا افراد سفارته بأسفل الطرق

اما في النمسا فقد كانت السرور عظيماً اثناء المفاوضات وبعدها ولا سيما بين الجنس الالمانى . وقد كتب سفير انكلترا بفينا في هذا الصدد :

كان الشعب النمساوي مقتنعاً اقناعاً شديداً بان الحق في جانبه لدرجة انه لم يستطع ان يتصور وجود شعب آخر يعترضه أو يتدفع بحجج النفوذ والسياسة للوقوف في سبيل النار الجناية سراياو وكتب وزير الخارجية الفرنسية لسفرائه يقول :

ان أفضل تحليل للحالة هو ان الوزارة النمساوية لما رأت ضغط الصحافة والحزب العسكري سعت ان تنال معظم ما يمكنها نيله من السرب بطريق الوعيد مباشرة وغير مباشرة وهي تعتمد على المانيا لهذا الغرض

وقد بين سفير انكلترا في فينا في عدة تليفرافات فرح الشعب النمساوي وميله الشديد الى محاربة السرب واليك بعض فقراتها :

أصبحت هذه البلاد تتوقع الحرب بسرور عظيم ولا شك ان الشعب يحب رجاءه اذا تعرفت أو تأجلت . وحالما علم الجمهور ان الحكومة لم تقتنع برد السرب وانها قطعت العلاقات بينها وبين

بأفراد أصابه فرح يقرب من الجنون . وظلت الجماهير في الشوارع الى ساعة متأخرة من الليل
تغني الاناشيد الحماسية

... ولا شك ان الرأي العام كان يعتقد نفسه بين أمرين : أما الخضاع السرب أو توقع استيلائهم
على جزء من الامبراطورية النموية

فيؤخذ مما تقدم ان تيار الرأي العام كان قوياً جداً ، ولا ريب ان له القسط الاوفر
في حمل الحكومة النموية على استعمال الحدة والصرامة مع السرب
اما الرأي العام في روسيا فمن الصعب ان نعلم عنه شيئاً لغموضه . وقد جاء ذكره
في بعض المكاتبات الرسمية . منها رسالة ارسلها السرا دوارد غراي بتاريخ ٢٣ يوليو
أشار فيها الى ان تحديد أجل للمذكرة السرية « مما يهيج الرأي العام في روسيا » —
ومنها رسالة ارسلها وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢٦ يوليو جاء فيها « ان الرأي
العام الروسي يرى انه يستحيل على روسيا سياسياً وأدياً ان تترك السرب يسحقون »
— ومنها رسالة لسفير فرنسا في برلين بتاريخ ٢٧ يوليو قال فيها انه « لا ينبغي ان ينشأ
في روسيا تيار قوي يحرمه كل شيء »

ولكن هذه الاقوال ليست الا فروضاً تتعلق بتكون الرأي العام الروسي . وانا
أخبر بما تم من هذا القبيل بعد نشوب الحرب فقد كانت الحماسة عظيمة بين فلاحى الروس
واليك ما وصفهم به احد الذين شاهدوهم :

يذهب الفلاحون الى ميدان القتال ممثلين حماسة وأهل الطبقات العليا على اختلاف نزعاتهم
يبتغون لهم عند مرورهم . . .

وقد أبتطت الحرب في أعماق الروح الروسية صفات وميزات ثمينة ربما بقيت في رقتها
لولا سنوح هذه الفرصة — فقد كان الفلاحون لا يشعرون بميل الى شيء سوى المشروبات الروحية
أما الآن فقد تغيرت الحال كأن الحرب بينت لهم معنى الحياة أو كأنهم وجدوا في الاستشهاد المقصد
الحقيقي من وجودهم . فليس الذهاب الى الحرب عند الروسي الا تقديم نفسه على مذبح التضحية الوطنية

الفصل السادس

أثر ارادة الامبراطرة الثلاثة

١ --- ارادة امبراطور النمسا والعوامل النفسية الرئيسية في السياسة النمساوية

قد اتضح لنا من التلغرافات الجافة التي نشرناها في الفصول السابقة شيء عن منشأ الحرب . ولكننا لم نتمكن من فهم أسبابها المباشرة بجلاء فعلينا الآن ان نسعى في ادراكها واستطلاع ما دار في خلد الذين اضرموها

يعتقد الجمهور عادة ان الملوك تأثيراً كبيراً في ايجاد الحوادث العظيمة — كالحرب مثلاً — فينسبها اليهم والحقيقة انه ليس لهم الا تأثير خفيف جداً . نعم ان ارادتهم الوجدانية تقرر القرارات في الظاهر ولكنهم يتقادون في الغالب لارادتهم ودوافعهم غير الوجدانية (او اللاوجدانية) — أي التي لا يحسون وجودها

ومهما يكن من سلطة الملوك على الارض فانهم يخضعون بلا ريب للعوامل الجماعية التي تؤثر في ذهنهم وتدفعهم الى العمل . واثن كان في السماء سلطة مطلقة فليس على الارض سلطة من هذا النوع . فكل انسان — والملك انسان — يخضع لعوامل نفسية اسمى من ارادته . وقد أكد ذلك نابوليون غير مرة

بل ان التاريخ ممتلئ بالاعمال التي أتاها الملوك بالرغم من ارادتهم الشخصية . ففي سنة ١٨٧٠ مثلاً لم يشأ الحرب امبراطور فرنسا ولا ملك بروسيا ولكنها نشبت بالرغم من ارادتهما وما بذلاه لمنعها

قد كان لامبراطور النمسا بين رؤساء الدول الاوربية المقام الاول في منشأ الحرب . والذي يطلع على تاريخ ملكه يرى انه ما برح منذ تولى العرش مكسوراً مغلوباً على امره، وانه سلمي الميل . ولم يتح له طعنه في السن ان يتعرض كثيراً للمفاوضات السياسية التي تقدمت الحرب ولا شك ان معظمها تم على يد وزرائه وولي عهده وهم من متوسطي المواهب . والارجح ان البغض الشديد الذي بدا من الشعب النمساوي للسرب حمل

ذلك الامبراطور على قبول حرب الكادوا له لما تقدم بين السرب والنمسا .
 وبمخرج السرب من حوز لاير فور من اخرج مركزه نحو الذي من يجعله سامياً
 فليست العلية في شي من طبعه الفطري بل قد أبدى في أول حكمه صرامة واستبداداً
 عظيمين في حوادث مختلفة . من ذلك انه -- اثر بعض القلاقل في بلاد البحر -- امر
 بشنق وقتل نخبة أهلها وأوسعهم شهرة واستولى على املاكهم . وكان من بينهم رئيس
 مجلس الشيوخ والمحكمة العليا وهو في الثمانين من عمره . زد على ذلك ان صاحبات
 المقام الرفيع من النساء اللواتي نجون من القتل ضربن بالاسواط في الميادين العمومية

فما هي العوامل النفسية الرئيسية التي أوحت الى رجال السياسة النمساوية ارسال
 الإنذار النهائي الى السرب واتخاذ ذلك الموقف الشديد ؟

اني أرى عاملين جليدين : أولهما الرغبة في الظهور بمظهر القوة والعظمة في بدء
 المشكلة وثانيهما الاحتراز من مقاصد روسيا في الساعة الاخيرة . اما الاول فقد كان
 الباعث على الانذار النهائي . واما الثاني فقد حدا النمسا الى حشد جميع جيوشها خوفاً من
 روسيا . وقد أدى ذلك الى حشد جيوش الدول الاخرى

وقد ذكر السفراء في رسائلهم رغبة النمسا في الظهور بمظهر القوة ازاء السرب .
 كتب سفير انكلترا بتاريخ ٢٣ يوليو يقول :

ان خطورة الموقف ناشئة عن تصميم الحكومة النمساوية المجرية على نيل فوز حاسم يوطد
 نفوذها في البلقان بعد أن خابت آمانيها مراراً من جراء الحوادث البلغانية الاخيرة

وقد كتب مثل ذلك سفير انكلترا في فيينا بتاريخ ٢٨ يوليو اذ قال :

قابلت وزير الخارجية هذا الصباح فاعبرني بأنه لا يسع النمسا تأجيل الاجراءات الحربية
 ضد السرب وانه مضطر الى رفض كل اقتراح مبني على جواب السرب . وفي نظره ان هذه المسئلة
 تؤثر في مكانة النمسا . . .

ولم يكن احتراز رجال السياسة النمساوية موجهاً الى روسيا وحدها حامية السرب
 بل لهمم احترازوا ايضاً من الدول الاخرى . ولذا اسرعوا -- بمعونة المانيا -- في
 اعلان الحرب على أمل ان يمنعوا عقد مؤتمر اوربي يكون كمحكمة عليا يخضعون
 لقراراتها

على ان النمسا وان ارادت معاقبة السرب فلها بلا ريب لم تشأ حرباً اوربية

عامة — ١ءلك على ذلك الاءا ءالما رأء الءطء ١ءفاءم وشعراء ان الءرب العامة على الاءواب أظهراء م١لاً عظم١اً الى المسألة والمساءل ؁ وكناء قء وطأء الاءراض١ السرب١ة اء ذلك . وال١ك ما ١ؤءء من المرالسلاء الس١اس١ة ف١ هءا الموضوء

كءب وز١ر الءارء١ة الفرانس١ة الى معءمء١ه ١ءار١ء أول اءسءس :

قابل سفاءر النمسا ف١ ١طرسبرء المس١وء ساءونوف وأءبره ان ءكومءه ءقبل المءاءولة ف١ موضوء الاءءار الءاءا ف١ المرسل الى السرب فسراء الوز١ر من هءا الءءبر واقتراح ان ءءور المفاوضاء ف١ لءءن وأن ءءءرك ف١ها الءول الاءرى ؁

وال١ك ما قاله وز١ر الءارء١ة الانكلاءز١ة بالءار١ء نفسه :

بلع١ من مصءر و١١ق ان الءكومة النمسو١ة بالرءم من الءأهباء الروء١ة — قء اءبرء المائ١ا بقبولها لاءقراء١ الءوسء ب١١ها وب١١ السرب رءبة منها ف١ اءهار ءقء١رها لمساع١ الءلءراء ف١ سب١ل الصلء

وءء١ءة هءا القبول م١ بالءبع ان ءكمل النمسا موقتاً اءراءءها الءر١ة ضء السرب وان ءطلب ءكومة ءلالءه البر١طائ١ة الى الءكومة الروس١ة وقء ءأهباءها ضء النمسا

ولكن المائ١ا لسوء الءظ ء١راء ءطءها ف١ الساعة الاء١رة لاسباب سءسم١ ف١

ب١ائها بعء . وقء كءب سفاءر انكلاءرا ف١ ف١نا هءء الشآن :

ان اءءقال موضوء الءلاف مما ب١١ النمسا وروسيا الى ما ب١١ المائ١ا وروسيا زاء المسألة ءظورة وقءع المفاوضاء الءائرة ف١ ١طرسبرء وف١نا للءوف١ق ب١١ النمسا وروسيا وقء أرسلء المائ١ا اءءار١١ مءءاب١١ ١ءار١ء ٣١ ١ول١و الى ١طرسبرء و١ار١س وماء موضوءان ف١ قالب لا ١ءءمل الاءواباً واءءاً . ءم الاءا شءراء الءرب على روسيا ف١ أول اءسءس وعلى فرنسا ف١ ٣ منه . والارءع انه لو أءأراء المفاوضاء بضعة أ١ام لما نشبء هءه المأساة الء١ ءعء من اكبر مصائب الءار١ء

٢ — اراءة امبراءور روسيا والعوامل النفس١ة الر١س١ة ف١ الس١اسة الروس١ة

لا شك ان ق١صر روسيا هو أوسع ملوك أورباء نفوءاً وسلءة . ولكن سلوكه مع ذلك ١ؤءء ما قلناه سابقاً من ان الملوك ١ضطرون الى اء١ان اعمال لا ١ر١ءونها . فان هءا الاءراءور ما برء منذ ءولى العرش ١عمل اعمالاً مءالفة لرءائبه

فالق١صر م١الاً بءبعه الى السلم وقء ءلم ف١ أول عهءه بءوط١ء السلم العام ب١١ الءول الاءر١ة وسعى لذلك بعءء مؤءمر لاهائ١ الاءول ولكن الءار١ء لا ١عرف عهءاً اءباب روسيا ف١ه من الءروب العظ١مة مثل ما أصابها ف١ عهء ءقولا الءائ١

ان غاية ما في وسع صاحب السلطان اليوم ان يوجه مجاري الحوادث الى الجبهة التي يراها اشد ملامة من سواها وليس في استطاعته ان يخلق الحوادث تدل التلغرافات الرسمية دلالة قاطعة على رغبة القيصر في حجب الدماء ومساعدته في هذا السبيل . فما الذي حمى اذاً على دخول الحرب ؟

انما حمى على ذلك عوامل نفسية مشابهة كل الشبه للعوامل التي دفعت النمسا الى الحرب نعني : الرغبة في الظهور بنظر القوة والعظمة حفظاً لكرامة دولته ، والاحتراز من مقاصد جار قوي.

ما برحت روسيا حامية الشعوب البلقانية السلافية وقد نشب غير خلاف في التاريخ الاوربي من جراء هذه الحماية . ورب معترض يقول قد كان في استطاعة روسيا ألا تتعرض لخلاف قام بين النمسا والسرب . فالجواب ان هذه المسألة ترجع الى الانفة القومية والشعور الوطني (كما تقدم) وليس من شأن غريب عن هذه العواطف ان يدرك قدرها

زد على ذلك ان تأهبات النمسا العظيمة لم تكن موجهة الى السرب (اذ ان الجيش العامل كان كافياً لهذا الغرض) وانما اتخذت احترازاً من روسيا فتلك التأهبات هي التي حملت روسيا على مقابلتها بمثلها ومن ثم نشأت الحرب . واليك ما ورد في المكاتبات الرسمية بهذا الشأن

كتب سفير انكلترا في روسيا بتاريخ ٢٩ يوليو :

لو لم تبين روسيا قصدها جلياً وتحشد جيشها لاستخدمت النمسا اميائها السلمية واستفادت من الحوادث بقدر ما تشاء

وكتب ايضاً سفير فرنسا في روسيا بتاريخ ذاته :

قد اتضح لاركان حرب الجيش الروسي ان النمسا أخذت تعجل تدابيرها الحربية على حدود غاليسيا . ولذلك سيصدر في هذه الليلة أمر بحشد ١٣ اوردياً من الجيوش الروسية في الجهات المتاخمة للنمسا

ولكن بالرغم من هذا التأهب لم يظهر من روسيا ميل الى التعدي ، بل انها اكتفت في الساعة الاخيرة بان تعهد لها النمسا بحفظ استقلال السرب

وقد كتب سفير انكلترا بفينا في اول اغسطس :

تكتفي روسيا في اوقت الحاضر - على ما قاله سفيرها - بتعهد يضمن سلامة السرب واستقلالها وقد أكد لي انه ليس لروسيا مقاصد عدائية ضد النمسا وقال انه سيدين اليوم - مرة أخرى - لوزارة الخارجية (النمسية) النتائج الرهيبة التي تنبع حتماً رفض هذا الطلب الطفيف

٣ — ارادة امبراطور المانيا والعوامل التي حملته على اقرار الحرب

قد جرب غير واحد من العلماء ان يدرس اخلاق امبراطور المانيا وأطواره . اما نحن فسنقتصر من هذا البحث على العوامل التي دفعته في الساعة الاخيرة الى اعلان الحرب لاشك ان امبراطور المانيا كان محباً للسلم رغم سعيه المتواصل لاعداد جيشه . فانما كان المقصد من ذلك في نظره دفع تعدي أي دولة من الدول الاخرى . ويكفي للاقتناع بحبه للسلم ان نرجع الى الخمس والعشرين سنة التي مضت منذ توليه العرش فنرى كيف سوى بالطرق السلمية عدة مشاكل . ولم ينكر ذلك سفير فرنسا في برلين فقد جاء في احد تقاريره :

قد أخذ الامبراطور يألف بعض الافكار التي طالما أظهر نفوره منها ولذا وجب علينا ان نحفظ « بارودنا جافاً » - على ما تعود ان يقول الامبراطور

ويمتاز امبراطور المانيا بشدة الاندفاع وحرارة التدين والاعتداد بالرأي . وقد كان يعتقد حقيقة ان الله اصطفاه من بين الناس وميزه عن سواه وكثيراً ما كرر اعتقاده هذا في خطبه ومكاتباته . وعند نشوب الحرب نشر اعلاناً على جنوده جاء فيه :

اذكروا ان الشعب الالماني هو الشعب المختار من الله . وأن روح الله قد هبطت الي وانا امبراطور الالمان . فانا آلهة وسيفه وحاميه . ويل للعاصين ! ويل للجبنة ! ويل للجاحدين !

وقد علق المسترلويد جورج الوزير الانكليزي على هذه الكلمات بقوله :

لم يسمع الناس شيئاً في هذا المعنى من زمن بعيد . ولا شك ان الاختلال العقلي يستدعي الاسف والحزن في جميع الاحوال ولكنه يحجر عواقب وخيمة اذا أصيب به رئيس احدى الدول

اما نحن فلا نسعي ما أصيب به الامبراطور جنوناً بل نسميه احتداد الشعور

الروحاني

ولكي ندرك منشأ الحرب في ذهن الامبراطور نلاحظ انه كان كثير التهديد والوعيد بالرغم من ميله السلمي ، وطالما ردد في خطبه عبارات « السيف المشحوذ ، والبارود الجاف » الخ ، وانه ذهب بنفسه الى مرا كش والاستانة وفلسطين باسماً

حمايته على الجميع ، وكان حينها ذهب بخطب ويهدد ويتوعد . والجملة انه أراد ان يخشاه الجميع واعتقد ان جيشه العظيم يتيح له ان يسيطر بالفعل على اوروبا من غير ان يضطر الى سفك الدماء .

ولا يسهل التأمل الا الاعتراف بان خطته هذه نجحت زمناً طويلاً اذ انالته معظم ما طلب . مثال ذلك تأخر فرنسا في مراكش ، وعلى الاخص سكوت روسيا عند استيلاء النمسا على البوسنة والهرسك بالرغم من الاتفاقات فلما اضطرت الحالة السياسية قبيل الحرب لم يخطر بباله ان تلك الطريقة التي ما برحت تنيله مرغوبه منذ تولى العرش تفشل في هذه المرة ولا سيما مع اعتقاده بضعف فرنسا وروسيا وقعودهما عن الحرب ، فضلاً عما يشغل انكلترا اذ ذاك من المشكلة الارلندية

فلا غرابة اذاً ان يرفض انعقاد مؤتمر لا ينتظر منه الا القرارات الفاسدة التي لا ترضي احداً ، فضلاً عن انه يمنع النمسا من التأثير لولي عهداها . فما هي اذاً تلك البواعث التي دفعته الى الحرب وهو كما قلنا يرغب في السلم . ويعلم ان الحرب ليست من مصلحته ؟

يظهر لي انه وافق على الحرب في الساعة الاخيرة لاسباب عسكرية سائيتها فيما يلي . ولكي نفهم تلك الاسباب ينبغي ان نعلم ما لميعاد حشد الجيوش والسبق في هذا المضمار من الخطورة العظيمة . فان هذه المسابقة . في نظري كانت الدافع المشؤوم الى طريق الخراب

وقد ورد ذكر هذا العامل العظيم في التلغرافات الرسمية الآتية . وهي تدل على ان الدول باتت في آخر ساعة كأنها في سباق يفوز فيه من يتقدم مناظره ويضم وقته وقد كانت النمسا البادئة في هذا السباق وتبعها روسيا في الحال ! كتب سفير فرنسا في روسيا بتاريخ ٣١ يوليو :

نظراً لحشد العام في النمسا وللتدابير الحربية السرية التي اتخذتها المانيا منذ ستة أيام قد صدر الامر بحشد الجيوش الروسية . فانه لا يسهل ان تدع تلك الدول تسبقها

وكتب سفير انكلترا في برلين بتاريخ ٣١ يوليو أثر محادثة مع المستشار ما يأتي :
أخبرني المستشار ان حشد الجيوش الروسية ضد النمسا قد امهبط مساعيه لدى حكومة فينا

في سبيل التساهل والسلام . وزاد على ذلك انه لا يستطيع ان يترك بلاده من غير استعداد في حين ان الدول الاخرى تستخدم ذلك الوقت لتأهباتها . وقال انه اذا كانت روسيا تتخذ التدابير ضد ألمانيا - بناء على ملجأه من الاستسلامات - فانه لا يسمه السكوت . . .

اما روسيا فقد تنصلت من تبعة الاسراع في حشد جيوشها . كتب سفير انكلترا في باريس بهذا الشأن في اول اغسطس :

وقد بينا لجناحه (اي لسفير ألمانيا) ان الامر بحشد الجنود الروسية لم يصل الا بعد صدور امر النمسا بالحشد العام وان روسيا مستعدة لتسريح جيوشها حالما تفعل الدول الاخرى

وقد بلغ خوف ألمانيا من حشد روسيا جنودها مبلغاً عظيماً حتى انها ارسلت اليها انذاراً نهائياً (في ٣١ يوليو) لم يكن يحتمل الا الرفض اذ طلبت اليها ان تسرح جيوشها في اثنتي عشر ساعة

ولكن قبل اشتداد الحال الى هذه الدرجة كان امبراطور ألمانيا قد بذل مساعيه شخصياً لدى قيصر روسيا لجمله على وقف الحشد مما دل على تخوفه من نتائج ذلك الحشد ورغبته في حفظ السلم . واليك فقرات من تلك المكاتبة بتاريخ ٢٨ يولييه :

علمت بمزيد القلق ما كان لتقدم النمسا نحو بلاد السرب من التأثير في بلادك . ان الحركة العدائية التي ما برحت تنتشر في السرب منذ سنوات قد ادت الى الجناية القطعية التي ذهب ولي العهد فرنسوا فرديناند ضحية لها . ولم يغرب عن بالي الصعوبة التي تعترضك انت وحكومتك دون مقاومة الرأي العام . وسأبذل جهدي وتقوذي لدى النمسا لجمها على الاتفاق مع روسيا باخلاص وانصاف اكراماً لذكرى الصداقة القلبية التي تربطنا وثيقاً منذ زمن بعيد . واني معتمد على مساعدتك لتغلب على جميع الصعوبات التي يحتمل ان تنشأ

فأجاب القيصر شاكرًا . وفي ٢٩ يوليو ارسل امبراطور ألمانيا تلغرافاً آخر قال فيه :

ان اتخاذ روسيا التدابير العسكرية يعد في عين النمسا تهديداً قد يؤدي الى تعجيل المصيدة التي نسعى معاً في تجنبها فضلاً عن كونه يجعل توسطي مستحيلاً

وفي ٣٠ يوليو الساعة الاولى صباحاً ارسل الامبراطور كتاباً آخر قال فيه :

قد كلف سفيرى ان ينبه حكومتك الى الاخطار والنتائج الوخيمة التي تنشأ عن حشد الجيوش الروسية . وكنت قد قلت لك ذلك في تلغرافي الاخير . ان النمسا لم تحشد جيوشها الا ضد السرب فضلاً عن كونها لم تحشد الا قسماً من جيوشها . واذا كانت روسيا على ما جاء في رسالتك وفي بلاغ حكومتك تحشد جيوشها ضد النمسا فان التوسط الذي كلفته مودة والذي قبلته اجابة اطلبك يتعذر ان لم اقل يستحيل . ان على اكتافك اليوم عبئاً ثقيلاً اذ ان السلم او الحرب موقوفان على قرارك

فاجاب القيصر في ٣٠ يوليو في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر :

ان التدابير العسكرية التي تتخذ الآن قد اتخذناها منذ خمسة ايام اثر تأهبات النمسا بقصد الدفاع فقط . واني اؤمل من صميم قوادي الا تؤثر هذه التدابير في وساطتك التي اقدرها حق قدرها .

وفي ٣١ يوليو الساعة الثانية بعد الظهر ارسل الامبراطور كتابه الاخير وقد جاء فيه :

لقد سميت في التوفيق بين حكومتك والحكومة النموية المجرية . ولكني بينما كنت اسمي ذلك المسمى اذا بجيوشك تحشد ضد حليفتي . فاصبحت وساطتي من جراء ذلك غير مجدية كما اخبرتك من قبل . وبالرغم من ذلك واصلت عملي

وقد وصلتني الآن اخبار جديرة بالثقة تنبئني بالاستعدادات الجدية التي تجري على حدودي الشرقية ولذا تراني مضطراً حفظاً لسلامة بلادي ان اتخذ نفس التدابير الدفاعية . لقد ذهبت الى اقصى ما في وسمي رغبة في توطيد السلم فلست اذاً بالذي يتحمل مسؤولية الرزء العظيم الذي يهدد العالم المتدين اجمع ولا يزال في استطاعتك الآن ان تقف تلك المصيبة ما دامت سلامة روسيا وشرها غير مهددين الآن وفي استطاعتها انتظار نتيجة وساطتي

وقد بقي هذا التلغراف بلا رد . ففي اليوم ذاته ارسلت المانيا الى روسيا تطلب تسريح جيوشها في ظرف ١٢ ساعة ، وكأنها بذلك قد شهرت الحرب

ولم تكن حركات امبراطور المانيا عقب اعلان الحرب حركات من نجاح في مكيدة دبرها بل انه كان بلا شك متألماً من وقوع تلك الصاعقة . ويكفي برهاناً على ذلك المعاملة السيئة التي عومل بها سفير فرنسا في المانيا عند خروجه منها كما ذكرنا سابقاً ، مما يدل على ان غضب الامبراطور كان شديداً عند ما رأى نفسه مورطاً في حرب لم يشتهيها

ولكن ذلك لا يكفي لتعليل الانذار الذي ارسل الى روسيا اذ لم يكن ثمة ضرورة تقضي به . فما الذي حمل الامبراطور في تلك الساعة على اعلان الحرب ؟ انه لم يلجأ الى هذه الخطوة الا خوفاً من ضياع وقت ثمين حتى لا تسبقه دولة اخرى . وهذا الزعم لا يصح الا على فرض ان لسرعة الحشد خطورة عظيمة للجيش الالماني ، وهو الحق الذي لا مرية فيه

فان اركان حرب الجيش الالماني كان يعلم يقيناً ان حشد الجيش الفرنسي يستدعي عشرين يوماً وان حشد الجيش الروسي يستغرق نحو الشهرين . فرأى انه يمكنه سحق

فرنسا أولاً ثم يلتفت الى روسيا فيصعقها قبل ان تتم تأهبها وذلك بفضل استعداد الجيش الالماني ووفرة الذخيرة ووسائل النقل لديه . فيتبين من ذلك ان اطالة المفاوضات كانت تتيح لروسيا التأهب فتضطر المانيا الى محاربة العدوين في آن واحد . وهو ما ارادت ملافته بارسالها ذلك الانذار فجأة .

٤ — العوامل المختلفة التي يحتمل ان تكون قد اثرت في ارادة امبراطور المانيا اللاوجدانية

بجانب تلك المفترضات الحرية التي قدمناها لا يستبعد ان تكون هناك عوامل خفية اثرت في آراء الامبراطور اللاوجدانية وحملته على استلال سيفه . فمن ذلك ان حظوة الامبراطور الميال الى السلم كانت تتناقص في اعين الجمهور بينما حظوة ولي عهده النزاع الى الحرب كانت تتزايد تدريجاً . زد على ذلك تحريض اصحاب الدعوة الجرمانية ولاسيما ان جميع القرائن كانت تدل على ان ذلك الوقت كان ملائماً لتحقيق فكرة السيطرة على العالم ، وقد لا يتسنى ذلك بعد بضع سنوات اذ تكون روسيا قد اكملت خطوطها الحديدية واستعدت للطوارئ

فقد كان لهذه العوامل على الاجمال اثر في توجيه ارادة الامبراطور

الفصل السابع

النتيجة . من اراد الحرب ؟

١ — خلاصة الحوادث التي ادت الى الحرب

يجدر بي بعد التفاصيل والاستشهادات السابقة ان اجل الحوادث المباشرة التي ادت الى الحرب فاقول :

« عازمت النمسا على الانتقام لمقتل ولي العهد وارادت ان تستغنى تلك الفرصة لترفع مقامها في البلقان بعد ما اتتاه من الضعة اثر الحربين البلقانيتين . فارسلت الى السرب انذاراً نهائياً لا تستطيع قبوله دولة مستقلة ، وانما قصدت النمسا ان تتذرع برفضه المنتظر لشهر الحرب

ووفقاً للظاهر لم يكن قط في المسألة شيء من المخاطرة : فمن جهة كانت النمسا على ثقة من مساعدة المانيا لها ، ومن جهة أخرى كانت تعتقد بناء على تقارير السفراء — وهذه نقطة خطيرة جداً — ان روسيا وبالا جدراً فرنسا تلزمان الحياد بسبب تحزبهما الداخلي وضعفهما العسكري . وكما ان روسيا لم تبد ساكنة اثر انضمام البوسنة والمهرسك فقد كانت النمسا تتوقع الجود نفسه في هذه المرة اذ لم يجد ما يحملها على تغيير خطتها . اما انكاثراً فقد كانت على ابواب الحرب الداخلية في ايرلندا فكيف تتعرض لمسئلة ليس لها مساس بمصالحها ؟

زد على ذلك ان حرباً ضد السرب لا بد انها تنتهي بضمها الى النمسا مما يرفع مقامها عند السلاف ، وقد كانت في حاجة الى مثل هذا الفوز بعد هبوط نفوذها اما المانيا فلم تكن ترجي ربحاً مادياً من المسئلة السربية وانما توقعت ربحاً معنوياً اذ تبين لاوروبا سلطتها المتزايدة وقوتها العظيمة . وقد ظنت ان ذلك لا يكلفها الا السعي وراء منع اوروبا ان تتعرض للخلاف الذي بين النمسا والسرب ، وقد بذلت جهدها في هذا السبيل

ولكن فات رجال السياسة ان يدخلوا في ذاك الحساب العوامل العاطفية والروحانية والجماعية التي تؤثر في كل حادث تاريخي ، ولكل منها قياس خاص يختلف عن القياس المنطقي المعروف . فات رجال السياسة ان روسيا كانت في حاجة شديدة الى اعلاء شأنها ولا سيما بعد ان ذلت للنمسا في احوال شبيهة بتلك الاحوال ان قصر نظر النمسا الذي جعلها تعتمد على حياد روسيا كان بلا ريب سبب الحرب الحقيقي

فهذا الخطأ — أي الاعتقاد بان روسيا وسائر الدول لن تعرض في الخلاف — هو بدء سلسلة الحوادث التي ادت الى المأساة الحاضرة . فان المانيا والنمسا استعملتا الوقاحة والغطرسة لتخويف روسيا ، ولما كانت هذه ترغب في تجنب الحرب اقترحت تسوية المشكل . فما كان هذا المسعى الا ليزيد اعدائها اعتقاداً بان لا خوف من نشوب حرب عامة ، فازدادت لهجتهم شدة وتصلباً وأخيراً اعتقدت النمسا أن في وسعها شهر الحرب على السرب دون أن تخشى على نفسها سوءاً . والحقيقة انها كانت قصيرة النظر في اتخاذ تلك الخطوة لانها لم تنب لها منفسحاً للرجوع عن الحرب في حال تعرض الدول الاوربية . فلما رأت المانيا والنمسا ان تصلبهما سيجر حرباً اوربية اظهرتا شيئاً من التسامح وبذلتا كل ما في وسعهما لمنع البلاء . ولكن الامر كان مقضياً وعبثاً حاول امبراطور المانيا ارسال التلغرافات الى قيصر روسيا . ان الرجال الذين ما برحوا الى تلك الساعة يسبرون الحوادث اصبحوا اذ ذاك مسيرين طوعاً لها

وبعد ان كان دافع الدول اولاً الرغبة في حفظ مقامها واعلاء شأنها تحول في الساعة الاخيرة الى شعور آخر استولى عليها جميعاً وهو احتراز كل دولة من جارتها والسعي في سبقها . وكان من نتيجة هذا الشعور انه عجل في حشد الجيوش حتى لا يؤخذ فريق على غرة — ولا يخفى ما اسرعة الحشد من الشأن في أول الحروب

وقد كانت النمسا هي البادئة بالحشد ، فانها حشدت كل جيوشها في حين أن جيشها العامل وحده كان كافياً لمحاربة السرب . فلم يسع روسيا الا الاعتقاد بان هذا الحشد موجه اليها

فحشدت هي جيشها حتى لا تؤخذ على غرة ايضاً . وعند ذلك دخلت المانيا

في الميدان ولكي لا تسبقها روسيا انذرتها بصيغة الامر ان تسرح جيوشها للحال فلم يستطع القيصر الخضوع لمثل هذه اللهجة فنزات الصاعقة

واضطرت فرنسا أن توازر حليفها رغم رغبته الشديدة في السلم . اما انكلترا ففها لم تشأ في البدء دخول الميدان واسكنها اجبرت على ذلك اثر خطأ ارتكبه الالمان يدل على قصر نظرهم في المسائل النفسية — نعي انتها كهم حرمة البلجيك . فهاج عليهم الرأي العام في انكلترا . وقد كان في وسع الجيش الالماني الاكتفاء باختراق لكسمبرج بل ان هذه الخطة كانت تكسبه وقتاً ثميناً ضاع في ذلك الحصون البلجيكية

٢ — كيف نجيب على هذا السؤال : من ذا الذي اراد الحرب ؟

لا نكون مغالين اذا أجبنأ بأنه لم يشأها أحد

نعم لم يشأها أحد ، ولكن امبراطور المانيا هو الذي أعلنها فهو المسؤول عنها في نظر التاريخ . وانما يعنيننا الآن ان نبين من الوجهة النفسانية كيف لم يشأها

كنت اعتقد قبل درس المستندات الرسمية ان المانيا انما تذرعت بحجة تافهة لشهر حرب تمنأها مجارياً في ذلك الرأي المشهور في فرنسا بين العامة والخاصة

ولكنني رغم قبول هذا الرأي كانت تعترضني بعض الافكار : نعم ان الحرب بين المانيا وانكلترا كانت امراً منتظراً عاجلاً أو آجلاً ولكن ما مصلحة المانيا في محاربة فرنسا وروسيا وهما أفضل عملائها وزبائنها ، وقد سنحت لها فرص افضل من تلك الفرصة ولا سيما اثر انكسار روسيا في الحرب اليابانية . فبعد ان أنعمت النظر في الامر توصلت الى هذه النتيجة وهي ان المانيا — وان تكن قد أعدت الازدهان للحرب باستعدادها العظيم المتواصل — الا انها لم تشأ الحرب في الوقت الذي نشبت فيه

وبقطع النظر عن الاستشهادات التي ذكرناها قبل فان هناك ادلة كثيرة تؤيد هذا الرأي

فمن ذلك تلغرافات امبراطور المانيا للقيصر وفيها يطلب وقف تأهبات روسيا لئلا يضطر هو الى مقابلتها بمثلها حتى لا يؤخذ على حين غرة

ولو كان امبراطور المانيا عازماً على الحرب منذ البدء لما لجأ الى حيلة كهذه . فلا شك انه أخلص القول في رسائله . وبما ان الاولى من تلك الرسائل قد كتبت قبل اعلان الحرب بثلاثة ايام فيلوح لي انه لم يكن مقراً على الحرب اذ ذاك وانه كان يسعى فعلاً لقمعها

ويؤيد رأينا أيضاً ما ظهر على سفير المانيا في روسيا من اشتداد الغضب والخوف لما رأى تفاقم الخطر على ما جاء في رسالة سفير انكلترا التي نشرناها سابقاً ، فانه لا يعقل ان تصدر هذه الحركات من سفير جاءته التعليمات بالحض على الحرب ومن هذا القبيل ايضاً ما بدا على وزير الخارجية الالمانية من الاستهجان في حديث دار بينه وبين سفير انكلترا . فكيف نعلل اتفاق الوزير والسفير فيما بدا عليهما من القلق والارتباك ، اذ لا يحتمل ان يكونا متفقين في تمثيل هذا الدور ، فضلاً عن انه لم يكن ثمة داع للاحتيال

زد على ذلك انه في ٢٦ يوليو كان الاسطول الالمانى — وفقاً لما ذكره اميرال فرنسي في احدى المجلات — بعيداً عن موائله وانه ما كان ليتمكن من تجديد مؤوئته ووقوده لو اعترضه الاسطول الانكليزي

قد تبين لنا مما تقدم ان امبراطور المانيا لم يكن راغباً في الحرب ولكن بقي الحادث الراهن انه هو الذي اعلنها . فلماذا فعل ذلك ؟ قد شرحت في الفصل السابق كيف ان حلقات التحرز والخوف ادت الى اعلان الحرب ولا سيما ان خطة اركان الحرب الالمانية كانت موقوفة على السرعة في العمل . فبالرغم من ان الامبراطور والقيصر كليهما لم يكونا راغبين في الحرب فأت احترازهما المتبادل جرهما اليها

فيجوز لنا اذا ان نجيب على سؤال « من اراد الحرب » بقولنا « لم يردها احد » ولكن اذا سئلنا « ما هي الاسباب التي باشرت الحرب » وجب علينا ان نجيب « انما هي تخوف الامبراطرة الثلاثة واحترازهم المتبادل » وكان اشد هم تحرزاً وسوء ظن امبراطور المانيا . ولذا كان هو الذي اعلن الحرب وعليه تقع تبعاتها

وهو المسؤول ايضاً عما اتاه جنوده من التخريب والقتل في لوفان وريمس وايبرس وغيرها . فما كان ليحسر قائد من قواده على اباحة تلك الاعمال الفظيعة من غير اذنه — تلك هي وصمة العار التي تلتصق به الى الابد !

ان التحليل النفساني المتقدم مفيد من الوجهة العلمية اذ يبين لنا كيف تنشأ الدوافع التي تحرك الناس ولكنه ضئيل الفائدة في تحليل منشأ الحرب — فان الاسباب البعيدة ما برحت تتراكم شيئاً فشيئاً حتى أصبح انفجارها منتظراً بين الساعة والاخرى وليس من الجوهري ان نعرف مصدر الشرارة التي سببت ذلك الانفجار

الفصل الثامن

الآراء المتداولة في المانيا وغيرها عن اسباب الحرب

١ — الاساس النفساني للآراء المتعاقبة بالحرب

أخذ العجب من معظم المحايدين مأخذاً عظيماً لما سمعوا الآراء الغربية التي أبداها بعض الكتاب الالمان في سبيل نشوء الحرب . وسأذكر في هذا الفصل أخطر تلك الآراء ولا سيما آراء بعض العلماء المعروفين ولا بد لي هنا من تكرار ما قلته في كتيبي السابقة ولا سيما كتاب « العقائد والآراء » من انه ليس للقياس العقلي سلطة ما على العقائد التي مصدرها العواطف أو الدين . وقد جاءت الحرب الحاضرة برهاناً ساطعاً على المبادئ التي وضعها في ذلك الكتاب

ان الآراء المنتشرة في المانيا عن منشأ الحرب هي أفضل برهان على ان العقائد التي تنشأ من طريق الاستهواء وتنتشر بالعدوى العقلية لا تقع قط تحت نفوذ العقل وأحكامه . فارقى العقول واعلمها لا تنجو من قصر النظر متى كانت تحت سلطان العقيدة

ثم ان هذه الآراء قد أبديت بالشدة والاندفاع اللذين يرافقان انتشار الايمان الجديد . ولست اول من لفت نظره ذلك التطرف المستهجن صدوره من علماء وفلاسفة مشهورين ، فقد ذكره سواي غير واحد . ومن أغرب ما كتبه علماء الالمان مقالة للعالم الجليل الاستاذ وندت المعروف في جميع الاقطار المتمدينة فقد جاء فيها :

ان الحرب الحقيقية - الحرب العادلة المقدسة - هي الحرب التي تثيرها المانيا على اعدائها . اما الحرب التي يقوم بها الفرنسيون والروس والانكليز قائمها شيء آخر . لا . ليست حرب اعدائنا حرباً حقيقية لان للحرب حقوتاً وقوانين وانما هي اعتداء عصاة لصوص لا تعرف وسيلة لفرضها الا القتل والقرصنة

ومن ذلك أيضاً قول الاستاذ اوكن الفيلسوف المعروف ان المانيا مكلفة

اصلاح الانسانية قال « اننا لا نحارب لانفسنا فقط وانما نحارب لمصلحة الانسانية جمعاء »

٢ — آراء السياسيين الالمان

ما برح سياسيو الالمان منذ اعلان الحرب يبدلون جهدهم حتى يثبتوا ان المانيا لم تسبب الحرب وان تكن قد اضطرت الى اعلانها

وقد نشرنا سابقاً فقرات من خطب المستشار الالماني في هذا الشأن واليك فقره من الخطاب الذي القاه في الريشتاغ بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٩١٤ :

ان وزارة لندن هي التي شاءت حدوث هذه الحرب الفظيعة ظناً منها انها تتيح لها بمونة دول الاتفاق الودي ان تقهر اكبر منافس لها في اسواق العالم — فانكلترا وروسيا هما اللذان يحملان امام الله والناس تبعة هذه العاصفة التي عمت اوربا والعالم اجمع

ولا شك ان المستشار متمتع باعتقاده ان انكلترا رغبت في الحرب لتهرب منافستها . وقد بينا سابقاً ان انكلترا لم ترد الحرب وانما دخلتها مرغمة بعد تردد طويل . بل ان المستشار الالماني السابق البرنس فون بولو قد بين مقاصد انكلترا السلمية في كتابه عن السياسة الالمانية . فقد جاء فيه :

كانت تستطيع انكلترا في السنوات العشر التي تلت القانون القاضي ببناء اسطولنا ان تمنعنا من اتمام هذا المشروع وتقف تقدمنا البحري . ولكن نفور انكلترا من الحرب اتاح لنا ان نقوي سلطتنا على البحار

وقد كرر المستشار الحالي غير مرة رأيه في هذا الشأن وشوه بعض المستندات والاوراق للوصول الى هذا الغرض . فمن ذلك تشويهه التقارير التي وجدت في البلجيك ومدارها تبادل آراء الملحقين العسكريين الانكليز والبلجيكيين على التدابير التي يمكن اتخاذها في حالة التعدي على الاراضي البلجيكية ، فقد محا منها العبارة التي تبين الغرض من تلك التقارير — وهو حماية حرمة البلجيك ليس الا — واتهم انكلترا والبلجيك بالتآمر على المانيا

ثم ان غارت المانيا الشمالية ابدلت كلمة محاثة الواردة في تلك التقارير بكلمة اتفاق كما اثبتت حكومة البلجيك تبريراً لنفسها

٣ — آراء الجرائد الكبرى والاساندة الالمان

ولئن كانت تهم سياسيي المانيا كاذبة فإن اقوالهم قريبة الى المعقول . وبعكس ذلك

ما أبداه اساتذتها فقد ظهر من كتاباتهم ان مداركهم أحط من مدارك السياسيين . فكان أولئك الاختصاصيين خرجوا فجأة من معاملهم وغرف بحثهم وتنقيهم فوجدوا انفسهم ازاء مسائل جديدة لم يتعودوا الخوض فيها فجاروا الرأي العام بل سبقوة واطهروا من ضعف القياس العقلي وقصر النظر المعنوي ما يستغرب صدور من علماء كانوا اصحاب مقام وشهرة في جميع الدول

وقد سرد أحد الكتاب أمثلة من آرائهم واليك بعض ما قاله :

اتهمت الصحف الالمانية والاساتذة الالمان أولا سفير روسيا في باريس بتدبير الحرب ثم وجهت تهمهم الى الملك ادوارد السابع والى السر ادوارد غراي والمستر ونستون شرشل والى الفرندوق نقولا ... حتى المسيو بوانسكاره لم يخلص منها ...

ونسب الاستاذ برنتانو (من جامعة مونيخ) منشأ الحرب الى فرنسا وطلبها الثأر من المانيا قال :

لم يرتض الرعيون الفرنسيون باضحلال فكرة الثأر من المانيا بين الشعب الفرنسي ... فاملوا رجوع الملكية وظنوا ان الحرب هي خير وسيلة لتبليهم غرضهم

اما الاستاذ ادوارد ماير (من جامعة براين) فتعليله أقرب الى الواقع وكل تهمته موجهة الى الانكاييز . واليك بعض ما قاله في هذا الشأن :

ان الجميع في المانيا من ارق الدوائر الى أبسط العمال يعلمون جيداً ان انكلترا هي عدونا اللدود وانها هي التي دفعتنا الى هذه الحرب وجرت معها في هذا السبيل الدول الاوربية الاخرى بقصد اذلالنا وافلاسنا ... فلا شك ان انكلترا هي التي شاعت الحرب بعد اعمال العسكرية ... وقد كان في ود اعدائنا تطويل مدة المفاوضات حتى يربحوا الوقت ، وهو ما رمت اليه اقتراحات السر ادورد غراي في سبيل عقد مؤتمر اوربي ...

... لم يخطر قط ببال المانيا (ونقول ذلك بضمير مرتاح) ان تتبع سياسة اعتداء نحو الدول الاخرى خلافاً للقوانين الدولية

حتى ولا نحو البلجيك !

ان اتهم الالمان للانكاييز لمن اغرب مظاهر العقل الالمانى وهو مشترك بين جميع الطبقات . واليك ما قاله جورنال جنيف بسويسرا (٢٦ مارس سنة ١٩١٥) في هذا الشأن :

ان اصرار الصحف الالمانية على القاء تبعة الحرب على انكلترا يشير الى انها تعتمد على

عجز قرائها عن التفكير والحكم والتذكر . فانه لم يكن على الارض حكومة مiale الى السلم
كالحكومة الانكليزية

٤ - آراء العسكريين الالمان

يشارك العسكريون على الاجمال مع غيرهم من الالمان بتهام انكلترا ولكن بعضهم
ينسبون الحرب الى سرعة حشد الجيوش الاوربية
واليك ما جاء في محادثة للجنرال فلكنهيمن رئيس اركان الحرب الالماني في
هذا المعنى :

ليست هذه الحرب اعتداء منا فانها لم تنشأ عن رغائب حزب عسكري . وانما هي حرب
دفاعية ادت اليها التدابير الحربية التي اتخذتها روسيا . فلم تستطع الا ان تقابلها بالمثل . وقد بذل
امبراطورنا وسفيرنا في روسيا كل ما في وسعهما للملاقاتها

اما الجنرال فون مولتكي الرئيس السابق لاركان الحرب فقد نسبها الى انكلترا
واليك ما جاء في محادثة له :

... لم أشك ساعة واحدة في ان انكلترا تستغنى اول فرصة تسنح لمحاربتنا لان ذلك من
مصلحة سياستها وقد كانت تستعد منذ زمن بعيد وليست المسئلة البلجيكية الا عذراً تمسكت به

٥ - رأي الجمهور في ألمانيا

ان آراء السواد الاعظم من الالمان ليست الا صورة مطابقة لآراء حكومتها وعلمائها
وقد اشتهر الالماني باحترامه لأصحاب السلطة والنفوذ وخضوعه لهم . فلذلك تراه لا يجراً
ان تكون له آراء شخصية مخالفة لآرائهم

ولو اتيح لك ان تستطلع آراء السبعين مليوناً من الالمان لما وجدت اختلافاً يذكر
بين آرائهم ولكان جواب الجميع عن اصل الحرب انها مؤامرة دبرتها انكلترا
لسحق ألمانيا

ومتى علمنا انتشار هذا الاعتقاد ادركنا حماسة الشعب الالماني عند اعلان الحرب
وفي اثنائها ، ولا سيما ان الجرائد كانت تنشر خبر الانتصار تلو الانتصار حتى انها
لم تشر الى معركة المارن ، ولعل الالمان يعتقدون اليوم ان رجوع الالمان عن باريس
انما تم لاعتبارات حربية . واليك بعض ما جاء في رسالة لسويسري زار ألمانيا بعد
اعلان الحرب نشرتها جريدة التان قال :

ان الشعب الالماني بأسره متأكد ان النصر لالمانيا وانه يستحيل كسر جيوشها والجميع مقتنعون بقداصة الغرض الذي تسعى اليه المانيا . ان النظام العسكري العام قد جعل للشعب الالماني روحاً جماعية لا تتأثر الا بما يوحى به من المنطقة التي فوق البشرية وهي ما يؤمها الامبراطور ووزرائه . وانك ان تستطيع اقناعه بوسيلة من الوسائل فالحق معه وحده وجميع الامم كذابة افاقة فترى فيما تقدم وجه الشبه بين اعتقاد الالماني لكل ما يوحى اليه بلا اعتراض وایمان المؤمن الحار فكلاهما من منبع واحد

وقد كان لبعض الشركات التلغرافية تأثير كبير في الرأي العام ولا سيما شركة ولف الشهيرة . وسرعان ما كان يصدق الشعب اغرب اختلاقاتها . ولهذا الشركة الفضل في اخبار المانيا بان الفتيات البلجيكيات كن يفقأن عيون الجنود الالمان وان القسوس كانوا يقضون على الجرحى

ولم تقتصر اخبار هذه الشركة على البلاد الالمانية بل انها كانت تنشر اخبارها في الخارج حتى انها نشرت مرة في اميركا الجنوبية خبر أسر الملك جورج الخامس اثر هجوم قام به اسطول من بلونات تسيلين على لندن !

٦ - آراء المحايدین

ان الآراء في الدول المحايدة متباينة واليك اهم الاسباب التي ذكرت عن منشأ الحرب : تفوذ الحزب العسكري في المانيا ، مؤامرة الاتفاق الثلاثي ، جنون السكرونبيرز ، ثار فرنسا ، الجامعة السلافية ، طمع النمسا . . .

وبعض الكتاب المستقلين لم يروا من الحكمة القاء التبعة على فريق من المتحاربين . ومن هؤلاء الكتاب المؤرخ فريرو الاسباني

وعلى الاجمال لم تكن الآراء التي ابدت في الحرب مبنية على درس الجوادث وانما نشأت عن الاميال والعقائد الغريزية

الباب الخامس

العوامل النفسانية في المعارك

الفصل الاول

انقلاب الطرق الحربية

١ — العناصر الجديدة في الحروب الحديثة

ليس غرضنا في هذا المقام ان ندرس بالتفصيل طرق الحرب الحديثة وانما اضطررنا الى ذكر خلاصتها ايضاحاً لاثراً القوى النفسية فيها سوف تعد هذه الحرب عاملاً قوياً من عوامل النشوء الفردي والسياسي والاجتماعي فقد غيرت الفنون الحربية والاسلحة والآراء والعادات الخ . ولم يكن تأثير الثورة الفرنسية باشد من تأثيرها

وقبل ان ندرس الانقلابات الحربية يجدر بنا ان نلقي نظرة اجمالية على طرق الحرب الحاضرة : على وجه الارض وتحت ، وعلى سطح البحر وتحت ، وفي الهواء اما الحروب البرية فاول انقلاب تم فيها هو استبدال الجيوش القديمة التي لم يكن يتجاوز عددها ١٠٠ ٠٠٠ جندي بجيوش تعد بالملايين ، وانتشار أولئك المحاربين على خطوط طويلة تبلغ مئات الكيلومترات طولاً وقد كانوا فيما مضى لا يتعدون ميداناً محدوداً

على طول ذلك الخط يتقاتل الرجال مختبئين في الخنادق ويقتصر عمل القائد العام على ارسال أوامر تليفونية لتعزيز بعض الجهات أو للشروع في هجوم أو نحو ذلك وقد استبدلت المدافع القديمة التي كان مرمهاها لا يزيد على مئات من الامتار

بدافع عظيمة تسدد الرمي الى عشرة كيلومترات وعشرين كيلومتراً حتى ان اعظم الحصون مناعة لم تستطع مقاومتها الا بضعة ايام
اما في البحر فلم تكن الانقلابات بأقل شأناً منها في البر . وحسبك برهاناً على ذلك الغواصات التي تفرق المدرعات العظيمة في دقائق معدودة حتى اضطرت المدرعات ان تلتجئ الى الاماكن الامينة

وماذا عسانا ان نقول عن الحرب في الهواء ؟ لم تحدث الطائرات اضراراً عظيمة الى الآن . ولكن سوف يكون لها شأن عظيم متى تكونت الاساطيل الهوائية من ألوف الطائرات وهجمت دفعة واحدة على بلاد العدو ومدنه

لقد تلاشى اليوم طراز المعارك القديمة — معارك هانيبال ويوليوس قيصر ونابوليون — اذ كانت المعركة تجري بإدارة القائد الذي كان يصدر أوامره وفقاً لما تقتضيه الحال . وقد كان المصور في وقت نابوليون يستطيع أن يضمّن صورته ميدان المعركة كله . أما اليوم فان السائح في ساحات القتال لا يرى قط شيئاً لا بشراً ولا خيلاً ولا مدافع لأنها جميعها مخبئة تحت سطح الارض . ولولا القذائف التي تنفجر بين حين وآخر لظن نفسه في صحراء

غير انه اذا كان ثاقب النظر لا يلبث ان يلحظ كل آن رجالاً يزحفون على بطونهم ببطء وسكون فلا يرتفعون عن الارض الا ليذبوا في احد الخنادق

واذا بحث ذلك المشاهد عن قائد اولئك الجنود وجده في مكان منزو يرسل منه اوامره الى فرقه وفقاً للإشارات التلغرافية أو التلفونية الواردة اليه من القيادة العليا . وجل هم قاصر على نقل الجنود الى المكان الذي يجب مهاجمته أو الدفاع عنه

اما القائد العام فقد يضطر طاله الى السفر مسافة بعيدة عن خط القتال . ونحن نعلم اليوم انه في ابان معركة المارن كان القائد العام للجيش الفرنسية واركان حربه على بعد ٢٠٠ كيلومتر من خط القتال

ثم ان المعارك الحاسمة التي عرفها أسلافنا قد استبدلت بمئات المعارك الصغيرة المتتالية ، وقد اصبح التقدم مسافة قصيرة يستدعي اليوم التضحية برجال كثيرين . ولم نسمع في اثناء هذه الحرب عن حركات كبيرة بعيدة المجال الا في جهات بولونيا وفضلاً عن الفروق المتقدمة فقد جاءت هذه الحرب بامور جديدة لم تكن في

الحسبان ، فمن ذلك ان القواد الفرنسيين ورجال الفنون الحربية كانوا يعتقدون بان هجوم المشاة يجب ان يتم جماعات متباعدة حتى لا تفتك بهم المدافع فتكأولكنهم ما لبثوا ان شهدوا الالمان في بدء هذه الحرب يهجمون صفوفاً كثيفة كالسيل الجارف فكان لهذا الانقضاض تأثير معنوي عظيم على جنود لم تعده من قبل . والى هذا التأثير يعزى فوز الالمان في شرلوا عنداول الحرب . ولكن الحلفاء لما تدبروا هذه الطريقة اصبحوا لا يعبأون بها بل أصبحت تلك الصفوف الكثيفة هدفاً يصوبون اليه زيرانهم فيفتك في الالمان ايما فتك

واليك ما كتبه الجنرال ملتير أحد قواد فرنسا الذين خبروا بأنفسهم الحرب الحاضرة عن وصف المعارك الاولى :

ما يرح رجال فرنسا - رغم استيقاظهم من التخدير الذي رماها فيه السلميون الحيايون - ما يرحوا يعتقدون ان هجوم الالمان لا يكون الا عن طريق الازراس وقد أظهرت المانيا في سنة ١٩١٤ نفس التفوق الذي أظهرته سنة ١٨٧٠ من حيث الخطط والتنظيم والتنفيذ

وانه لمن اليسير الآن ان نفهم سبب الدمثة العظيمة التي شعر بها جنودنا عند اول التعامهم بالعدو فقد كان الالمان يرموننا بسيل من القنابل وهم مختبئون في امكنة لم تستطع مدافعنا الوصول اليها ولا سيما ان الحطة الالمانية كانت تقضي بتوجيه العواصف النارية والحديدية على مراكزنا قبل هجوم المشاة . وقد خبرت بنفسي ما شعرنا به من الفيظ والسخط الشديدين اثناء تلك الايام المشهودة اذ لبنا نتجالد تحت وابل من الرصاص والقذائف ونحن عاجزون عن الاشتباك بعدونا

تفوق فني ، تفوق عددي . تفوق صناعي — تلك هي الميزات التي امتاز بها الهجوم الالمانى في سنة ١٨٧٠ و سنة ١٩١٤

ولقد حسب الالمان حساب كل شيء — الا بعض العوامل النفسية

ولنتقدم الآن الى درس ميزات هذه الحرب الفنية بشيء من التبسط

٢ — الخطط الحربية الحديثة . امتداد خط القتال . الهجوم والدفاع

قد أصبحت الفنون الحربية اليوم أبسط منها فيما مضى وان تكن مسألة التكوين قد زادت صعوبة وتعقيداً . فان معظم الخطط الحربية الحاضرة ترجع الى شكائين : المهاجمة الخطية وحركة التطويق ومدار الفن الحربي الحاضر ليس تقل الجنود من مكان الى آخر فقط بل نقل الذخائر والمؤن اليهم . لذلك كان للسلك الحديدية مقام عظيم .

فان الجيش الذي توافرت لديه وسائل النقل يفوق عدوه تفوقاً عظيماً وان يكن أقل عدداً . ولا يخفى ان السكك الحديدية الالمانية مستوفاة الشروط متشعبة الفروع بحيث يمكن نقل الجنود من مكان الى آخر بسرعة عظيمة . وقد استفاد الجيش الالمانى من هذا التفوق وما برحت خطته هي ذاتها يكررها المرة بعد الثانية وخلصتها نقل الجنود بكثرة الى احد جناحي العدو وتطويقه . قال فريدريك الكبير من زمن بعيد « ان من اليسير لجيش عدده ٣٠.٠٠٠ ان يفوز على جيش عدده ١٠٠.٠٠٠ اذا تمكن من مهاجمته في جناحه »

وبالرغم من ذلك توقع اركان الحرب الفرنسي اكتساح الروس للاقطار الالمانية . والحقيقة انهم على فرض دخولهم ما كانوا يستطيعون التقدم فيها بعيداً لافتقارهم الى وسائل النقل اذ لاريب ان الالمان عند تقهقرهم كانوا يدمرون ويخربون كل السكك الحديدية وغير الحديدية المؤدية الى بلادهم .

ان امتداد خط القتال امتداداً عظيماً قد جعل المعارك مبهمة النتائج بعكس الخطط القديمة التي كانت ترمي الى حشد الجنود في جهة معينة وتنتهي بنتيجة حاسمة . فالمعركة الحديثة مؤلفة من عدة معارك صغيرة متتالية

وقد بدلت حرب الخنادق الآراء القديمة عن الهجوم والدفاع بآراء جديدة تقتضيها هذه الحرب

اما من الجهة النفسانية فلهجوم يفضل الدفاع لأن متخذ الخطة الدفاعية يتوقع مهاجمة عدوه من غير ان يعرف النقطة التي سيتم فيها هجومه . وما برح كبار رجال الحرب منذ نابوليون يبيتون افضلية الهجوم على الدفاع . وهذه الافضلية من عقائد اركان الحرب الالمانى . قال الجنرال برناردي :

الهجوم أفضل من الدفاع حتى ولو كان الجيش المهاجم أقل عدداً . كتب فريدريك الكبير الى لويس الخامس عشر يقول : « قد يتسرب الاختلال الى صفوف العدو ويفقد تفوقه العددي اذا ضرب ضربة محكمة » وقد نفذ فريدريك هذه الخطة في معاركه وكثيراً ما نصر بها على اعداء قاقوه عدداً

غير ان حرب الخنادق — وان لم تسلب خطة الهجوم افضليتها فقد جعلتها شديدة الخطر لكثيرة الفتك بالجيش المهاجم

ومما يستحق الذكر هنا ان معظم رؤساء الجيش الالماني شيوخ هرمين (مثل ليوبولد ملك بافاريا ، وهندنبرج ، ومكسن ، وييلو ، فقد جاوزوا السبعين ، وهسلر الذي جاوز الثمانين) وأغلبهم كانوا قبل الحرب محالين الى المعاش اما في ايام نابوليون فقد كان النصر حليف قواد شبان كسروا قواد اوربا الكبار . فمن ذلك نرى ان النصر اليوم يستدعي فضلاً عن الشجاعة والاقدام كثيراً من التفكير والحسنة وحسن التدبير

٣ — مقام الحصون والخنادق

قد تبدلت الآراء المتعلقة بالحصون تبديلاً تاماً بعد نشوب الحرب الاوربية . ولا يسعنا هنا نسبة هذا التبدل الى قصر النظر فلاختبار وحده كان قادراً على بيان وهن حصون انفرس ولياج ونامور تلك التي كان يعد الاستيلاء عليها مستحيلاً ، والانباء بثبات مدينة مفتوحة كمناسي لا يحميها الا بعض الخنادق المحفورة حولها ولا ريب ان هذه الحرب قضت على الحصون الثابتة فقد دك أعظمها في ايام قليلة ، ولا سيما ان الالمان كتموا امر مدافعهم الضخمة التي ترمي الى أبعد مما ترمي اليه مدافع الحصون البلجيكية والفرنسية ، والتي تكفي بضع طلقات منها لهدم القباب الفولاذية المتينة التي كان يظن انها تقاوم اشد الصدمات وبالجملة فقد ثبت اليوم ان الحصن يشل يد حاميته في حين انه يمكن استخدامهما في ميادين القتال . ومن جهة اخرى قد أظهرت هذه الحرب افضلية الخنادق ، فما الخندق الأحصن ينتقل بسهولة من مكان الى آخر وفقاً لتطور القتال ولا يلزم للدفاع عنه الا رجال قليلون . فهو اثبت وامن من احدث الحصون وأعظمها . وبفضل الخنادق سلبت الخطة الدفاعية شيئاً من تفوق الخطة الهجومية فان اختراق صف من الخنادق يستدعي عشرة أضعاف الرجال والمدافع اللازمة في معركة على سطح الارض ومن ميزات الخنادق انه اذا تمكن العدو من الاستيلاء على احدها بعد بذل جهده والتضحية برجاله فليس أسهل من حفر خندق خلف الخندق الاول بل ان ميدان القتال اليوم ليس الا صفوفاً متتالية من الخنادق اذا سقط احدها تجدد القتال للاستيلاء على الخندق التالي وهكذا مما يستدعي نفاد الرجال والذخيرة بكثرة عظيمة

ولم تفرض حرب الخنادق على الخطط الحربية القديمة فقط بل قد تعذر معها نشوب المعارك الحاسمة التي كانت تقلب وجه التاريخ (كاسترلنز ووترلو)

ولا نغني بما تقدم ان الخنادق من مبتكرات هذه الحرب فقد استعملت منذ زمن بعيد تارة للاستيلاء على الحصون بحفر خنادق موازية لها وطوراً للدفاع عن مدينة او معقل . وانما الجديد امتداد تلك الخنادق والاسلحة التي تستعمل فيها . وعلى رغم ان الجيش الفرنسي لم يستخدم الخنادق لوقف تقدم الالمات في الاراضي الفرنسية عند ابتداء الحرب فقد ورد ذكرها غير مرة في الكتب والتعليقات الفرنسية

ان الجديد حقيقة في حرب الخنادق هو المدافع السريعة الطلق التي تجعلها بمثابة حصون مستطيلة اولاً ، وامتدادها على مئات من الكيلومترات ثانياً

ثم ان طول المدة التي يضطر الجنود الى قضائها في الخنادق قد حملت على تحسينها بقدر الامكان وادخال ما تيسر من وسائل الراحة والوقاية اليها

والحياة في تلك الخنادق تستدعي صبراً ومجادة لا يعرفان الملل نظراً لتعرضها على الدوام الى انفجار الالغام وقذف القنابل ورمي الرصاص

ولئن كان الاستيلاء على خندق من أصعب الامور فان الثبات فيه يكون أصعب اذ انه لا يهجر في الغالب الا بعد ان يخرب . فلا بد للمستولي عليه من اصلاحه تحت نيران العدو . وعلى كل حال فان الخنادق لا تثبت في مقاومتها الا اذا كانت متينة البناء ومستوفاة شروط الدفاع ، ولذا لم يجد الروس نفعا اثناء تهمتهم في غاليسيا وبولونيا حتى انهم اضطروا الى احراق مدنهم لوقف السيل الالماني

٤ - مقام المفاع والدخائر

لم يحفل اولو الامر في بادئ الحرب الا بعدد الجنود و لكنهم ما لبثوا ان يتقنوا من ان كمية الذخيرة اشد خطورة وأعظم شأناً فان الخندق الذي يستطيع ان يطلق اكثر من ٦٠٠ طلقة في الدقيقة لا يتيسر الاستيلاء عليه الا بعد ان يطمر بوابل من النار والرصاص . وقد صدق القائد الانكليزي الذي قال انه في استطاعة جنديين توافرت لسيهما الذخيرة ان يحموا وحدهما خندقاً من هجمات فصيلة من الجنود على ان دول الحلفاء قضت اكثر من ستة أشهر قبل ان تدرك مقام الدخائر وخطورتها

ولم يخطر ببال أحد من القواد عند نشوب الحرب انه سيكون للذخائر من المقام العظيم ما كان . بل ظن اولو الشأن ان ١٣٠٠٠ قنبلة في اليوم تزيد على الحاجة . وفي شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ لم يكن المصنوع يومياً في فرنسا وحدها يزيد على ٧٠٠٠ قنبلة فاصبح في مايو سنة ١٩١٥ اكثر من ٨٠٠٠٠ قنبلة لمدافع ٧٥ وحدها وما برح هذا العدد يتزايد بسرعة عظيمة .

وقد بلغ من اهمال الحكومة الفرنسية مسألة الذخيرة ان وزير الحربية في بدء الحرب ارسل عمال المصانع الحربية الى خطوط القتال ولكن ما لبث ان اضطر الى استعادتهم فاقضى البحث عنهم في كل فرقة من الفرق نحو الشهر وجملة القول ان الاختبار قد دل الان على ان رجالاً قليلين وذخيرة كثيرة أفضل من رجال كثيرين وذخيرة قليلة

٥ — مقام العدد

غير أنه لا يزال للعدد مقام عظيم رغم ما بيناه من مقام الذخيرة المتزايد ولم يخس الالمان العدد شيئاً من حقه ومقامه الا انهم عينوا له حدوداً . قال الجنرال برناردي :

لا يبرح من الذهن ان للعوامل الادبية والعقلية المقام الاول دائماً حتى أنها في بعض الاحيان تفوق العوامل العددية . فقد تقوم القوى النفسية اذا كانت وطيدة ثابتة مقام قوى أخرى ناقصة وتعمل عوضاً عنها فان تأثير الرجل العظيم مثلاً كاف لزيادة قوة الجيش بل قوة الامة كلها . . .

وفي نظر الكاتب المتقدم ان متانة الجيش ووحدته اخطر من عدده . قال :

ان الجيوش التي الفتها الجمهورية سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ لم تستطع ان تقف في وجه الفرق البروسية المتينة رغم تفوقها عدداً . ولنفس السبب نصر اليابانيون على الروس مع أنهم أقل عدداً على أنه لا يجب ان نبخس التفوق العددي حقه فقد تفجز العبقرية نفسها عن التغلب على جيش جرار . فان التفوق العددي متى فاق نسبة معقولة يقضي على التفوق الادبي والعقلي

ان عدد الجنود في هذه الحرب عظيم فهو مجموع الافراد الصالحين للحرب ولا حاجة بنا ان نشير الى امتياز هذه الحرب عن جميع الحروب السالفة من هذا القبيل . وقد كانت خطة الالمان في بدء الحرب ان يهجم الجنود في صفوف كثيفة متتالية ولكنهم بعد انكسار المارن لجأوا الى الخطة « الدفاعية — الهجومية » وهي ان يبدأ

الجيش باتخاذ خطة الدفاع في مكان مختار الى ان يضعف عزم العدو المهاجم فيبدأ هو اذ ذاك بالهجوم

على ان هذه الخطة لم تأت بنتائج محسوسة في الميدان الغربي حيث الفريقان متكافئان في هذا الوقت وستبقى الحال على ما هي الى ان يتفوق فريق منهم على الآخر بعدده ومدافعه وقواده بحيث يتمكن من فتح ثغرة في خط العدو يتقدم فيها عدة كيلومترات والارجح ان بقية الخط يختل اذ ذاك من جراء هذا الاختراق

٦ - الحرب البحرية والحرب الهوائية

يظهر ان الانقلاب الذي أصاب الحرب البحرية أعظم من الانقلاب الذي أصاب الحرب البرية . فقد أصبحت معظم الاعمال البحرية تجري تحت سطح الماء ويتساءل الناس اليوم عن فائدة تلك المدرعات العظيمة التي تقدر نفقات انشائها بملايين الجنيهات اذ يكفي طوربيل او اغم لاذاتها عن وجه البحر في دقائق معدودة ان وظيفة الغواصات في هذه الحرب مزدوجة : فلها من جهة تقوم باتلاف مادي ومن جهة أخرى تهدد السفن وتخيفها حتى ان معظم المدرعات الكبيرة اضطرت ان تلتجئ الى الموانئ الامينة

على ان كبار رجال البحرية بينوا منذ أوائل القرن العشرين مقام الغواصات في الحروب القادمة . وفي مقدمتهم اللورد فيشر والسر برسي سكوت الانكليزيان فقد أنبا بانقلاب شكل الحرب البحرية ومكانة الغواصات المتزايدة ومما قاله الثاني « سوف نرى الغواصات تطرد المدرعات من سطح البحر كما طردت الاوتومبيل الخيل من الطرق البرية »

ولا ريب ان الزمان يخبي لنا مفاجآت أخرى غير التي تقدمت

الفصل الثاني

العواطف التي توظفها الحرب . تكون ذاتيات جديدة

١ — تكون ذاتيات جديدة

ان حرباً عظيمة كالتي تجري اليوم يجب ان تعد من حوادث التاريخ العظمى التي تتطور معها الحياة العقلية . ولقد ينتج عن هذا التطور قلب الذاتيات وتكون ذاتيات جديدة (وقد ذكرت ذلك في بدء هذا الكتاب) بحيث يتغير سلوك الناس لدرجة تدهش عارفهم . بل ان اولئك الافراد أنفسهم عندما يرجعون الى وسطهم القديم ويستقرون على عاداتهم الاولى يدهشون أيضاً مما طرأ عليهم

وهذه الانقلابات سريعة الحدوث ، تتم حلماً تتوافر أسبابها . فأي شيء أدهش من ان نرى مئات الالوف من الاهلين يتحولون الى جنود شديدي البأس يستقبلون الموت بشعر باسم وصدر رحب فداء للوطن والحرية — وهم يفعلون ذلك في العصر الذي بلغ فيه الترف والترف ووسائل الراحة على أنواعها أقصى درجاتها . بل ان البسالة أصبحت لدى أولئك القوم صفة مبتذلة !

فالحرب الحاضرة برهان جديد على نظرية شرحها غير مرة في كتيبي السابقة مجملها ان ثبات الشخصية انما ينتج عن ثبات الوسط ، فاذا تغير تغيرت . حتى انك قد لا تعرف الرجل العادي بعد انقلاب وسطه . وفي كل واحد منا استعداد كامن لمثل هذا التطور . ولذا يكون من الغباوة ان يدعي احداً انه يعرف نفسه

ان تلك الانقلابات النفسانية تصيب جميع الطبقات الاجتماعية ، وقد لفتت نظر جميع المشاهدين . قال أحدهم :

لقد تولدت روح جديدة في جنودنا بعد انتقالهم الى ميدان القتال فصبح التضحية والاندفاع والبسالة والسكوت جزءاً من فطرتهم . وقد بلغت روح التضامن بينهم مبلغاً عظيماً حتى اذا سئل فريق أن يتطوع بعضهم لمهمة خطيرة تقدموا اليها جميعاً . ولا ريب ان الحرب قد أعلت نفوس

الجنود فاني أعرف رجلاً لم يكن حسن السيرة والسلوك في باريس ولكنه قد أبدى في القتال هو وشركاؤه ما أنسى ماضيه وجعله في مصاف أشجع الشجعان
ان تلك الارواح الجديدة تتكوّن من استيقاظ بعض العواطف المستقرة في النفس البشرية واليك اخطرها فيما يلي

٢ — الشعور الوطني . اثر روح الامة

تقضي الوطنية على الفرد بتضحية جميع مصالحه الفردية في سبيل المصلحة العامة .
وكما قدم عهد روح الامة وتوطدت دعائمها على اشتراك المصالح والاماني ازدادت الوطنية قوة واستبدت غريزة البقاء الفردي بغريزة البقاء الملى
ان روح الامة هي في الحقيقة صاحبة الشأن في القتال ، وهي تزداد نشاطاً كلما أحرق بها الخطر الذي يهددها
والوطنية صفة موروثية من قبيل العوامل الروحانية . وقلمما يكون للعقل سلطة عليها ، بل ان الذي يحكم عقله في وطنيته يضعفها بلا ريب . قال المسيو شفريليون :

الوطنية كالدين والآداب لا تدخل في حيز الحكم العقلي بل تخضع لناموس الحياة . فهي غريزة أوجدتها الحياة أثناء نشئها وارتقاها . كما أوجدت غيرها من الفرائز والاوهام المتوارثة جيلاً عن جيل بقصد ما وئنتها على غرضها الاعلى الا وهو مداومة التحسين والتقدم . . . ولذا لا يجدي المنطق نفعا في اقناع الفرد بان استشهاده في سبيل ما لا يعلم مصيره بعد موته انما هو ضرب من الجنون . على أن الذي يفكر على هذا النمط يرتكب غلطاً فاحشاً اذ يعتد الفرد في عزلة وفي غنى عن بني جنسه ووطنه والحقيقة انه ليس الا جزءاً من المجموع الذي يدافع عن كيانه وانه يحيا بحياته كما تحيا الورقة بحياة الشجرة . ولا ريب ان الجزء الاكبر من ذاتيته الاجتماعية اكثر مما هو فردي . فاذا نظرنا الى الوطنية هذا النظر رأيناها معقولة وعلمنا ان الفرد الذي يستشهد في سبيل وطنه ليس قاصر النظر وانما يقوم بوظيفة من وظائف الحياة القومية

الوطنية ميراث الموتى . وهي من تلك القوى العظيمة التي تتكون بتراكم الصفات الموروثة والتي تستيقظ دفعة واحدة متى حان وقت ظهورها . وبفعل تلك القوة رأينا أشد الرجال اختلافاً وتبايناً في الآراء من ملكيين واشتراكيين وغيرهم يتحدون معاً تحت ظل اللواء الوطني

وما كان ذلك بالامر بالميسور لو لم تكن الوطنية من تلك الدوافع القوية المستقرة في أعماق النفس ، والتي تمحي امامها جميع احكام العقل

ولدينا أمثلة كثيرة تبين سلطان تلك القوة تقتصر منها على القصة الآتية : فر شاب فرنسي من صفوف الجندي سنة ١٨٩٩ وهجر بلده الى المانيا حيث تزوج المانية ولدت منه ست بنين . وكان كرهه للخدمة العسكرية عظيماً جداً حتى لم يتردد في الفرار من صفوف الجيش . فلما نشبت الحرب الحاضرة كان صوت العاطفة الملية في نفسه شديداً جداً بدرجة أنه ترك عائلته ورجع الى فرنسا لانتظام في جيشها

٣ - حب المخاطرة والمجازفة

حب الخطر جزء لازم من الطبيعة البشرية يتخذ في الحياة الاجتماعية صوراً مختلفة كالقمار ، والصيد ، والمعارك ، والاستكشافات الخ . وانك لا تجد بين الفاتحين ومؤسسي الممالك من نال النجاح المنشود من غير ان يجازف مراراً بتملكاته وحياته ان المخاطرة شرط ضروري للنجاح ولا سيما في المعارك . ولكن لا ينبغي أن يكون الامل ضعيفاً بحيث يعد الفشل في حكم المتوقع . ولذلك كانت صحة النظر والحكم في رجحان النجاح أو الفشل من الصفات الاولى التي ينبغي لاولي الامور التمسك بأذيالها

ولقد تعرض بسمارك في سبيل الاتحاد الالماني لاختار جسيمة . ولو كان غيره في مكانه لتردد طويلاً قبل محاربة النمسا صاحبة الحول والنفوذ اذ ذلك ثم محاربة فرنسا التي كان من بأسها ان نصرت على النمسا في ايطاليا ومتى كان أمل النجاح قليلاً عدت المخاطرة تهوراً وقصر نظر

٤ - استيقاظ المواطن الدينية في فرنسا ابان الحرب

قد نشأ عن الحرب ظواهر روحانية اختلفت في فرنسا عنها في المانيا . فان المطمح الاعلى للنفس الالمانية هو الاتساع المادي والسيطرة العالمية ، يدفعها الى ذلك اعتقادها ان الله اختار الشعب الالماني لاصلاح العالم . ويبلغ من ثقة الالماني برعاية الله له انه لا يشعر باحتياج الى التزلف اليه في طلب تلك الرعاية أما الفرنسي على الاجمال فانه أقل ثقة من الالماني برعاية الله له ، ولذا لجأ الى مداومة الطلب والتضرع الى خالقه وهو يعتقد ان ذلك الالحاح ضروري لنيل مرغوبه ، وليس أدل على هذا الاعتقاد من مقالة كتبها عضو شهير في الاكاديمية الفرنسية جاء فيها :

ان الصيبة الوطنية التي حلت بنا هي كفارة عن مساوئنا وخطايانا فلارب ان لذلك الرزء الوطني معنى وقد اتفقت جميع الطوائف في عدم تكفيراً

وقد أشار ذلك الكاتب الى ان افضل طريقة لاسكان غضب الله هي اقامة الصلوات العامة وأرسلت عريضة الى الحكومة في هذا المعنى تطلب موافقتها رسمياً. ولكن الحكومة رفضت هذا الطلب كما كان متظراً ان تفعل . لان نفوسنا الحديثة لا تستطيع الخضوع لاله لا يستميله غير الذل والاحاح

وقال الجنرال شرفيس الفرنسي مبنياً مداخلة القوة الالهية في الحرب :

نرى بسهولة لماذا لم تشأ العناية الربانية أن تنتهي الحرب في مدة قصيرة. فان هذه الحرب سوف تكون لفرنسا خلاصاً وبعثاً . والبعث يفرض قبله القبر ، ففرنسا اليوم أشبه بفراش أيوب الذي تجدد عليه إيمانه . ذلك هو التعاليل الحقيقي لطول مدة الحرب

لارب في ان للعقائد الروحانية سلطاناً عظيماً على النفوس ، ولكنها توحى الى أصحابها تعاليل غريبة عجيبة !

ولئن كانت اليقظة الدينية عظيمة جداً في منطقة القتال فلها أخف وطأة في الداخل ولا سيما بعد ما أظهره البابا والاكليروس الكاثوليكي في البلاد المحايدة من الروح العدائية تجاه فرنسا ، وبعد تشهير رجال الاكليروس وادعائهم في اول الامر ان مصائبنا هي عقاب من السماء . فقد كان من تأثير تلك المظاهر والاقوال ان خدشت احساسنا الوطني وتركت في نفوسنا شيئاً من البرود

٥ — تطور عواطف الجمهور اثناء الحرب

من العسير ان نتكلم عن تطور عواطف الجمهور اثناء الحرب وان يكن ذلك التطور جلياً في جميع الطبقات الاجتماعية . الا اننا لا ندرى الصورة النهائية التي يقف عندها

وسوف يكون للرأي العام القسط الاوفر في مداومة الحرب أو طلب السلم . فان الآراء المتداولة عن مجرى الاحوال أعظم شأنًا من حقيقتها. ومن ظن نفسه مغلوباً فليس الفشل يبعد عنه

ولا تزال ثقة الالمان بنصرهم قوية وسوف لا تنزعزع الا متى رأوا ان اله الحرب

يهجر صفوفهم

ومن العبث ان نحاول ادراك حقيقة الشعور العام اثناء الحرب فان الجرائد اليوم لا تعبر الا عما تأذن الحكومات بنشره — اللهم الا في انكسار احيانا على انه لا بأس من ايراد الفقرة الالية المنقطعة من جريدة مجرية . وفيها ذكر تطور الرأي العام في بلاد المجر في الاشهر الاولى للحرب (ولا شك انها تغيرت ايضا بعد ذلك)

في الاشهر الثمانية منذ ابتداء الحرب دخل الرأي العام في ثلاثة أطوار متتابعة : كان الطور الاول ملؤه الحماسة الوطنية والاندفاع الحربي ، ثم هدأت النفوس وأصبح الجمهور لا يعبأ كثيراً بحوادث الحرب سواء كانت نصراً أو كسراً ، وفي انطور الثالث خلف الهدوء والسكون تهبج وترقب عظيمان فاصبحت أوتار الجمهور شديدة الاحساس تهتز لاتفه الامور

فنستلخص من هذ الفصل كيف تتطور شخصية الانسان وفقاً للوسط الذي ينقل اليه . نعم ان في كل منا صفات موروثة ثابتة هي النواة التي تنسج حولها شخصيتنا ولكن تغيير الوسط تغيراً فجائياً يغير شكل النسيج الذي ينسج حولها بحيث يصبح لازامية شكل جديد . ومن ثم نرى اختلافاً شديداً في الناس عرفناهم ، كأنهم ولدوا ولادة ثانية

وسأنتي في الفصل التالي على ما يؤيد ايضاً نظرية تقلب الذاتية

الفصل الثالث

الشجاعة الحربية : منشأها وصورها

١ — الصور المختلفة للشجاعة

على رغم ان الحياة ائمن ما لدى الانسان فانه من السهل عليه ان يضحي بها في بعض الاحوال ولا سيما اذا كان تحت تأثير بعض الدوافع الموروثة التي تجعله ينسى غريزة الاحتفاظ ببقائه الفردي

والشجاعة هي مقاومة الخوف الطبيعي الناشئ عن الخطر . وقد تكون الشجاعة عرضية وهي اذ ذاك سهلة الممارسة ، أما الشجاعة المتواصلة فهي اصعب اكتساباً الا متى دخلت في طور العادة فتصبح طبعاً ثانياً يأتيها الانسان بلا تفكير

ولقد اتاحت الحرب الاوربية درس الشجاعة درساً نفسانياً مدعماً بملاحظات راهنة . فليس أفيد للمتأمل من الحوادث التي تقع وتدوّن حال وقوعها في ساحات القتال نفسها

واليك ما كتبه لي ضابط في المدفعية بهذا الصدد :

قد جعلتني الحرب أميز بين درجات متفاوتة من الشجاعة كانت قبل في ذهني بصورة غامضة مشتتة

وقبل كل شيء تبينت من صحة التعبير الاسباني القائل « ان فلاناً كان شجاعاً في اليوم الفلاني » ثم أن أجل أنواع الشجاعة مخاطرة الرجل القادم من مكان أمين لم يعرف فيه اضطراب القتال ، واقدامه بعزم وثبات على عمل يعلم خطره

وان شجاعة نفر معين من الجنود تختلف اختلافاً يائناً باختلاف الاحوال التي تكتنفهم ولا سيما اذا كان مزاجهم سريع التأثر كالزجاج الفرنسي

على ان صورة شجاعتنا الحربية قد تبدلت اليوم بعد ان اضطرنا مجرى الحرب الى التمسك بأذيال اثبات والهدوء ، فقد فقدت حدتها واندفاعها

ففي بادئ الحرب كان جنودنا يهاجمون بطريات العدو مكشوفين الجسـم ومدفوعين

بقوة هائلة ، فكانوا يذهبون ضحية اندفاعهم من جهة وتواصل الطرق الحربية القديمة في أنفسهم من جهة أخرى

قال احد القواد الالمان في محادثة نشرتها جريدة الفيغارو في أول الحرب :

ان مشانكم يستحقون كل مدح وثناء ولكن فيهم عيوباً عظيمة جداً أولها شجاعتهم واقدامهم فانهم يحاربون مكشوفى الصدور كأنهم يجعلون أنفسهم هدفاً لنا . نعم ان في ذلك من الجرأة ما فيه ولكنه غير معقول

انكم تظنون ان الشجاعة تفيد دائماً والحقيقة أنها وان أفادت في بعض الاحوال كالهجوم بالسلاح الابيض، الا ان ضرر التطرف في استخدام تلك الميزة السامية اكثر من نفعه . انكم لا تزالون تجهلون ذلك مع أنه حقيقة ساطعة . فالفوز في المعارك يستدعي الاستخفاء بقدر المستطاع والتعرض بأقل ما يمكن والاستفادة من كل مرتفع أو واد للتكمن . وسوف يأتي يوم تتعلمون فيه ذلك منا

وكتب ضابط هذا الصدد :

ان نظرنا الى الشجاعة قد اختلف اختلافاً عظيماً منذ نشوب الحرب فاصبحت شجاعتنا اكثر اتضاعاً وحزماً وابهاماً ، وقد كانت تمتاز سابقاً بالابهة والظهور والسطوع والفروسية . فان الجريئين كانوا يخرجون من الصفوف فيشاهد الجميع أعمالهم واستشهادهم . أما الآن فلا يعلم بجلاء الجندي وصبره ومروءته الا جاره في الخندق . وقد أصبحت الشجاعة الحقيقية في المجاهدة وهدهو الحاطر وقوة الارادة

فترى من هذه السطور انه قد تبدل التسرع والاندفاع بالتفكير والصبر والحذر ولا شك انها أجزل فائدة وأقرب ايصالاً الى الغرض المطلوب

٢ — البطالة والبأس

ان الاحوال الصعبة التي تجري فيها الحرب الحاضرة أما ان تؤدي الى الهزيمة أو الى البأس والبطالة . ولحسن الحظ انها أدت الى البطالة ، بل ان هذه الصفة أصبحت شديدة الانتشار حتى يصح عدها شرطاً أساسياً للاشتراك في هذه الحرب . فان مجرد قراءة التقارير العسكرية اليومية كافٍ للاقناع بهذه الحقيقة واليك بعض الامثلة المقتطفة بلا نظام :

كورنتان : احتياطي في الفرقة . . . من المشاة : بعد ان قتل رجال مدفع رشاش الماني قنزي خندق بحميه عشرون المانياً فقتلهم تارة برصاصه وطوراً بحميه

شيلار : ملازم ثاني في فرقة . . . من الزواف : ارسل في ليل ٨ اكتوبر سنة ١٩١٤ مع ثلاثة رفاق للاستكشاف فالتقى في طريقه باربعين المانياً كامنين وراء الزرع فقتل منهم ثمانية عشر والجأ الباقين الى الفرار

الكابورال لبوك : في فرقة . . . أسر وحده كيتين و ٢٣ جنديا من ورتمبرغ بفضل اقدامه ورباطة جأشه

عديدة هي الامثلة من هذا القبيل ، فان الجنود من جميع الطبقات الاجتماعية سواء في البسالة والمروءة . على ان تلك الامثلة هي من النوع المتقطع أي انها ظهرت في زمان ومكان معينين . ولكن حياة الخنادق تستدعي نوع الشجاعة المتواصل . ويمكننا ان نحكم بما تستلزم تلك الحياة من المقتطفات التالية

هذه فقرة من مقالة كتبها ضابط فرنسي شهد معركة ايبرس :

بقينا ١٣ ليلة و ١٢ يوماً — وقد جرحت في اليوم الثالث عشر — غارقين في حفر ممتلئة بالطين يبللنا الماء والنداء الليلي وترتعد فرائضنا من البرد القارس — وذلك تحت وابل من الرصاص والشرابيل والقنابل والمقذوفات التي لم تجمعنا نستريح ربع ساعة لا ليلاً ولا نهاراً . في مثل ذلك الموقف ذهبت احلام البسالة والتفوق والظهور التي كنا نتصورها في مخيلتنا . فانه لم يكن في وسعنا الا البقاء في امكنتنا نستنشق دخان القذائف وتصم آذاننا الانفجارات : نسمع تارة انين رفيق مجروح وطوراً نشاهد دماغ جاري يتطاير في الهواء او يد صدق تمر امامنا كسلح البصر الخ . . . وجملة القول انه كان علينا أن نسمع ونرى وترتعد من غير ان نتحرك . . . وكأنا دخلنا قبورنا قبل القدر المحتوم

واليك ما قاله المسيوليون بوجوا يصف حياة الخنادق :

انهم يتألمون في الظلام الحالك والبرد القارس من غير ان ينبسوا بينت شفة متيقظين لادنى صوت مستعدين للهجوم والاموت . هكذا تتوالى الايام عليهم وهم متنبهون ثابتون لا يزعمهم شيء . ومثلهم رؤساؤهم . ومتى دارت رحى القتال لا يرون حتى رؤسائهم لان معظم الاوامر تأتيهم بالتلفون . ومتى انتهت العاصفة رجعوا الى امكنتهم وعدوا انفسهم — ولا يلبثون ان يعيدوا الكرة بلا كلل ولا ملل

فاذا ذكرت جريدة الجيوش في اليوم التالي خبر تقدم مئات الامتار فانها انما تلخص مئات الاعمال المجيدة بكلمات قليلة . . .

٣ — اثر العادة في الشجاعة

ان للعادة اثراً عظيماً في منشأ تلك الشجاعة المتواصلة التي تستدعيها الحرب الحاضرة ، اذ يكفي لتوطيدها في النفس ان يتكرر الخطر وان يتمكن الجندي من مقاومته في المرات الاولى حتى تصبح الشجاعة ملكة فيه وتحول الشجاعة المتقطعة الى شجاعة متواصلة

لذلك لا يجوز ان نقدز صعوبة الحياة على خطوط القتال باكثر مما تستحقه ، فان

العادة تلطفها وتسهل سبلها . وإنما هي تظهر بصعوبتها الهائلة لمن يدخل عليها لأول وهلة . وليس أشبه بحالة الجندي من حالة العامل في المنجم تحت الأرض : فأنك تسمّر لو عرض عليك ان تعيش مكانه في جوف الأرض تحت الظلام الخالك والخطر الدائم ، أما هو فقد تعود حياته حتى أصبح يحبها ويكره الحياة في الهواء المطلق . فمن ذلك نرى أثر العادة في الطبع البشري

وبفضل العادة نجد الجنود في الخنادق يضحكون ويفرحون (كما شهد بذلك غير واحد من الذين زاروهم) غير حافلين بالخطر الذي يكتنفهم والموت الذي يهددهم في كل دقيقة . وقد يتحسرون على الوقت الذي قضوه في صفوف القتال عند رجوعهم الى مكائهم وحقوقهم

وللبشاشة مقام كبير في الحرب لأنها تقوي الجنود وتبعث فيهم العزائم . ولذلك رأيت الرؤساء الذين يفهمون قيمتها يسعون بجميع الوسائل لينقثوها في جنودهم واليك ما قاله أحد الجنود ميمناً أثر العادة في حياة المقاتل :

ليس من العسير ان يعود الرجل عيشة القتال . فانها لا تقتضي أكثر من ثمانية ايام حتى يعود الجندي بعدها ان يعيش بين الدوي والانفجار ، ويستعجن الهدوء والسكون . ويصبح من السهل عليه ان ينام بين تلك الاصوات المزعجة . وقد يستيقظ اذا سكنت العاصفة . هذه حقائق مشاهدة في كل يوم وهي تدل على سلطان العادة

ان كل الخطابات التي يرسلها الجنود تشير الى سرعة تعودهم حالتهم الجديدة . اما منشأ العادة فليس هذا مكان الافاضة فيه وإنما تقتصر على القول بانها نتيجة قابلية الانسان للتكيف وفقاً لوسطه . ولولا هذه القابلية لما تيسر للانسان ان ينتقل الى وسط الخنادق مع ما بينه وبين الحياة العادية من الفرق الشديد

على ان تأثير العادة لا يظهر الا اذا وجد الانسان في نفس الاحوال وتعرض لنفس الاخطار التي عهدها . فاذا طرأ بعض التغيير على الصورة التي تعودها يضطرب في بادئ الامر ربما يعود تلك الصورة الثانية . فقد لوحظ ان الجنود الذين أصبحوا لا يعبأون بنوع معين من القنابل او القذائف يضطربون اذا تبدل نوعها وشكل انفجارها يكفي ما تقدم لبيان مكانة العادة في حياتنا . ففي السلم وفي الحرب على السواء

تصدر عن العادة ثلاثة أرباع أعمالنا

ولما كانت الشجاعة المتواصلة لا تجدي نفعاً عند تغير الحال فما يبدو من الناس يكون اذ ذاك نتيجة عامل آخر عظيم الشأن نفعي به قوة الارادة

٤ - أثر العدوى العقلية

للعدوى العقلية اثر عظيم في الحياة الاجتماعية ولكنها مع ذلك اعظم شأنًا في الحياة العسكرية . واليهما يرجع الفضل في توثيق عرى الاتحاد المتين بين الجنود ، وهو ركن الاعمال الحربية

ولا يخفى ان العدوى العقلية هي قابلية الانسان للاحتذاء بمن حوله بحيث يريد ويعمل ما يريدون ويعملون ، من غير ان يكون لارادته الشخصية دخل في عمله ومعظم تأثير تلك العدوى في العواطف . فقلما تؤثر في العقل والافكار . وبفضل العدوى العقلية ترى اهل الجماعة الواحدة يقولون ويعملون الاشياء ذاتها

ولقد نرى كثيراً من الحالات العقلية المكونة من مجموع عواطف مختلفة — كالتفاؤل والتشاؤم والخوف والشجاعة وغيرها — سريعة الانتشار بين الناس . وقد تنتشر الافكار أيضاً بالعدوى ولكن بنسبة ما فيها من العناصر العاطفية والروحانية . فان الفكرة المنطقية العقلية التي ليس فيها شيء من العواطف لا تنتقل بالعدوى

ويظهر اثر العدوى العقلية حالما يدخل الفرد في مجموع من الناس يجمعهم غرض واحد أو مهنة واحدة كجماعة من الجند مثلاً . فيستعير الفرد اذ ذاك عن روحه الفردية بروح الجماعة التي ينسب اليها فيشعر ويفكر بعواطف وآراء مجموعه لا بعواطفه وآرائه الشخصية

قال أحد الضباط الفرنسيين مبيناً اثر العدوى العقلية :

انها لمعجزة عظيمة حين يرتدي الرجل ثوبه العسكري فان عقله يتغير فجأة ويضعف فيه شعوره باستقلاله المعنوي ويحس حاسة جديدة يجوز تسميتها حاسة الجماعة

على ان للعدوى العقلية ضرراً كبيراً وهو ان العقل يصبح بها شديد التأثير من الاشاعات والآراء المتداولة ولا سيما اذا كان الجيش في حالة ضعف او تقهقر ، اذ يكفي الجندي ان يسمع ادنى كلمة او خبر شؤم حتى يفر مضطرباً بلا نظام

الفصل الرابع

تأثير الاغلاط النفسانية في منشأ الحرب

١ — كلمة اجمالية عن ضعف النظر وعدم البصر في القمانيات السياسية

يمكن التعبير عن معظم الظواهر الطبيعية بصورة رياضية محدودة . أما الظواهر الاجتماعية فهي على عكس ذلك متشعبة الاصول والنتائج لا يمكن حصرها تحت قاعدة ثابتة تصح دائماً بحيث يمكن التنبؤ بحدوثها . حتى الحوادث القريبة يتعذر التنبؤ بها . وقليلة هي الادمغة التي تدرك سلسلة الحوادث التاريخية التي تنتج مباشرة عن حادث معلوم . فكيف بالنتائج البعيدة ! ويندر ان تجد بين رجال السياسة من يتبصر في تطور الاحوال ويدرك ما يكون من أمرها في المستقبل .

بل أغرب من ذلك ان بعض الحكومات لا تعجز عن التبصر والتنبؤ فقط بل يفوتها ملاحظة الحوادث الجارية عند جيرانها مع ان لديها جميع وسائل الملاحظة والاستعلام من سفراء وملحقين حربيين وجواسيس . فمن ذلك جيل نابليون الثالث قوة المانيا سنة ١٨٧٠ ولا ريب انه لو علمها لاجتنب تلك الحرب المشؤومة

ولو استطعنا الوقوف على نظام المانيا واستعداداتها الحربية قبل سنة ١٩١٤ — وقد كان ذلك ميسوراً لمدوينينا لو كانوا أبعد نظراً وأدق ملاحظة — لكنا قد احتطنا لهذه الحرب وأصلحنا ما بنا من خلل ونقص

ويتجلى جهل الساسة باظهر صوره فيما يختص بطباع الامم وامزجتها النفسية . فلهم يحكمون على غيرهم قياساً على أنفسهم ، ويقيسون الجميع بمقياس واحد . وقد كان معظم الحكماء فيما مضى أصحاب تبصر فيما يتعلق بشؤون شعبهم وأخلاقه ولكنهم في الغالب لم يستطيعوا ان يدركوا أخلاق الشعوب الأخرى

فنابوليون مثلاً كان يفقه الروح الفرنسية ولكنه جهل الروح الروسية والاسبانية فدفعه جهله هذا الى حروب آلت بدولته الى الاضمحلال . وميزة بسمارك انه فقه —

فضلا عن الميزات النفسية لامتته - ميزات الامم الاخرى . فكان علمه هذا دليلاً له يرشده الى الحد الذي ينبغي له الوقوف عنده والطرق التي تهيئ الرأي العام ونحو ذلك

ان امثلة ضعف النظر السياسي كثيرة جداً . وقد ازدادت السياسة صعوبة لتثعب أطراف السياسة الاوربية الحديثة واختلاط المصالح فيها . ومن الغريب في هذا المقام ان أحد رجال السياسة الفرنسيين كتب قبيل نشوب الحرب « ان النسا محبة للراحة التامة فهي لا تهدد أحداً على الاطلاق »

فكيف نعلل عدم التبصر هذا ؟ ولم ذلك المعجز عن فهم عواقب الامور ؟ ان السبب الاكبر في ذلك هو ان معظم رجال السياسة تحت تسلط بعض العقائد والآراء السياسية يقيسون عليها جميع الحوادث الجارية ، ولا سيما ان تلك العقائد والآراء مستمدة غالباً من رغائبهم وعواطفهم وليست مبنية على الواقع ولو رجعنا الى معظم الاغلاط التاريخية وجدنا عند منشأها ضعف النظر وعدم التبصر في الامزجة النفسية الملية ، ولا سيما العوامل الروحانية والجماعية والعاطفية المتسلطة على حياة الامم . وقد جاءت الحرب الحاضرة بامثلة كثيرة تؤيد ما تقدم وسنحللها فيما بعد بشي من التفصيل

٢ - ضعف النظر والاعلاط النفسانية في فرنسا

كثيرة هي اغلاطنا النفسانية . نذكر في مقدمتها « الوهم السامي » الذي جعلنا نهمل استعدادنا للحرب زمناً طويلاً والذي كان الدافع الاكبر لمقاومة قانون « الخدمة ثلاث سنوات » في حين كانت الحال تقتضي ذلك القانون نظراً لخطة التهديد التي اتبعتها المانيا

ولقد كان الاعتقاد باستحالة نشوب الحرب بين الدول الاوربية منتشرًا انتشاراً عظيماً حتي ان معظم الوزراء الذين تقلدوا زمام الاحكام في فرنسا وقت اعلان الحرب كانوا من الذين صوتوا ضد قانون الخدمة ثلاث سنوات . فبينما كان الالمان يزيدون عدتهم وتأهبهم كنا نحلم بسلم عام

ولقد كان المظنون - على فرض نشوب الحرب - أنه لا بد من أن تنتهي في

أجل قصير اذ ان الاسلحة الحديثة من مدافع كبيرة وصغيرة ومفرقات الخ . لا تسبح تطويلها وان البلاد لا تستطيع ان تحيا بلا زهرة شبنمها ورجلها اذ يهددها الجوع ، ويحو ذلك من الاقوال . وقد دل الاختبار على ضعف هذا النظر فلا شيء يدل على قصر أجل هذه الحرب ولا سيما ان الاهلين قد تعودوا الحياة الجديدة التي يعيشونها الآن مع ما بها من حجز الحرية والضيق المادي والتلف وغير ذلك

وقد كان يظن — نظراً لعدد الجيوش العظيم — انه يكفي اشتباك المتحاربين في بضع معارك حتى ينال النصر فريق . وقد رأينا ان ميزة هذه الحرب خلوها من المعارك الحاسمة

قليلون هم الكتاب الذين تنبأوا بهول هذه الحرب . على اني في كتابي المعلنون « روح السياسة » ذكرت الحرب المقبلة التي كنت أتوقع حدوثها . قلت :

لا يبرح ذهنتا ان تلك الحرب ستكون نزاعاً هائلاً لم يعرف التاريخ مثله وانها ستقضي على فريق من الامم المتحاربة قضاءً تاماً . في تلك الحرب سيجعل الناس الشفقة ويعم التخريب في البلاد حتى لا يبقى فيها بيت ولا شجرة ولا رجل
لنضع تلك الصورة امام مخيلتنا ولنترك الماشدقين بتفلسفون في السلم العام واخاء الامم وغير ذلك من الاوهام التي تذكرنا بالمجادلات الدينية التي قامت بين اهل بيزنطة حين كان الاثراك على ابوابها

وقد بين المسيو جبريل هانوتو الوزير السابق بعض الاغلاط السياسية التي ارتكبتها قل :

كان يجب على دول الحلفاء من يوم اظهرت تركيا ميلاً الى الدولتين الجرمانيتين ان تتخذ الاحتياطات اشل يدها وفصلها عن هاتين الدولتين . فان ذلك الميل زاد الخطر على روسيا براً وبحراً وهدد انكسرترا في قتال السويس والهند

ومن الغريب انه لم تؤخذ قط تدابير من هذا القبيل : فان نيات تركيا بقيت مجهولة لدرجة ان فرنسا اقترضتها قبل الحرب قرضاً قدره ٥٠٠ مليون فرنك : وان الدول ظلت مكتوفة الايدي في الوقت الذي لم يبق فيه شك من غرضها ولا سيما بعد دخول الغويز والبرسلو مضيق الدردنيل . فقد كان الواجب مطاردهما حتى الاستانة

تلك سلسلة اغلاط تشعير بمواقفها في الوقت الحاضر

٣ — ضعف النظر والاعلاط النفسانية في المانيا

رأينا كيف كان ضعف نظر الفرنسيين مجلبة لتأخيرهم في بادئ الحرب . أما الالمان

فقد ارتكبوا أيضاً عدة أغلاط جسيمة كلفتهم كثيراً . وقد نشرت إحدى الجرائد الفرنسية منذ بضع سنوات مقايضة جاء فيها ان من جملة ما يعتمد عليه الالمان لاجراز النصر ما يأتي :

١ — تحزباتنا الدينية والسياسية

٢ — الحركة المضادة للعسكرية Antimilitarisme

٣ — « الاتحاد العام للعمال » وقد كان يظن ان هذه الجمعية القوية تحرض على

اعتصاب الجنود والعمال في حال نشوب الحرب

٤ — انحطاطنا جسمانياً وأدياً

٥ — اختلال النظام في جيشنا واسطولنا

٦ — معاهدتنا السلمية

ويعلم القراء الآن كيف خالفت الحال ظن الالمان في هذه الشؤون . فقد أهملوا عاملاً رئيسياً ألا وهو الروح القومية التي تجمع الافراد وتمهدم الحواجز بينهم

ومن أعظم الغلطات التي ارتكبتها المانيا انها لم تفكر في عواقب اختراق البلجيك الذي هاج السخط العام في انكلترا وكان الباعث الاول على اتحاد احزاب أوشتك أن تنشب الحرب الداخلية بينها

ثم ان ألمانيا لم تحسب لمقاومة البلجيك الضعيفة حساباً فتعطلت خطة الاقتراض على باريس

وقد بينا في فصل سابق ما كان لاعتماد المانيا بأن روسيا وفرنسا وانكلترا ان تعرض نفسها لحرب اوروبية من اتخاذها خطة التهديد ونصحها للنسما باستعمال الصرامة مع السرب

وارتكبت المانيا من جهة ايطاليا أيضاً خطأ كبيراً بامتنانها والتكبر عليها ومن اكبر الاغلاط التي ارتكبتها استخدام الوسائل الممجية في البلاد التي اكتسحتها مما نفر الدول المحايدة ولا سيما اميركا ، مع ان المانيا بذلت مالها ونفوذها لاستمالة الرأي العام فيها

قال المسيو بربو الفرنسي (العضو في الاكاديمية) الذي ساح في اميركا بعد الحرب :

قد حدث اثناء وجودي في الولايات المتحدة تطور محسوس في المواطن . فان كثيرين من

الذين مالوا الى ألمانيا في بادىء الحرب لم يلبثوا ان غيروا خطتهم . اذكر في مقدمتهم الاستاذ بنر رئيس جامعة كولومبيا اعطى جامعات اميركا وقد جهر اولاً بميله الى ألمانيا ولكن الحوادث اسلمته لينا فاصبح لا يخفي اعجابه بفارسا ومحبة لها . وقد مررت في لندن نفسها بضعة اشهر بعد زيارتي لها أول مرة فرأيت ان حرارة الضيفة والاستقبال قد ارتفعت ارتفاعاً عظيماً . . . انه كان للفظائع التي ارتكبها الالمان في البالجيك اسوأ وقع في الجمهور الاميركي

ولقد توالى أعمال الالمان الدالة على خرقهم وعدم دربتهم . فمنها منشور علماء الالمان الذي انكروا فيه اموراً جليلة . ومنها غبوة بعض أساتذتهم الذين جاهروا بان ألمانيا ترمي الى استعمار الدول الصغيرة . ومنها تشويهم وجه الحقيقة ومبالغتهم في نشر اخبارهم . ومنها الاعتذار الغريب الذي تدرع به لمستشار الالماني لتبرئة نفسه من القول الشهير الذي قاله في المعاهدات وخرق الورق

على انه لايسعنا ان ننكر نجاح الالمان في ستملة تركيا اليهم وقد استخدموا لهذا الغرض عاملين ما برحا شديدي التأثير على تركيا نعني بهما القوة والمال . ولا ريب اليوم انه لو اتخذ الحلفاء من ديسمبر سنة ١٩١٤ خطة الحزم والعزم تجاه تركيا لبقيت على حياتها ، بل الأرجح أيضاً انها ما كانت لتمنع أسطول الحلفاء من دخول الدردنيل اثر البارجتين الالمانيتين

واليك فقرة مستخلصة من جريدة التاج الالمانية نقلتها الطان بتاريخ ٢٩ مارس

سنة ١٩١٥ :

كثيرة هي الغلطات التي ارتكبناها في حسابنا ! لقد كنا نتظر أن تنور الهند عند اول طاقة نارية . وهامهم أولاء جنودها اليوم يحاربوننا بالالوف وبشرات الالوف . كنا نظن ان المستعمرات البريطانية تنفصل عن انكبترا فوجدناها تأخذ بتحصنها وتوسعها . كنا نؤمل نجاح الثوار في افريقيا الجنوبية واذا بهم يفشلون . ظننا ان الحرب الالهية تنشب في ارانسدا فخاب ظننا ورأينا الفرق الارلندية على صفوف القتال . اعتقدنا ان انكبترا في حال الانحلال والتفقر واذا بها تقاومنا أشد مقاومة

وحدث لنا مثل ذلك من جهة فرنسا وروسيا . ظننا الاولى واهية الاخلاق واهنة القوى واذا جنودها شديدو البأس . وتوهمنا ان روسيا تعجز عن اي عمل جدي وأن الشعب الروسي غير راض عن خطة حكومته فسقطت اوهامنا ازاء الواقع

الفصل الخامس

الاغلاط الحربية الناشئة عن الاغلاط النفسانية

١ — اثر العوامل النفسانية في الخطط الحربية

اتفق جميع النوابغ في الفنون الحربية على خطورة العوامل النفسانية في الحرب . قال نابوليون « ان معظم الاعتماد في الحرب على العوامل الادبية . فالى الحالة النفسانية والفكرية يرجع اكثر من نصف الواقع »

قد تنشأ الاغلاط الحربية عن امور شتى كقلة الذخائر والمؤن أو جهل بعض الوسائل العلمية الحديثة أو غير ذلك . على ان الاغلاط التي تنشأ عن العوامل النفسانية كثيرة أيضاً . وقد بينا في فصول سابقة خطورة بعض الاخلاق والصفات كالصبر والمجالة والاستنباط وغيرها

ويكفي أن يكون خطأ التقدير في بادئ الحرب جسيماً حتى تتوالى حلقات الفشل . ففي سنة ١٨٧٠ مثلاً كانت الحكومة الفرنسية تعلم قوة الجيش الالماني العامل ولكنها لم تحسب الاحتياطي حساباً ظناً منها أنه أشبه بالاحتياطي الفرنسي القديم النظام في ذلك الوقت

٢ — الاغلاط الحربية التي ارتكبتها فرنسا بناء على اغلاط نفسانية

ليس بين هذه الحرب والحروب التي سبقتها أوجه شبه وجيهة ولكن على الرغم من وسائلها المستجدة لم تخرج عن فعل القواعد الجوهرية العامة التي تصح دائماً ولا يسعنا في هذا المقام تفصيل جميع الاغلاط التي ارتكبت فنقتصر على أشدها وطأة :

لم يكن في استطاعة اركان حربنا قبل سنة ١٩١٤ أن يجهل الطرق الالمانية الحديثة ولكن هناك عاطفة أسميها « عجب الجماعة » عمت أبصارهم وجعلتهم يعتقدون تفوق الطرق الفرنسية . ولم يرجعوا عن تلك الآراء إلا بعد الانكسار الاول اذ علموا انه

لا يمكن محاربة الالمان الا باستخدام طرقهم ووسائلهم . فقد جهل قوادنا خطورة الخنادق والمدافع والمخاض

ولا بد لنا من التسليم بأن التربية العسكرية عنده كانت ناقصة . فان الحرب لم تكن تشب حتى تجلت جميع ضروب النقص التي سببت فشلنا منذ ٤٥ سنة كالاقتدار الى الكشافة ، والعجز عن الاستخفاء في طيات الارض ، والهجوم من بعيد بلا مساعدة كافية من المدفعية . وقد تمكنتنا الآن بفضل قابليتنا للتكيف السريع من اصلاح ذلك الخلل . ولو استدركنا هذه الامور قبل الحرب لاقتصدنا في مالنا ورجلنا . ولقد كان من اسهل الامور على ملحقين العسكريين ملاحظة الطرق الالمانية في المناورات العامة ، بل ان الواجب كان يقضي عليهم بحضورها . ولكنهم لم يفعلوا ، وما ذلك الا لان الافكار القديمة الثابتة في الذهن تمنع قبول ما لا يوافقها من الافكار المستحدثة

ومن جملة الاغلاط النفسانية التي ارتكبها الفرنسيون اخلاهم التحصينات القائمة حول ريمس اعتقاداً منهم بأنها غير ملائمة للدفاع عن المدينة ، فكان ذلك تمهيداً لضرب كاتدرائيتها . والحقيقة ان قليلاً من التحسين والتدبير كان كافياً لجعلها من امنع الحصون . والدليل على ذلك ان الالمان تمكنوا ان يحتفظوا بها زمناً طويلاً من غير ان يسترجعها الحلفاء . ولا يزال الكتاب الحربيون الى اليوم لا يفقهون معنى لذلك الاخلاء . قال احدهم :

لا نعلم السبب الذي حملنا على اخلاء تحصينات ريمس الالمانية وتركها في ايدي العدو حتى انه ما لبث ان استخدمها لرمينا واصبحت نقطة خطيرة يرتكز عليها الجيش الالمانى . فمن تلك الحصون ضربت ريمس بالقنابل واصيبت كاتدرائيتها المقدسة من قبل الدين والتاريخ والفن

اما الاغلاط التي ارتكبها اركان الحرب فكثيرة لان أوهامه كانت عظيمة ، ولكن اعظم تلك الاغلاط اعتقاده بان الهجوم الالمانى يتم من جهة الازراس فقد ترتب عليه حشد جميع الجيوش على تلك الحدود حين كان العدو متجهاً اليها من جهة الشمال . وذلك بالرغم من كل ما كتبه الرجال الحربيون من فرنسيين ولمانين مبدئين حقيقة للمقاصد الالمانية

٣ — اثر الاغلاط النفسانية في الحرب البحرية

وقد كان للعوامل النفسانية تأثير عظيم في الطريقة التي استخدم بها الحلفاء اسطولهم. وفي مقدمة تلك العوامل الحذر الزائد . فقد جاء برهاننا على تأثير العوامل النفسية في العوامل المادية ، فلا ريب انه لو اتبعت اساطيل الحلفاء في البحر المتوسط الطرادين « غوبن » و « برسلو » لكانا منذ زمن بعيد في الاستانة

واليك ما قاله الاميرال ديكوي الفرنسي مبيناً احجام اساطيل الحلفاء وخوفها :

« قد كان الواجب على اساطيل الحلفاء حال نشوب الحرب ان تتخذ خطة الهجوم والعمل بنشاط وجد ... وانه كان من السهل علينا في بدء الحرب ان نضرب الاسطول النمساوي ضربة قاضية ولم يكن المانع من ذلك عدم استعدادنا البحري . وانما نقص معلوماتنا وقصر نظرنا وتحرزنا الزائد كل هذا هو الذي شل ايدينا بدلا من الاقدام — ونعني الاقدام بتبصر وهدوء ورباطة جأش — وهو الشرط الاول لكل نجاح عظيم

وقد بين الكاتب كيف ان احجام الحلفاء في بدء الحرب ولا سيما انكلترا التي كانت على تمام الالهة والاستعداد منع من احراز نصر بحري اكيد . فقد كانت الاسطول الالماني حينئذ يقوم بالمناورات البحرية بعيداً عن مراكزه التي لاغنى له عن الالتجاء اليها للتموين والاستعداد فلو فاجأه الاسطول الانكليزي اذ ذاك لما كان ريب في نصره . ولكنه ترك للعدو مجال التحصين وبث الالغام . وحدث في البلطيق مثل ذلك أيضاً

ثم ان هذه الحرب بينت بعض الاغلاط السياسية التي ارتكبها ساسة الانكليز السالفين . وأهمها منح اللورد سالسبري جزيرة هلجولند لبسمارك سنة ١٨٩٠ (ولا يخفى مكانتها الحربية الحاضرة) مقابل اعتراف المانيا بحماية انكلترا لجزيرة زنجبار . ولعل الوزير الانكليزي ظن صفقته رابحة والحقيقة ان الفرق عظيم بين هذه الجزيرة وتلك

اما من جهة الروس فقد بين الاميرال المتقدم ذكره الاغلاط التي ارتكبوها وهي لا تقل عن اغلاط الانكليز والفرنسيين . فلهم اقتصروا على اتخاذ الخطة الدفاعية منذ بدء الحرب وقد كان في امكانهم الاتيان ببعض الاعمال الجدية . كل ذلك يثبت المبدأ الذي ذكرته سابقاً وهو ان العوامل النفسانية هي روح العوامل المادية ومحركتها . ولا تظهر قوة الماديات ما لم يكن وراءها ارادة قوية تدبرها وتدفعها الى الامام

لسنا نعني بما تقدم ان اساطيل الحلفاء لم تفت بفائدة ما اثناء الحرب . فتمها مع احجامها عن الخطة الهجومية فقد كفى وجودها مجرد لتوسيد سلطة الحلفاء على البحار وشل أيدي الاسطول الالمانى وحصر المانيا حصراً اقتصادياً صارماً

٤ - - - الاغلاط الحربية التي ارتكبوها الالمان

لا يسعنا الا الاعتراف بان اغلاط الالمان كانت اقوى جسامه من اغلاط الحلفاء نظراً لاستعدادهم الطويل ولكنها لا تستخف مع ذلك . وقد بينا أمثلة من قصر نظرهم فيما تقدم

وقد ظن الجنرال برنادي رغم تسليمه بمخاطرة الخنادق ان الالمان لن يستخدموها كثيراً . قل في كتابه « الحرب اليوم »

اما نحن فان ندافع عن انفسنا منزوين في حفر من الارض لان عبقرية الشعب الالمانى تأتى تلك الحرب وانه من العسير على الجندي النشيط ان يستعيز عن المجال الواسع للعمل بالاستخفاء في خنادق محفورة تحت سطح الارض .

وقد أظهر أحد كبار الجنديه الالمانية — نعي المارشال فون در غولتز — ضعف نظر بيتن في تنبؤاته في سنة ١٩١٢ أثر حرب البلقان فقد كانت يجاهر الجميع الصحفيين ان الجيش التركي منصور على الجيوش البلقانية لا محالة فخطأته وقائع قرقليس ولولو برغاس وسقوط ادرنه الخ . . .

ان ادارة العوامل النفسانية اعسر من ادارة المدافع . وقد أظهر الالمان ضعفاً من هذا القبيل واقتصرت وسائلهم النفسانية على خطة الارهاب وسرى عواقبها في

الفصول الآتية

وقد بين الكولونل فايلر السويسري سوء تدبير الالمان وجبلهم القواعد البسيكولوجية قال :

ما برحت الحكومة الالمانية منذ ١٥ شهراً تعد الشعب بنصر قريب الحدوث ولكنه لم يتم ابدأ فمن ذلك وعدها بسقوط باريس في ستة اسابيع ، وسقوط كاليه ، وتخريب لندن بمناطيد تسيلن ، وحصر انكلترا بالفواصات الخ . . .

الباب السادس

المبادئ النفسانية للطرق الحربية الألمانية

الفصل الاول

الاساس النفساني للطرق الحربية الألمانية

١ - غرض الحرب

لا يمكننا ان نرمي الالمان بهمال العوامل الادبية في المعارك . فقد عرفوا قدرها ،
الا انهم لم يحسنوا دائما استخدامها . والمبدأ الاساسي الذي اتفق عليه جميع كتابهم
الحريين هو ان غرض الحرب النصر على العدو واخضاعه بجميع الوسائل المتيسرة .
قال أحدهم « يجب ان تقهر روح العدو وتذل حتى يُنتزع النصر من ايديه » .
وقهر روح العدو يستدعي بعض العوامل النفسانية فضلا عن العوامل المادية
ثم ان الالمان لا يعدون الحرب وسيلة لاذلال العدو واخضاعه فقط بل هي في
نظرهم أفضل طريقة تذرع بها الامة الراقية لبيان تفوقها الادبي على سائر الامم
وكان اول من وضع هذا الرأي الفيلسوف هيجل ، ثم تلاه غيره ممن توسعوا في
شرح مذهبه . واليك ما قاله احدهم في مبحث عن « الحق الادبي للحرب » :

الحرب امتحان بين الامم يكون من زمن الى آخر لمعرفة النسبة الحقيقية بين قواها ونظاماتها
وبيان ما تستحقه كل منها . فالحرب اذا تسهل ظهور الحقيقة . ذلك هو اساسها الادبي السامي
الذي يبين فضلها الاكبر على التاريخ . ورب معترض يقول ان الحرب لا تدعم غير التفوق
المادي . فالجواب ان الحرب الحاضرة تثبت عكس ذلك فهي تظهر ايضا التفوق الادبي والعقلي .
فالحروب هي احكام عادلة يصدرها التاريخ فيرفع بها البعض ويخفض البعض الاخر

وقبل ان نستجلي المبادئ النفسانية التي عمل بها الالمان في هذه الحرب يجدر بنا
ذكر بعض المساعي التي بذلتها الدول المتمدنية لحصر اضرار الحرب بقدر الامكان

٢ — حقوق الحرب

يظهر ان الاغريق تفردوا بين الشعوب القديمة في الاعتراف للحرب بمحدود وقوانين . قل بوليس « لئن كانت الحرب اضطراباً يصيب الامن والحق فان لها مع ذلك قواعد خاصة يجب أن تتبعها »

اما بقية الشعوب القديمة ولا سيما الرومانيون فلم تعرف للحرب حداً سوى ارادة المنصور . فقد كان مطلق التصرف في حياة المغلوبين وممتلكاتهم يحرق مدنهم ويحرق منازلهم ويأمر بقتلهم أو بيعهم أرقاء أو غير ذلك . ظلت الانسانية على هذه الحالة الفطرية زمناً طويلاً . ولم يطرأ عليها تغيير يذكر الا في العصور الحديثة فاصبح المتحاربون يتجنبون قتل غير المتحاربين ويعنون بتطبيب الجرحى الخ .

ويعلم الجميع انه اجتمع في مدينة لاهاي مجمع دولي كان غرضه سن القوانين التي يجب اتباعها في الحرب . ولا ريب في ان مقاصد القائمين بهذا المشروع جميلة تستحق المدح . ولكنهم لو أنعموا النظر لوجدوا ان أحلامهم يستحيل أن تتحقق . فقد فاتهم انه لا قيمة للقانون ما لم يكن مدعماً بقوة كافية تلجئ الناس الى احترامه والعمل به . ولا شك ان اتفاقات لاهاي تضر بالدولة التي تحترمها اذا أهملتها الدول الاخرى . ولقد علم الالمان ذلك فلم يقبلوا تلك العهود الا على امل أن تشل بها أيدي أعدائهم حتى يتفوقوا عليهم . ولم يخطر ببالهم أن يمارسوها بصدق واخلاص

الا انهم بانتهاك تلك الاتفاقات انما يعملون بمبادئ معظم مشترعيهم وفلاسفتهم الذين لم يخفوا احتقارهم لكل معاهدة تقف بالمنصور عند حده معين . فلا قوة في نظرهم حق مطلق لا يستطيع أحد أن يحصره

وجملة القول انهم قد رجعوا الى المذهب القديم الذي لا يعترف بقانون بين الاعداء . وانما الحرب عندهم مظهر من مظاهر النزاع المستمر الذي يجري في العوالم الدنيا

٣ — المبادئ النفسانية التي يعتمد عليها اركان الحرب الالمانى

يكفى ما تقدم لتدرك ان الاعمال الوحشية التي أتتها جنود الالمان والتي جلبت عليهم سخط العالم بأسره لم تصدر عن اندفاع جنود نشتهم خمره النصر فقط

بل هي نتيجة مبادئ وضعها فلاسفة الالمان ونشرها كتابهم الحريون . وقد نخص الاستاذ اندر تلك المبادئ في مقالة نشرتها احدى المجلات الفرنسية بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٩١٥ اليك بعضها :

من اقوال اركان الحرب الالماني : ان الوجهة الادبية التي اتخذها القرن التاسع عشر ترمي الى توطيد الرحمة والرأفة بالناس الى درجة الاحساس الزائد المستهجن . وقد بذلت بعض المساعي لتطبيق تلك المبادئ على الحرب ولكن ذلك مخالف ولكنه الحرب وغرضها الاصلي ... فيجب على الضابط ان يرجع الى تاريخ الحروب القديمة لمقاومة تلك الآراء المتطرفة . وقال كلوزويتس الكاتب الالماني الشهير : ان الذي يستخدم القوة والشدة بلا حجب للدماء ، لا بد ان ينصر عاجلا او آجلا — الا اذا استخدم العدو وسائله نفسها . وان لمن الجهل والغباء ادخال مذهب التساهل والاعتدال في فلسفة الحرب

وقال الجنرال هارتمن : ان الضرورة الحربية تقضي باهمال جميع الاعتبارات التي يسعى القانون الدولي في توطيدها ... وليس للقوانين الدولية ان تعرقل الخطط الحربية ... فالحرب بطبيعتها مناقضة لجميع المبادئ التي تركز عليها المدنية والحضارة ... ولا معنى لقول بعضهم « الحرب المتدنية » . وان الفقر والحرب والدمار وسائل ضرورية لكسر العدو ويكفي تبريراً لها انها تؤدي الى الغرض المطلوب من الحرب . وقال كلوزويتس في موضوع الضرائب والطلب التي ينبغي فرضها على البلاد المفتوحة : لا يجب ان يقف هذا الحق الا عند حد انهاك الشعب وافلاسه وخراجه

وجاء في تعاليم اركان الحرب الالماني : قال هارتمن : ان الطلب الحربية يجب ان تشمل جميع مرافق البلاد بلا استثناء وان تستنزف ثروتها قطرة قطرة ولا ينبغي الاكتفاء بما يلزم من زاد وذخيرة . ويستخلص من ذلك ان الضرورة الحربية لا يجب ان تميز بين الاملاك العمومية والاملاك المحصوية وان لها حق الاستيلاء على كل ما يلزم حينما كان وبأي وسيلة كانت

وقد طبق الالمان هذه المبادئ بشدة منذ ابتدأت الحرب الحاضرة غير عابئين باحتجاج المحايدون على تخريبهم للآثار التاريخية والفنية التي تعد ملكاً للانسانية جمعاء . بل انهم دهشوا لتعرض اولئك المحايدون في أمور يعدونها لهم حقاً لا نزاع فيه

٤ — الوسائل النفسانية التي تستخدمها الجيوش الالمانية

كثيرة هي الوسائل النفسانية التي يستخدمها الالمان كالارهاب والمفاجأة والهجوم الليلي وغيرها ولكنها جميعها تنشأ عن مبدأ واحد وهو التأثير في نفس العدو . واليك أهم تلك الوسائل واحدة واحدة :

١ (الارهاب) — هو المبدأ الاساسي الذي يعتمد عليه قواد الالمان وهو أصل

الذابح والخرائق . ولما كنا سندرس تأثيره في فصل تال تقتصر هنا على كلمة اجمالية :
سعى الالمان منذ بدء الحرب في نشر رهبة والخوف بين اعدائهم فحربوا المدن
وقتوا الاهلين وسجنوهم وطلبوا منهم طلبت بعظمة . ولكي يلقوا الرعب في القلوب
لم يترددوا في هدم الآثار المحبوبة . وانه بعد الآن النظام الذي اتبع لتنفيذ تلك الخطة
في معظم مدن البلجيكت وقراها : فقد كانوا يجمعون السكان كلهم في مكان معلوم
فيرمون البعض منهم بلرصص ثم يسلبون المنازل ويحرقونها
تلك هي الاعمال التي كان يأتونها الالمان في رائعة النهار والتي يفاخر بها قوادهم .
قال الجنرال فون بولو في ماشور لاعالي لياج بتاريخ ٢٢ اغسطس ١٩١٤ « ان القائد
الاماني الذي أحرق جهة اندن كلها وقتل مئة من الاهلين انما فعل ذلك بموافقتي التامة »
على ان هذه الوسائل الوحشية هي خير ما يتباهى به قواد الالمان محافظة على
تقاليدهم منذ قديم الزمن

﴿ جعل ميدان الحرب في أرض العدو ﴾ ولكي يتمكن الالمان من استعمال
وسائلهم المتقدمة تراهم يبدلون جهدهم لجعل ميدان الحرب في أرض العدو . وهو مبدأ
أساسي يعتمد عليه اركان الحرب الالمانى وقد احتاط لتنفيذه بجميع الوسائل الفعالة
كالاكثر من السكك الحديدية والاسراع في حشد الجيوش وغير ذلك
ولقد بلغ تمسك الالمان بهذا المبدأ ان حرمة البلجيكت لم تقف دون تنفيذه حتى
عرضوا أنفسهم لعدوان افككترا

ولاريب ان لمحاربة العدو في أرضه فوائد عظيمة اهمها الاستيلاء على مرافقه
الاقتصادية ومصادره المالية . قالت احدى الجرائد الالمانية شارحة هذه المسألة :

تقضي خطتنا باستجلاب اقل ما يمكن من المانيا لتكوين الجيش . والاستفادة بكل ما يمكن
من البلاد المفتوحة ليس للجيش فقط بل لالمانيا ايضاً
وفي الاشهر الثلاثة الاولى كان اربعة اخماس مؤونة الجيش من البلاد المفتوحة . ولا تزال منها
الى اليوم ثلاثة اخماسها فكان جيش الغرب وحده يكسب المانيا يومياً مبلغاً يتراوح بين ٣ و ٤
ملايين مارك (شان) . هذا فضلاً عما يتيسر نقله الى المانيا والاستفادة به ولو اضفناه الى ما تقدم
تضاعف المبلغ

﴿ الهجوم بصفوف كثيفة ﴾ ولكي يبلغ الالمان الغرضين السابقين — أي
ارهاب العدو ومحاربه في بلاده — هجموا أفواجاً عظيمة متكاثفة

ان هذه الخطة تستدعي استعداداً طويلاً ولا تتم بجيش العامل وحده بل يجب أن يشترك فيها الاحتياطي كله . والارجح اليوم ان المانيا استخدمت مليونين من الجنود لاكتساح فرنسا

(وسائل شتى للارهاب) لم يحجم الالمان عن استعمال جميع الوسائل التي ظنوا انها تؤثر في نفوس الاعداء فمن تلك الوسائل الهجوم الليلي والغازات الخائقة والقاء القنابل من المناطيد الخ . . وقد لا يكون للوسيلة التي يستخدمونها غرض سوى التأثير المعنوي كالقاء القنابل على المدن مثلاً فقد دل الاختبار ان الاضرار المادية التي تاتيها طفيفة

ومن الاعمال التي اتاها الالمان عملاً بهذا المبدأ ضربهم بعض المدن الصغيرة على الساحل البريطاني فقد كان دون هذا العمل اخطار جسيمة كالاتقاء باسطول من اساطيل العدو أو الاصطدام بالالغام المبتوثة تحت سطح الماء . ولكن ذلك لم يثن الالمان عن عزمهم

ويمكننا أن نذكر في هذا الباب أيضاً اغراق الباخرة لوزيتانيا وغيرها . ولكن تأثيرها في نفوس المحايدين كان شديداً جداً حتى خسرت المانيا ما كان باقياً لها من ودة وميل عندهم

(المفاجأة) مهما يكن العمل الحربي الذي يريد الالمان اتيانه فلهم يذلون جهدهم لاتيانه على غرة ، ولذا تراهم يكثرون من الهجوم الليلي . قال أحد الكتاب الحربيين:

لا يخشى الجيش بالنظر الى قوته بل بالنظر الى ما ينطوي تحت تلك القوة من العوامل المجهولة . فان الخوف يتأتى عن ابهام الخطر وجهل حقيقة اكثر منه عن احداقه ووقوعه

الفصل الثاني

تطبيق مبادئ اركان الحرب الالمانية : الاحراق والقتل والسلب

١ — قصص القتل والنهب والاحراق عن دفاتر الاسرى الالمان

ليست الحوادث التي سنأتي على ذكرها إلا نتيجة الطرق التي يستخدمها الالمان والتي اساسها كلها : الارهاب

وبعض تلك الحوادث لا يتيسر اثباتها اثباتاً تاماً لا يقبل الشك . فان الالمان ينكرونها بمجملها . ولكن الادلة والبراهين قد تواتت من مصادر مختلفة حتى أصبح انكارها متعذراً ، بل لدينا اعترافات صريحة وجدناها مدونة في دفاتر الاسرى الالمان ومذكراتهم

وقيمة هذه الادلة موقوفة على مصدرها اكثر من وقوفها على عددها . فاننا نعلم يقيناً ان ملوك الاشوريين كانوا يفتقون عيون الاسرى بأيديهم وان لم يكن لدينا مستندات كثيرة ، وانما يؤكد لنا ذلك اهتمامهم بتصوير أنفسهم وهم يقومون بهذا العمل فيما تحته من الصور على جدران قصورهم . ومثلها الاعترافات المستخلصة من الدفاتر الالمانية فلها في قوة اليقين . واليك امثلة شتى مقتطفة من بعضها نقلها عما نشره الاستاذ بديه في « مجلة باريس » بتاريخ اول يناير سنة ١٩١٥ :

٣ سبتمبر سنة ١٩١٤ في سومي (جهة الماردن) — تذييح فظيع . احراق القرية

الى مساواة الارض ورمي الالهة في المنازل الملتهية حتى يحترقوا معها

٢٤ اغسطس — قد احرق قرية جه دوسيس الجميلة (في الاردن) وان يكن أهلها

أبرياء على ما يترأى لي . فقد قيل لي ان أحدهم كان راكباً دراجة فوق وقع عنها فجأة فسببت الصدمة اضلاق بندقيته . فكانت نتيجة ذلك ان صوبنا الرصاص الى جهته ورمينا بالالهة الذكور في النار . . . بهذه الطريقة هدمنا ثمانية منازل وفي واحد منها ضربنا بالحراش رجلين وامرأتين

وقتا عمرها ١٨ سنة وقد أوشكت تلك الفتاة ان تنال رحمي فان منظرها كان ممثلاً طهارة !

٢٥ اغسطس (في الباجيك) — قد رمينا ٣٠٠ من اهل المدينة بالرصاص واستخدمنا

الباقين في مهمة الحفر . وكان ينبغي ان يشاهد منظر النساء في تلك الساعة !

وفي التاريخ نفسه نشر الجنرال ستنجر قائد الفرقة الثانية والخمسين أمراً الجنود بقتل جميع الاسرى قال فيه :

« منذ اليوم لا ينبغي ان يبقى أحداً في أسرتنا بل يجب ان نقتل جميع الاسرى وجميع الجرحى سواء كان لديهم سلاح او لم يكن . وكذلك يجب قتل افواج الاسرى الذين جمعناهم خلف خطوطنا — وذلك كي لا يبقى وراءنا عدو حي

هذا قليل من كثير . وقد نشرت مقتطفات من هذا القليل وبجانبها صورتها الاصلية بخط كاتبها حتى لا يبقى ريب في صحتها . ومن المتظار ان ينكر الالمان كل عمل فطيع ولكن لا سبيل الى انكار ما دونه جنودهم وضباطهم بخط أيديهم

٢ — قصص القتل والنهب والاحراق من مصادر شتى

ان الحوادث التي دونت في بعض التقارير الرسمية والمصادر الاخرى لا يمكن الاعتماد على صحتها كصحة الاعترافات المستخلصة من الدفاتر المتقدم ذكرها . ولكنها تثبت ما جاء في تلك الدفاتر ، ولذلك نقل بعضها . واليك فقرات من تقرير اللجنة التي القتها الحكومة البلجيكية لجمع الاخبار المتعلقة بنكبة مدينة دينان :

... وحلما انتهى الجنود من التخريب والسلب احرقوا المنازل . فلم تلبث المدينة قليلاً حتى أصبحت أشبه شيء بجحرة عظيمة مستمرة . وبالجملة ان مدينة دينان تلاشت بأسرها تقريباً — كان فيها ١٤٠٠ منزل فلم يبق قائماً منها سوى ٢٠٠ ولدى اللجنة قائمة بأسماء الضحايا الذين قتلوا في دينان وهي تحوي ٧٠٠ اسم فضلاً عن الذين لم تعلم أسماءهم . ومن ذلك العدد ٧٣ امرأة و٣٩ ولداً يتراوح عمرهم بين ستة اشهر و ١٥ سنة وقد كان في دينان ٧٦٠٠ نفس أملاك عشرهم على أقل تقدير . فلا تجد أسرة لم تفقد أحد أعضائها وبعض الاسر تلاشت كلها

وجاء في جريدة الطان بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٤ عن مذبح دينان ما يأتي :

قد قتل بعض الاسرات جيماً رمية بالرصاص . ولكي يتم القتل بسرعة اضطر الالمان الى استعمال مدفعين رشاشين في مكان عمومي فسكنا بخمسة امان مائة الالهين المجموعين في ذلك المكان رجالاً ونساء واولاداً

وفي تاريخ ٣١ ديسمبر نشرت الجريدة نفسها شيئاً عن معاملة الالمان للاسرى

قالت :

في ٦ سبتمبر انزع السلاح من الفارس باكلاند ثم ربط الى شجرة وطعنه أحدهم بحربة اخترقت جوفه . وفي تأمين أني بضابط فرنسي كبير ووثق الى جذع شجرة ثم ربطت كل من رجليه الى فرس وما هي الاهنية حتى ضرب الفرسان وانزع أعضاء ذلك المسكين . قال الشاهد

مرتجفاً » ولقد رأيت بعيني لباسه يترقق وجسمه ينقطع ! »

ونشرت الفيجارو بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩١٥ القصة التالية التي جرت في لوانجوي :

اتي بشيخ هرم فربطت رجلاه باسلاك حديدية أدمته وابكته ثم علن على باب وظل معلماً عشرين ساعة حتى قضى نحبه ولا سميع لندائه ولا مجيب لتضرعته

ومن أفضع فظائع الالمان ما اتود في مدينة لوفن . قل المسيو فوجلستر السويسري الذي كان يقطن المدينة اذ ذاك قفلاً عن جورنال جنيف بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩١٥ ما يأتي :

بدأ اللذخ والاحراق في وقت معين اثر اشارة متفق عليها ولا يستطيع الناس ان يصف هول ذلك المنظر ! ولم يلبث الجنود قليلاً حتى تمايلوا سكرًا واتوا اعمالاً لا يعرف لها اسم . وكان الضباط يصدرون الاوامر الى أولئك الجنود . قال الشاهد : لقد سمعهم بأذني يأمرونهم قائلين « اقلوا واحرقوا كل ما تجدونه » وان من العسير الآن تقدير الذبائح والخسائر بتامها . وقد كان السكان يبلغون ٤٣٠٠٠ فاصبحوا لا يزيدون على ٢١٠٠٠

وقس على ذلك

والكي يبرر الالمان تلك الاعمال البربرية التهموا الاهلين بانهم ناصبوهم العدوان وبادروهم برمي الرصاص . ولكن على فرض اننا صدقنا شيئاً من تحككتهم فبماذا نعلل صنوف العذاب التي ذقها السائحون الروس في البلاد الالمانية عند أوائل الحرب . فقد كتب المسيور زانوف كتاباً يصف فيه ما تم لاولئك الساكنين لخصته مجلة العالمين بتاريخ اول اغسطس سنة ١٩١٥ ، والذي يميز تلك الاعمال الفظيعة ان مرتكبها من الضباط والمتعلمين لا من عامة الجند . ومن جملة ما ذكره الكاتب :

ان الشابات كن يفتكن على مرأى من والديهم فاذا دفع السخط هؤلاء الساكنين الى الاحتجاج والاعتراض كانوا يرمون بالرصاص للحال . وكثير من هم الذين انتحروا او اسيبوا بدخل من بينهم . هذا فضلاً عما وصوا به بعض الرجال ومنهم بعض القناصل من الرذائل الشنيعة التي لا يجري القلم في وصفها

على ان تلك الصفات ليست من المستحدثات بين الالمان والتاريخ يثبتنا ان سلوكهم لم يكن أشد تأديباً في الحروب الماضية . قل ولتين سنة ١٨٠٧ يصف فرقة المانية كانت تحارب تحت قيادته :

اؤكد لكم ان الاخلاق في تلك الفرقة الالمانية هي هي من قائدها الى أحط جندي فيها . فلم

تلد الارض انساناً أشد فظاعة وأحط أخلاقاً من أولئك القوم : فقد كانوا يقتلون ويسلبون كل من يلقونه في طريقهم

ويشبه اكتساح الالمان للبلاد المتمدنة في هذا العصر اكتساح أسلافهم الجرمان للإمبراطورية الرومانية . فقد كان الجوع يدفعهم الى اراضيها الغنية ، وكثيراً ما كان الامبراطرة الرومان يقتلونهم أفواجا . ويقال ان الامبراطور بروبس وحده قتل منهم ٤٠٠.٠٠٠ نفس

لا ريب ان تدمير الآثار الدينية في لوفان وسواسون وريمس واراس وغيرها ما كان ليتم لولا موافقة امبراطور المانيا . وتمجد تعليل ذلك في كرهه الشديد للمذهب الكاثوليكي كما يستدل من بعض كتاباته . وهذه فقرة من كتاب أرسله الى قرية له اعتنقت ذلك المذهب : « اني اكره الديانة التي اعتنقتها واعتقد ملاشاتها القصد الاول من حياتي »

وقال في خطبة له تقرأها جريدة « لا فرانس » بتاريخ ٣ اكتوبر سنة ١٩١٤ :

ان الكنائس الكاثوليكية التي يطالب اليكم تبجيلها ليست في الغالب سوى اهانة لله القادر على كل شيء . فان له فيها مقاماً ثانوياً في حين ان المقام الاول للقدسين وما هم الا اصنام حديثة احلتها الحرافات اللاتينية محل الله . بل ان في كاتدرائية ريمس صور بعض ملوك فرنسا الفاسدين في مضاف الصور المقدسة وبعضها مقدم على صورة الله نفسه

واعمل تلك الاسطر تساعدنا على ادراك شيء من البواعث التي حملت على تخريب تلك الكاتدرائية

٣ - الفظائع المنسوبة

لم يكن سلوك المنسويين عند اكتساحهم السرب باكثر رافة من سلوك الالمان في البلجيك . قال الاستاذ ريس السويسري (من جامعة لوزان) الذي درس الحوادث في مكان وقوعها :

اليك طرق القتل والتشويه التي وقفت عليها مما استعمله النسيويون : الرمي بالرصاص . الطعن بالحرايب . قطع الرقبة بالسكين . الاتهاك فالقتل . الرمي بالحجارة . الشنق . الضرب المستمر . اخراق البطن . احراق الاحياء . بتر الاعضاء من ارجل وآذان وأنوف . قلع العيون . قطع الاندية . كشط الجلد . وأخيراً رمي طفلة لم تبلغ ثلاثة أشهر من العمر طعاماً للخنازير

ويذكر القراء الفظائع التي حدثت اثناء الحربين البلقانيتين . ولكن المتمدنون

قولوا إذا ذلك أن أهل البلقان هميج تعودوا التذبح والقتل منذ عيد بعيد !
على أنه لا يمكن تبرير الألمان بهذا المذبح ولا بد من الاعتراف بأن أرقى درجات
المدينة لا تقلل من توحش الإنسان

٤ — خطة الارهاب وعوائدها الوحشية

يتذرع أركان الحرب الألمان بالتبرير حوادث القتل والاحراق بقولهم أن الارهاب
ضروري لتخويف المغلوب وحمله على طلب الصلح . ولقد استعمل الارهاب منذ
زمن قديم في إبان الثورات وغيرها ، واستعمله الملوك أيضاً للتأثير في نفوس أعدائهم
وتخويف الذين يترددون في الخضوع لهم . هذا فضلاً عن أن مشاهدة الألم والعذاب
مما يسر الغرائز الوحشية المستقرة في بعض الطبائع البشرية
ومن أمثلة الارهاب ما ذكرناه من أن ملوك الاشوريين كانوا يفتقون عيون
اسراهم ويكافون جنودهم كشط جلودهم وهم أحياء لتكسى بها اسوار المدينة
وقد كان الرومانيون أيام خشونتهم يعدون كل غريب عدواً وكانوا لا يراؤون
بأسراهم ابداً ، ولكن ذلك التوحش تلطف تدريجاً . وقد مدح شيشرون القائد
مارسلس لأنه لم يمس آثار سيرا كوز بأذى
أما الألمان اليوم فقد رجعوا بوسائلهم الوحشية الى أبعد أزمنة التاريخ فنظموا طرق
القتل والنهب والعذاب . وما برح رجالهم يبشرون بضرورة هذه الوسائل قال
بسمارك سنة ١٨٧٠ :

إن الخطة الحربية الصحيحة تنفي بضرب العدو ضربة شديدة ويجب قبل كل شيء أن يحمل
أهل المدن كل ما يمكنهم حمله من صنوف العذاب حتى يسأموا القتال ويجبروا حكومتهم على طلب
الصلح . فلا ينبغي أن يترك للأهلين سوى عيونهم كي تذرف الدموع

وقد علمنا كيف أتبع الألمان هذه النصائح حرفاً بحرف فأحرقوا معاً القرى والأهلين
نساء واطفالاً وأذاقوهم صنوف العذاب . ومن العبث الآن أن نبحث في تلك الاعمال
الشنيعه من الوجهة الادبية القانونية . وإنما الميسور لنا أن ندرس نتائجها

كانت عاقبة تلك الوسائل غير ما انتظر الألمان . فقد جلبت عليهم سخط العالم
اجمع وأوجدت لهم أعداء في كل مكان

زد على ذلك أن الارهاب لا يأتي بالنتيجة المطلوبة الا اذا كان قصير الاجل . فانه

اذا طال استعمله ولد في نفس العدو عاطفة البغض الشديد وهي من العوامل الخطيرة المؤدية الى النصر . فكل رأى الشعب المغلوب الحالة التعيسة التي آمنت به فضل الموت على الرضوخ لذلك الحكم الجائر

قلنا ان المقاومة تزيد اذا طال الازهاب . هذا فضلا عن الذكر السيء الذي يبقى في النفوس . فقد كان جزء كبير من تجارة البلجيكي قبل الحرب في يد الالمان . فهل تعود اليها بعد الصلح ؟ الارجح انها لا تعود

ثم ان استعمال فريق لوسائل التوحش يفرض ان العدو ان يتمكن من دخول ارض ذلك الفريق للثأر منه . وهذه مسألة فيها نظر ولا يدري أحد ما تحبته الاقدار ، حتى نابوليون رب الحرب لم يلبث ان اعبت به أيدي الدهر ورمته على صخرة القديسة هيلانة

٥ — تبرئة الالمان لانفسهم

أنكر الالمان أولاً جميع ما نسب اليهم من الاعمال الفظيعة ثم أخذوا يبررونها مدعين انهم انما قابلوا تعدي الاهلين بمثل

ولا يخفى ان المستشار الالماني اتهم فتيات البلجيكي على منبر الريشتاغ بأنهن كنّ يفتقن عيون الجنود الالمان . ولتهمت الجرائد الالمانية قسوس البلجيكي بأنهم كانوا يفتقنون عيون الاسرى ويقطعون أصابعهم

ولكن شتان بين هذه التمهكات المقارعة والحوادث المثابتة التي اتهاها الالمان !

على ان هناك أمراً ما عثم ان تقض جميع دعاوي الالمان . وهو انه ما برح بين البروتستانت والكاثوليك في المانيا منافسة شديدة . ولما كان البروتستانت قد تعودوا ان يتبعوا الكاثوليك باتيان الاعمال الشنيعة على انواعها فقد أنشأ هؤلاء منذ مدة بعيدة وكالات للتجري والتحقيق فخص بالذكر بينها مكتب ياكس Pax . وبما ان التهم الموجهة ضد الكاثوليك تعد — ان صحت — وصمة عار على الدين الكاثوليكي فقد قام مكتب ياكس بتحقيق التهم المتقدمة حتى اضطر الحكومة الى الاعتراف بأن ما نسب الى الكاثوليك هو عرض اختلاق

ثم ان الالمان قد برروا احراق المدن المفتوحة كلوفان مثلاً بقولهم ان المدنيين تعدوا

على الجنود في حين أنه ينبغي لهم أولاً تجنب أي مداخل في الأمور الخيرية . على أنهم ما لبثوا مدة قصيرة حتى نقضوا تلك القاعدة بأنفسهم . بذلك على ذلك اعلان نشر على سكان بروسيا الشرقية حين كتمسح الروس جاء فيه :

عندما يتعدى العدو حدود الامبراطورية الألمانية تبدأ الحرب تدافع عن الوطن يحوز فيها استعمال جميع الوسائل . ومن الواجب على كل رجل قدر على حمل السلاح ان يصد هجوم العدو وان يطارده . وينبغي لجميع الاهلين أن يتسلحوا لجمع العدو متنبهاً مشغولاً . ولمنع الزاد والمخيرة عنه . وسر كشافته وتدمير مستشفياته بكل الوسائل المتيسرة . وانقاذاته ومقاتلته لئلا

٦ - التعليم النسائية المستخلصة من طرق ادرهاب

ظن فريق من العلماء ان تقدم المدنية الذي رقى العقل والعلم قد أثر في العواطف والغرائز فجاءت هذه الحرب تنقض ذلك الوهم وتبين ان القوانين او المنظمات الاجتماعية تخبي تحتها الروح الممجية التي أورثنا اياها أسلافنا الاقدمون — حتى اذا ما خف عنها الضغط ظهرت بأشنع مظاهرها في العالم والجاهل على السواء . لان الوسائل التي ترقى العقل والعلم لا تؤثر في الغرائز والاخلاق ، والتعليم الذي يكتسبه المرء في المدرسة قلما يؤثر في عواطفه

نرى مما تقدم كيف يكون مستقبل الجنس البشري لو عمت تلك الروح الألمانية جميع الشعوب المتمدينة . ومن الغباوة أن تمسك دولة بالقوانين الدولية والانسانية في حين ان العدو لا يعرف قانوناً يقفه عند حده

ونرى أيضاً كيف رجعت الانسانية الى الوراء وضعت فيها الرأفة والشفقة . ويكفي للاقتناع بذلك ان تقابل الاعلانات التي كان يذيعها نابوليون بونايرت على جيشه في ايطاليا اثناء حملته عليها والاعلانات التي يذيعها قواد الالمان مرددين فيها عبارات القتل والسلب والاحراق

ويظهر جلياً ان جميع العوامل التي اعتمد عليها الناس لتلطيف العلاقات بين الدول كالروح الاشتراكية والروح الانسانية واتفاقات لاهاي الخ . لم تجد نفعا

واننا نؤمل أن تجمع الفطائع الألمانية بعد الحرب في كتاب يتعلمه الاولاد في المدارس ولا سيما أهل المقاطعات القريبة من المانيا حتى لا يذهب عن ذاكرتنا ما يترتب على اكتساح الالمان وحتى تضطر الحكومة الى التيقظ على الدوام

الفصل الثالث

اثر الطرق الحربية الالمانية في المحايدين

١ — الاثر النفساني للطرق الالمانية على آراء المحايدين

لم يعر الالمان في أول الامر ادنى التفات لاحتجاج العالم أجمع على الفظائع التي ارتكبوها . فقد كانوا ينفذون خطة مرسومة لهم باقل جزئياتها ولكن تأنيب المحايدين أخذ يتزايد حتى لم يستطع الالمان غض النظر عنه . فقد ادركت الحكومة الالمانية انه اذا كانت القوة تقدر على سحق الحق فإن التماذي في استعمالها يؤد عدواناً لا يلبث ان يصبح قوة يعتد بها .

علمت المانيا جلياً ان التماذي في الفظائع التي ليس لها قيمة حربية انما هو خطأ نفساني ، اذ يتعذر على المانيا بعده ان ترغب في رقي مدينتها وسيطرتها على الدول الاخرى فحالما شعر الالمان بخطأهم سعوا بجميع الوسائل لاستمالة الرأي العام فاستخدموا لذلك الجرائد والرسائل والمحاضرات وغيرها . ولكن لسوء حظهم ان تيار السخط كان قد بلغ زخماً شديداً جداً وان فظائعهم كانت واضحة جلية يتعذر انكارها . وقد اعترف الالمان أنفسهم بفشلهم في مساعيهم فقد قالت غزرت كواونيا ما يأتي :

ان المساعي التي تبذلها المانيا اليوم لاستمالة المحايدين بواسطة الصحافة قد أنت متأخرة فضلاً عن كونها لا تتم دائماً بالحدادة اللازمة

يجب الاعتراف بان مهارة الالمان — ولا سيما البروسيون — لا تنيلهم دائماً بحجة الاجانب وليس من ميزات التوتون تدبير عواطف الامم الاخرى وحسن التصرف بها

وسنذكر الآن احتجاج نفر من اكابر الممثلين لشعوب مختلفة على الفظائع الالمانية . وهو درس لالمانيا ولكل دولة تود الاقتداء بها ، يبين ما تجلب الطرق الالمانية من السخط على مستعمليها وكيف تخلق لهم اعداء في جميع انحاء العالم

٢ — التأثير في اميركا

اول من نذكر رأيه المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة الاسبق ، فقد كتب

في جريدة نيويورك تيمس بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٩١٥ ما يأتي :

ما تعترف البلجيكيك ذنباً ما ولكن أرضها أثبتت رغم ذلك وأخضع أهلها
ولقد ثبت الآن أن بعض المدن المفتوحة قد ضربت بالمدافع خلافاً لاتفاقات لاهاي الصريحة .
ثم إن ذلك الاتفاق يمنع أيضاً معاقبة جماعة من الألمان على ذنب اقترفه بعض الأفراد ولكن
الألمان دمروا مدناً بأسرها كفيزه ونوفن وبرايشوف وديشان . زد على ذلك أن الألمان قصدوا
الأرهاب لا العقاب

وكتب الدكتور أليوت وهو من أكبر رجال أميركا ورئيس جامعة هارفرد
الشهيرة سابقاً إلى جريدة نيويورك تيمس بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٩١٤ يقول :

أقد تأثر الرأي العام عندنا تأثيراً عظيماً من جراء الوسائل الحربية التي يستخدمها الألمان
فانه يستحيل في نظر الشعب الأميركي أن يجرى القاء القنابل من السفن الهوائية على المدن الآهلة
بغير التحاريل ، وإحراق أحياء المدن غير المحصنة ، وتدمير الآثار الفنية الثمينة ، وبت الاتهام العوامة
في البحر الشمالي وفرض الفرائب الباهظة على مدن أصبحت على سفار الخراب ، والقبض على مدنيين
بدون سلاح وجعلهم رهائن بحيث إذا حدث اضطراب قتلوا جميعاً

وكتب المستر تشرش رئيس معهد كارنيجي الشهير رداً على منشور العلماء الألمان
الذي بعث به إليه الدكتور شابر الألماني قال :

اني أشعر بالرأفة عندما أرى المساعي العظيمة التي يبذلها الألمان لاسترجاع ثقة أميركا بهم
ألا قل لي أيها الدكتور على فرض أن الاحوال انقلبت وأن جنوداً أجانب دخلوا برلين
ورآهم أهلها ينجون ويقتلون هل تغلب من هؤلاء المساكين أنت والثلاثة والتسعون عالماً
الذين أمضوا المنشور أن يبقوا مكتوفي الأيدي ولا يثاروا من أولئك المقتصبين ؟
لم يكن لكم عذر في شهر الحرب فقد كنتم بفضل أساحتكم وحصولكم في مأمن من تعدي
أي دولة عليكم وكانت سفنكم تنقل سلمكم الى جميع جهات العالم والناس يثقون بدوائكم
لأنها دولة انسانية . أما الآن فقد خسرتم كل ثقة ولن يتيسر لكم في نصف قرن استرجاع ما
فقدتموه من المسكنة الادبية والمادية

٣ — الرأي العام في سويسرا وغيرها من الدول المحايدة

قد كان جزء من سويسرا ميالاً للألمان ولكنه ما لبث أن تحول حالماً بلغته
أخبار المذابح والاحراق في البلجيكي . قال المسيو روسل أحد قضاة سويسرا :

إن اكتساح لوكسمبرج رغم اتفاق سنة ١٨٦٧ واكتساح البلجيكيك رغم اتفاق سنة ١٨٣١
زلتان لا عذر لهما . ولا يكفي البحر كله لنقل وصمة العار التي لحقت ألمانيا من جرائمها
متى أصبحت الدول لا تحترم ما يعده الأفراد في معاملتهم أمراً مقدساً — نعي الامضاء —

فاعلم أن المدنية في خطر . إذ علام تقف الثقة في المعاملات الدولية ؟ وما قيمة المعاهدات إذا كانت عرضة لتزييق القوي ؟ هل يكفي عذراً عن تلك الاعمال الشنيعة ان الاسلاف اتوا مثلها أو افظم منها ؟ أمليس إذاً من اثر لتسعة عشر قرناً مرت على العالم المسيحي ، والعلوم والفنون التي حصلها الانسان . ولقي التشريع ، ولجميع ما أنتجته القرائح البشرية من الاعمال السامية ؟ . . .

وكتب الاستاذ هنري بوجي السويسري مقالة عن « الرأي في سويسرا » نشرها في مجلة العالمين بتاريخ ١٥ افريل سنة ١٩١٥ تقطف منها ما يأتي :

منذ اول الحرب هاج سخط الرأي العام السويسري على ألمانيا اثر اختراق البلجيك وائر الخطاب المملوء وقاحة الذي القاه المستشار الألماني لتبرئة ذلك العمل . نعم ان فريقاً كبيراً من الاهالي والصحف في الجزء الألماني الاصل من سويسرا كان ميالاً في البدء الى ألمانيا نظراً للرابطة الجنسية واتفق المصالح . ولكن بعد الفظائع التي ارتكبت في البلجيك وفرنسا — بعد تخريب مابن ولوفان وتتويج هذه الاعمال بضرب كاتدرائية ريمس — تحول الجزء الاكبر من الاهلين والصحف على الالمان واحتج الكثيرون على تلك الفظائع ، حتى ان الاستاذ فتر نفسه وهو اكثر السويسريين ميلاً الى الالمان كتب رسالة مفتوحة شديدة المهجة الى علماء ألمانيا اثر جريمة انتهاك لوفان

اما الدول الاخرى المحايدة كهولندا والدانرك ونروج فلم يكن الرأي العام فيها جلياً واضحاً كما كان في اميركا وسويسرا . على انها قريبة جداً من ألمانيا تخشى صولاتها وتوحشها . ومثال البلجيك كاف لمنع الناس فيها من ابداء آرائهم بحرية أما في اسبانيا فقد انقسم الناس حزبين وقد كان الكاثوليك — على الاقل في اول الامر — متعصبين لألمانيا . ويجدر بنا هنا ذكر شيء مما كتبه رامون كاجال اكبر علماء اسبانيا قال :

قد كان أسلافنا سكان الكهوف يسلبون ويقتلون بصراحة من غير أن يزيدوا المصاب بنظريات وكتب فلسفية . أما اليوم فان المعتدين لما شعروا بقوتهم اخذوا ينشرون المؤلفات الطويلة ليس فقط لتبرئة جريمتهم وعنفهم بل ليبرهنوا على انهم شعب مصطفى من بين سائر الشعوب يجوز له ما لا يجوز لغيره

الباب السابع

مجهولات الحرب

الفصل الاول

النتائج المباشرة للحروب الحديثة

١ — تمهيد

كثيرة هي نتائج الحروب الحديثة ، وتأثيرها شديد مستمر . فقد شعرت فرنسا بوطأة انكسارها في سنة ١٨٧٠ مدة نصف قرن تقريباً ومن المستحيل الآن استجلاء عواقب الحرب الاوربية كلها فساقتصر على خلاصة اذكر فيها ما بينه الاختبار من النتائج المتشعبة التي تنشأ عن الحروب الحديثة ، وانفقات التي تستدعيها ، والاثار النفساني الذي يترتب عليها على انه يتعذر مشابهة الحرب الاوربية بالحروب السالفة . فان التاريخ لم يعرف نزاعاً بلغ ضخامتها وهولها . فلا عجب ان تكون نتائجها فريدة في عظمتها وشدها . وان لمن العسير اليوم استكشاف تلك النتائج — سواء في ذلك المادية والنفسية — نظراً لتشبكها وتداخلها

٢ — آثار الحروب الحديثة

كان حشد الجيوش في الزمن القديم أمراً سهلاً جداً . فقد كان كل جندي يحمل معه أسلحته وزاده الضروري وهو في الغالب قاصر على كمية من الدقيق يخبزه بنفسه اذا لم يتمكن من الحصول على شيء في البلاد التي يمر فيها . ومتى حاصر الجيش احدى المدن كان يصنع الآلات اللازمة له في اثناء المحاصرة — كالمنجنيق مثلاً وغيره

أما اليوم فإن الجنود والمؤن والدخائر والراد اللازمة تستدعي مدينة متنقلة تحوي المعامل والمخازن والبوسطة والتلغراف والمستشفيات الخ . فكل هذه العناصر لا بد من وجودها خلف صفوف القتال ولولا ذلك لتعذر القيام بأقل عمل حربي ونظراً لاتساع ميادين القتال وما تستدعيه من انتقال الجنود بلا انقطاع قد أصبح من الضروري وضع نظام واسع متشعب للسكك الحديدية واللاتوموبيلات حتى يتيسر تموين الجنود ونقل الجرحى بسهولة

ان الاوردي المؤلف من ٤٥ ٠٠٠ رجل و ١٢ ٠٠٠ فرس وألفي عربة يبلغ طوله على الطريق المستطيل خمسين كيلومتراً . ولكي ينتقل يلزمه مئة قطار حديدي على الاقل وجملة القول ان نظام النقل أصبح من الخطورة في المكان الاول . ويعلم الجميع ان نقصه كان من البواعث على تهقر الجيوش الروسية بعد دخولها غاليسيا في حين ان وسائل النقل عند الإعداء كانت متوافرة تمكنهم من نقل جيوشهم بسرعة عظيمة من مكان الى آخر

ولكل اوردي في الجيش اركان حرب (مؤلف من ٥٠ ضابطاً و ٣٠٠ رجل و ٢٠٠ فرس و ٣٥ عربة) تصدر منه جميع الاوامر والخطط والاوردي هو وحدة مستقلة ، ولما كان لا يحمل زاداً او ذخيرة لأكثر من ثمانية ايام فلا بد خلفه من ادارات ومصالح تموينه . ويتلقى قائد كل اوردي أوامره مباشرة من القائد العام اما تلغرافياً أو تلفونياً

ولكي يدرك القارئ خطورة السكك الحديدية يجب أن يذكر ان حشد الجيوش الفرنسية في عشرين يوماً استدعى سفر ١٠ ٠٠٠ قطار

ولا يبرح الذهن ما يترتب على شغل وسائل النقل بتوريد المؤن والمهام الحربية من التغيير المحسوس في حياة الامة وعلاقتها الداخلية والخارجية اذ تصبح المصانع والمعامل ولا هم لها سوى تموين الجيوش . فينجم عن ذلك نقص عظيم في الصادرات كما حدث لمانيا وفرنسا فقد هبطت فيهما الصادرات هبوطاً عظيماً . ومن جهة اخرى فقد ازدادت الواردات لان الدول المحايدة تجلب من الخارج كل ما تستطيع جلبه . ولما كان التصدير يزيد الثروة الاهلية لان ثمن الصادرات يأتي من الخارج ويضاف الى تلك الثروة ، وعكسه التوريد لأنه يستلزم خروج المال لدفع ثمن الواردات ، فالحرب

تأول حتمًا إلى انفاق الثروة الموجودة

كانت ألمانيا تصدر سنوياً قبل الحرب ما قدره ١٢.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك وتستورد بنحو هذا القدر. أما الآن فلها لا تستطيع ألا تصدر شيء قليل للدول المحايدة في حين أنها تضطر إلى استيراد أشياء كثيرة منها. فكان من نتيجة ذلك أنها لجأت إلى الاقتراض وأرسل الذهب إلى الخارج لدفع ثمن مشتراها. ولا يمكن أن تدوم هذه الحال طويلاً لأن المخزون من الذهب عند كل دولة محدود القدر

٣ - أثر الحروب في الشعوب

كان أثر الحروب فيما مضى محصوراً في قسم صغير من الشعب، فقد كانت صعوبة النقل تجعل مقاطعات الدولة الواحدة كأنها منفصلة بعضها عن بعض ولم يكن أعظم الجيوش إذا ذاك يتجاوز عددها مئة ألف. أما اليوم فبفضل وسائل النقل أصبح ملايين الرجال يزحفون على مقاطعات برمتها يذشرون فيها الخراب والدمار. وقد نال المقاطعات الفرنسية التي اكتسحها الألمان قسطاً وافراً من النهب والتخريب وقدر الألمان أنفسهم قيمة المسلوب في البضعة الأشهر الأولى للحرب بنحو مليارين من الفرنكات. أما البلجيكي فقد قدر أحدهم ما فقدته أثناء الاثنين والثمانين يوماً الأولى بنحو ٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك ولا يخفى أن ألمانيا ما برحت منذ ذلك الحين تستنزف البقية الباقية من ثروة ذلك الشعب النشط

وقد حلّ ببولونيا وغانيسيا وأرمينيا مثل ما حلّ بالبلجيكي وشمالي فرنسا. واليك فقرة من جورنال جنيف بخصوص بولونيا قالت:

قد شملت الحرب ثلاثة أرباع بولونيا ويقال إن ٥.٠٠٠ قرية و ٢٠٠ مدينة قد دمرت وأحرقت وسلبت. ولم يعد في تلك البلاد صناعة أو تجارة تذكر بل إنك تجد الفقر والجوع والأمراض حيثما سرت. ويؤكد بعض الشاهدين أنه قد مات من الألمان في بولونيا أكثر مما قتل من الجنود

وإذا كان هذا ما تم في البلاد المتعدنة فليتصور القارئ ما حلّ بالبلاد الآرمينية البعيدة عن الحضارة. فقد بلغ فيها الذبح والأحراق والسلب والهلاك والجوع والفقر من الهول والفظاعة ما لم تره عين ولم تسمع به أذن

٤ — خسارة الرجال

قد فقت الخسارة في هذه الحرب كل ما دونه التاريخ . على انه من العسير الآن الحصول على ارقام صحيحة . واليك ارقماً رسمية عن خسارة فرنسا في ١٥ فبراير واول مايو سنة ١٩١٥ :

لغاية ١٥ فبراير	لغاية اول مايو	
١٨٦ ٥٤١	٣٢٧ ٠٠٠	قتلى
٤١٥ ٨٦٣	٥٩٢ ٠٠٠	جرحي
٢٤٣ ٣٢١	٣١٧ ٠٠٠	اسرى ومفقودون

ولا يدخل في ذلك خسارة معركة اراس (يوليو سنة ١٩١٥) ومعركة شيبانيا (سبتمبر سنة ١٩١٥) . وعلى فرض ان نصف الجرحى يعودون الى ساحات القتال يصح القول بان خسارة فرنسا في السنة الاولى للحرب بلغت مليوناً

أما المانيا خسارتها تبلغ اكثر من ضعف خسارة فرنسا في المدة نفسها لانها تحارب في ميدانين معاً اولاً ولانها تهاجم بصفوفها السكيفة ثانياً

وبجمع خسارة الدول المتحاربة كلها يظهر انها لا تقل عن ستة ملايين من الرجال للسنة الاولى ، هذا فضلاً عن الاسرى

وستان بين هذه الارقام وخسارة اعظم المعارك السالفة . خذ مثلاً معارك نابوليون الكبرى كيننا وواجرام مثلاً فلم تزد خسارة الاعداء في واحدة منها على ٣٠ ٠٠٠ ، الا في معركة ليبسيك حيث بلغت خسارتهم ٦٠ ٠٠٠

ان اعظم المعارك الماضية أشبه اليوم باشتباك بسيط بين الكشافة تذكره البلاغات الرسمية في بضعة اسطر

٥ — نفقات الحروب الحديثة

البون شاسع بين نفقات هذه الحرب ونفقات الحروب الماضية . فان حروب نابوليون مدة عشرين سنة لم تكلف انجلترا اكثر من ٢١٥ مليار فرنك . وبلغت نفقات حرب القرم مليارين ، وحرب الترنسفال نحو الخمس مليارات

اما اليوم فان نفقات اليوم الواحد تقدر بملايين الجنيهات . قال المسيو هلفريخ المالي الالماني في خطاب القاه بمجلس الريشتاغ بتاريخ ٢٠ اغسطس سنة ١٩١٥

« إن نفقات شهر واحد تزيد الثلث على مجموع نفقة حرب سنة ١٨٧٠ »
ومن أهم أبواب الانفاق المدافع والدخائر . فن الدردنوت لوأحدة تحرق ١٩ ضاً
من الفحم في الساعة إذا كانت ساثرة على أعظم سرعتها . وفي كل ساعتين تقدر ان
تطلق ١٥٠ مدفعاً من مدافعها الاثني عشر وقيمة ذلك خمسة ملايين فرنك . وقيمة
الطلقة الواحدة من مدفع ٣٠٥ مليمترات يزيد على خمسة آلاف فرنك . اما مدافع ٧٥
الصغيرة فن القنبلة الواحدة من قذبلها تقدر بثلاثين فرنكاً
وقد نشر احد الاختصاصيين في جريدة الماتان بتاريخ ٩ يوليو سنة ١٩١٥
التقديرات التالية :

ذكر بلاغ رسمي فرنسي صدر في ٢٧ يونيو ان مدافعنا اطلقت في ٢٤ ساعة ٣٠٠٠٠٠٠
قنبلة في جهة اراس . وهذا القدر يعادل تقريباً كل ما اطلقته مدافع الميدان في حرب سنة ١٨٧٠
ويبلغ وزن هذه القنابل ٤ ٥٠٠٠٠٠٠ كيلوغرام أي ان نقها قد استلزم ٣٠٠ عربة
كبيرة من عربات السكة الحديدية . ولو نقلت على طريق العربات لزم لها ٤ ٠٠٠ عربة بحر
كلا منها ستة رؤوس من الخيل . وتقدر نفقة هذه القنابل بنحو ٩ ٣٧٥ ٠٠٠ فرنك

وهناك امور كثيرة تفردت فيها هذه الحرب . فمن ذلك ان العالم الكيكي الكبير
السير وليم رمسي بين في اكتوبر سنة ١٩١٤ ان المانيا تنفق يوماً الف طن من القطن
لاجل صنع الدخائر الحربية . وانه لو منع الحلفاء توريده الى المانيا لاضطرت الى التسليم
في افريل من السنة التالية

ومن أبواب النفقة ما فرض على الحكومات من اعالة اسر الجنود فقد انفقت
الحكومة الفرنسية وحدها في هذا السبيل ١ ٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك (أي ثلث الميزانية
السوية المعتادة) الى تاريخ ٣٠ يوليو سنة ١٩١٥ ووزعتها على ٣ ٢٥٣ ٣٦٧ نفساً
تلك ارقام تساعدنا على ادراك ما تستلزمه الحرب من النفقات الباهظة . وقد
اضطرت جميع الدول المتحاربة الى عقد القروض . وفي امكانها ان تكرر هذا
الاقتراض الى ان تستنفد مال الجهور والمصارف فيضطر احد الفريقين الى التسليم حتماً
ولا شك ان هذا العامل سيمنع دوام الحرب زمناً طويلاً كحربي الثلاثين سنة^{٥٥}
والثلة سنة فيما مضى

٦ — مدة الحروب الحديثة

فترى مما تقدم ان هذه الحرب سوف تنتهي بفعل العوامل الاقتصادية لا الحربية

فان حرب الخنادق لم تبق الا أملاً ضعيفاً بتفوق أحد الفريقين تفوقاً ينياً . والميسور لكل منهما انما هو فل قوى الآخر تدريجياً . فالفريق الذي تضعف قواه قبل غيره هو المغلوب

ورب قائل يقول ان حروب نابوليون دامت نحو عشرين سنة فالجواب ان وسائل التخريب كانت قليلة وفعلها كان محصوراً . فقد خسرنا في سنة واحدة من المال والرجال اكثر مما فقدته فرنسا في طول تلك المدة

وتختلف مدة الحروب التي تواتت منذ نصف قرن : فحرب القرم سنة ١٨٥٤ استغرقت سنتين وحرب الترنسفال (١٨٩٩) سنتين ونصف . ودامت الحرب الاهلية الاميركية خمس سنوات . غير ان معظم الحروب الاخرى انتهت في مدة أقصر من تلك . فحرب السبعين بين فرنسا والمانيا لم تدم اكثر من ستة أشهر والحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤) دامت ١٨ شهراً والحرب الاسبانية الاميركية (١٨٩٨) أربعة أشهر والحرب البلقانية الاولى (١٩١٢) خمسة أشهر ، والثانية ستة أسابيع ولعل أقرب تلك الحروب الى هذه الحرب هولاً وفظاعة الحرب الاهلية الاميركية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب . فانها لما انتهت سنة ١٨٦٥ كان لدى الولايات الشمالية مليون جندي ولدى الولايات الجنوبية ٧٠٠ . ٠٠٠ جندي . وقد زادت خسائر الفريقين على المليون . وبلغ الحماس فيها مبلغاً عظيماً جداً حتى ان النساء بعن حليهن وكل ما لديهن واقترحن اخيراً ان يخلقن شعورهن لتباعد في الاسواق الاوربية

الفصل الثاني

غوامض المعارك الحربية

١ — قيمة البلاغات الرسمية عن المعارك

لست أبغي في هذا المقام وصف معارك الحرب الاوربية وانما غرضي ان استخلص منها بعض التعاليم البسيكولوجية . فمن تلك التعاليم اثر الارادة في الخطط الحربية ، ومنها العواقب الوخيمة الموقوفة على ضعف النظر . وقد وجدت في تلك الوقائع ايضاً ما يثبت النظرية الآتية وهي انه من المستحيل ان نعرف بالضبط تفاصيل الحوادث متى كان مشاهدوها يعدون بالآلاف ، ولا شك ان معلوماتنا عن حقيقة الحوادث التاريخية الكبرى قاصرة جداً

ولا يمكن الاعتماد على البلاغات الرسمية التي يصدرها الفريقان لسببين : أولاً لان الدولة قد تضطر الى التكم والسكوت إما لأغراض حرية او لتستر انكسارها أو تقهرها ، وثانياً لان بعض الدول تعتمد تشويه الحقيقة والكذب في بعض الاحيان خشية تهيج الرأي العام . وقد أظهر الالمان براعة خاصة في هذا الفن ومن سيئات خطة التكم والسكوت ان انكشاف الحقيقة محتم عاجلاً أو آجلاً . ولعل اركان حرب الجيش الفرنسي كان مخطئاً في بدء الحرب اذ التزم خطة السكوت حتى ان السواد الاعظم من الفرنسيين لم يدروا ان الالمان كانوا على مقربة من باريز الا بعد انتصار المارت . ومن جهة أخرى فقد كانت البلاغات تنشر أخبار السفك والنهب والاحراق وسائر فظائع الالمان ، فكانها بذلك خدمت الالمان الذين كانوا يتمنون بلا شك لقاء العرب في قلوب الفرنسيين حتى لا تطول مقاومتهم

غير ان لاركان الحرب عذراً في ذلك . فقد دلت الحوادث السابقة على ما قد ينجم عن ضغط الرأي العام من التدابير السيئة . ففي سنة ١٨٧٠ كان الرأي العام سبباً في انتخاب القائد بازين لقيادة الجيوش الفرنسية ، وفي ارسال الجنرال مكماهون الى سيدان

وغير ذلك من الغلطات . كذلك حدث في الحرب الاسبانية الاميركية فان الرأي العام هو الذي دفع الحكومة الى ارسال الاسطول الاسباني الى كوبا . ولما كان ميناؤها ضيقاً فلم تتمكن البوارج الحربية من الخروج لآ واحدة واحدة فكان كسرها من أسهل الأمور على الاسطول الاميركي

٢ — معركة المارن وتضارب الآراء فيها

وهناك عوامل اخرى تجعل تدوين الحوادث بالضبط صعباً جداً . بل قد تتضارب أقوال قائدين اشتركا في معركة واحدة ، اذ يسعى كل منهما في بيان فضله ومهارته . وقد يفعل ذلك مدفوعاً بدافع داخلي من غير أن يشعر به وأفضل مثال تقدمه على صعوبة ادراك الحقيقة معركة المارن فان وقائعها لا تزال غامضة الى اليوم ويحسن بنا في هذا المقام ان نراجعها لعلنا نستطيع استجلاءها :

يعلم القراء ان اركان حرب الجيش الفرنسي كان يتوقع هجوم الالمان من جهة الازانس . وليس هذا مقام البحث عما بعث على هذا الوهم ولا سيما ان الكتاب الحربيين من الالمان (وفي مقدمتهم الجنرال برناردي) ينوون صريحاً الخطة التي يتبناها الجيش الالمانى في حال محاربته الجيش الفرنسي . وقد تُرجم كتاب الجنرال برناردي عن « الحرب اليوم » الى اللغة الفرنسية ونشر في سنة ١٩١٣ ووردت فيه تفاصيل الهجوم الالمانى كما تم فعلاً في صفحة ٣٣٧ من الجزء الثانى

كان غرض الالمان الاول الاستيلاء على باريز لانه يؤدي الى نتيجة حاسمة . وكانوا يعتقدون انه متى تم لهم ذلك تضطر فرنسا الى التسليم وعقد الصلح فيتسنى لهم اذ ذاك التحول الى جهة روسيا وقهرها . وقد ثبت اليوم من مصادر مختلفة ان الالمان كانوا عازمين على احراق باريس حياً حياً لحمل الحكومة على قبول الصلح . وقد فصل تلك الخطة كل من الميسوتروليو عضو مجلس الشيوخ في جريدة لافرنس بتاريخ ٢ افريل سنة ١٩١٥ والمسيولا فيس المؤرخ الشهير في مجلة باريس ، واليك مجملها :

كان غرض العدو ان يحرق اقسام باريس السبعة القسم بعد الاخر . فذا لم تقتنع الحكومة الفرنسية بضرورة الصلح بعد احراق القسم الاول أحرقوا القسم الثانى وهام حراً . ولم يبق رب اليوم انهم كانوا ينوون اتيان هذا العمل الشنيع . ولا غرابة في ذلك فقد قل أحد أسلافهم وهو القائد جنسريك الجرمانى منذ مئات السنين « ان دافعاً داخلياً يدفعني الى احراق رومة »

ولا شك انه لو تمت تلك الاماني الوحشية لكان ذلك الحادث من أعظم حوادث التاريخ، وكانت نتائجه أعظم من نتائج استيلاء الاتراك على الاستانة سنة ١٤٥٣ وسكن باريس لا تزال قائمة واتخذ الله . وقد تم خلاصها بعوامل يجدر أن تتخذ حجة على الذين يعتقدون بان مجرى التاريخ مرسوم لا يستطيع الانسان تحويله . فان ارادة الانسان قد تأتي بالمعجزات وتقف في سبيل أمور تعد مقضية

وقد كانت خطة القائد العام للجيش الفرنسي تقضي بالتقهقر الى جنوبي باريس . ولكن تلك الخطة تغيرت فجأة اذ وقف التقهقر اثر اتجاه ميمنة الجيش الالماني بقيادة فون كلوك الى الشرق بعد أن كان المتوقع هجومه على باريس . وهنا يعترض الباحث سؤالان خطيران : (١) لماذا رجع القائد العام الفرنسي عن مواصلة التقهقر وفقاً لخطة الاولى (٢) لماذا عدل الجنرال فون كلوك عن مهاجمة باريس واتجه شرقاً بعد أن أصبح على أبوابها

اما السؤال الاول فليس من السهل الاجابة عليه ولدينا تعليان معقولان : فالتعليل الاول هو ان الحكومة الفرنسية طلبت الى القائد العام وقف التقهقر . والتعليل الثاني هو ان القائد العام اغتم فرصة تحول الجنرال فون كلوك شرقاً فهاجمه . ولعل الاصح ان هذين العاملين اتحدا معاً

بقي السؤال الثاني : لماذا عدل الجنرال الالماني عن الهجوم على باريس بعد ان أصبح على أبوابها ؟ يعتقد فريق من المؤمنين ان ذلك تم باعجوبة الهية . والحقيقة ان مرجعه عوامل حربية وبيكولوجية

اننا نعلم يقيناً ان الجنرال فون كلوك كان على ثقة من دخوله باريس فلماذا عدل عنها ؟ لا بد لنا هنا من التخمين : فربما فضل ذلك التائد ان يضيف الى الاستيلاء على باريس فخر الاحداق بالجيش الفرنسي وأسرره . الا أنه لم يحسب حساباً لجيش الجنرال مونوري الذي تألف بسرعة عظيمة من عناصر مختلفة وأرسل لمهاجمة ميمنة جيش فون كلوك التي لم تكن محمية كما ينبغي

هذه كلمة اجمالية وان يتسنى لنا الوقوف على حقيقة هذه المعركة العظيمة الا بعد زمن طويل . على ان الذي لا ريب فيه هو انها أعظم حادث حدث في تاريخ فرنسا وقد جاءت دليلاً على ان الانسان قادر بعزمه وارادته على توجيه تاريخه

الفصل الثالث

عقبات الصلح

١ — صعوبة الصلح

دون الصلح عقبات كثر قد لا تظهر لأول وهلة ، حتى على فرض ان الجيوش الالمانية قد كسرت كسراً تاماً وان الحلفاء دخلوا برلين . فانه من العسير ان يضمن الحلفاء دوام الصلح وان تتلاشى في الالمان فكرة الثأر من فرنسا وحلفائها . وقد وقع نابليون في مثل هذه الحال اذ ظن نفسه قد امن شر بروسيا بعد سحقها في يانا ولكنه ما لبث بضع سنوات حتى دخلت الجيوش البروسية باريس والذي يترأى لنا هو ان هذه الحرب بدء سلسلة حروب أخرى قد تدوم زمناً طويلاً ويتخللها فترات سلم . ولكي تكون تلك الفترات طويلة بعض الطول — أي نحو ١٠ أو ١٥ سنة — يجب ان يكون أحد الفريقين منهوك القوى ومفلساً افلاساً تاماً . ولقد عرف التاريخ حروباً لم تاتمه الا بالحرب التام في إحدى الجهتين . نذكر منها الحرب الاهلية الاميركية . قال أحد مؤرخيها :

سوف يذكر الاميركان طويلاً حريم الاهلية التي دامت خمس سنوات . تلك الحرب التي خاض غمارها الفريقان بزم وحزم شديدين الى ان فرغت مرافق الولايات الجنوبية واستنفدت مالها ورجالها

ولا شك ان الصلح المبكر وخيم العواقب للحلفاء . يكفيك برهاناً على ذلك ان تطلع على مرامي المانيا وامانيها . وهذه شروط للصلح الالمانى ذكرها الكونت برنستورف سفير المانيا في الولايات المتحدة قال :

يجب ان تكسر فرنسا ونجول دولة صغيرة كالبرتمال حتى ولو استمدى ذلك قتل خمسة ملايين من الفرنسيين . وان تزرع منها مقاطعات كبيرة يبلغ عدد سكانها ١٥ مليوناً . وان تدفع غرامة قدرها عشرة مليارات . وان تشتري أسلحتها من المانيا . وان تجبر على هجر اسكتلندا وروسيا . وان تمقد محالفة مع المانيا تربطها لمدة ٢٥ سنة . . .

والتي فترة من مذكرة سرية أرسلتها الجمعيات الكبرى الزراعية والصناعية إلى المستشار الألماني بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩١٥ . قلوا :

يجب اغضاع "العصبة" لأمريكا لاتانيا اقتصادياً . وإن نضاف إلى العصبة البلاد الفرنسية المحاذية لها . وإن تستولي ألمانيا على الحصون الكبيرة ولا سيما فردون وبنهور . وإن يضرد الفرنسيون الغاطنون تلك الجهات ليحل محلهم الألمان . أما من جهة روسيا فيجب الاستيلاء على بولونيا وعلى ولايات الباطيك وقد وافق على هذه الشروط عدد كبير من اساتذة الألمان في منشور أمضوه ، بل زادوا عليها الاستيلاء على جميع المستعمرات الفرنسية

وبستمل أيضاً على مرابي ألمانيا من خطب المستشار ووزير المالية في مجلس الريشتاغ وخلاصتها انه يجب افلاس العدو واستنزاف موارده . وقالت غارت فوس الألمانية بتاريخ ١٩ أغسطس أثر خطاب للمستشار الألماني ما يأتي :

لما كنا نحن الشعب الأمل فكلواجب علينا من الآن فصاعداً ان نقود الانسانية بأسرها وأنها لطيفة لا تتغير لما اذا حايثنا شعوباً أحط منا

فلا يجب ان تبرح من ذهنا تلك الأقوال وأمثالها . وقد أصاب رئيس الجمهورية الفرنسية اذ قال في احتفال ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ :

ألا طيلم انداؤنا — ولا بقنوا — ان فرنسا لن ترضى بصلح مؤقت لا يكون الا تمهيداً لحرب اعظم واعظم من هذه الحرب ولا تستطيع ان تبقى حياتها مهددة لهجمات جديدة واطار مهلكة

٢ — اسباب الحروب الآتية

مهما تكن شروط السلم التي يتفق عليها الفريقان فسوف تكون العقدة الكبرى للدول الاوربية بعدئذ ابعاد أسباب الحرب بقدر المستطاع ويرجح الآن انه سيكون لمبدأ الجنسيات شأن كبير في تكوين خريطة اوربا الآتية عوضاً عن مذهب التوازن الدولي القديم العهد

ان مبدأ الجنسيات (الذي يقضي بجمع اهل الجنس الواحد معاً) صحيح نظرياً ولكن يتعذر العمل به في بعض الجهات التي اشتد فيها اختلاط الشعوب المختلفة ، كالبلقان مثلاً . وستظهر مشاكل سياسية — في القارة الاسيوية — فضلاً عن المشاكل الاوربية ، ولا سيما بين اليابان والصين . وقد نالت اليابان امتيازات

اقتصادية خطيرة في البلاد الصينية أثر الخلاف الذي حدث اثناء الحرب الاوربية .
وسيكون من نتائجها ان يسيطر اليابانيون على الاسواق الصينية — وهي أهم اسواق
اسيا — ويقل فيها النفوذ الاوربي

٣ — رأي الكتاب الاجاب في نهاية الحرب وحالة اوربا بعد السلم

مستقبل اوربا مظلّم يتعذر استجلاؤه في الوقت الحاضر . فكل يرى بشأنه رأياً
يتفق مع مزاجه وعقله . على انه يحسن بنا ان نلقي نظرة على تلك الآراء . وسأنتخب
منها ما كان صادراً من رجال معروفين
قال الاستاذ ماير (من جامعه برلين) ما يأتي :

نعلم امراً اكبراً وهو ان رجوع الحال على ما كانت مستحيل : فسوف يختلف شكل
العالم عما عهدناه . وستنشأ مشاكل جديدة ينبغي حلها . وتسقط مسائل كان يظن انها حلت
حلاً نهائياً

سيكون بين نتائج هذه الحرب التي شهرتها انكلترا (!) ازدياد نفوذ اليابان وتقدمها تقدماً
عظيماً جداً ومن ثم يبدأ نزاع عظيم للسيطرة على المحيطين الباسفيكي والهندي . فكون انكلترا
تتحالفها مع اليابان كأنها قوت عدوها وهددت حياتها وحياة المدينة الاوربية

وكتب الكونت اندراسي المجري مقالة عنوانها « الحرب العالمية والحريّة » بين
فيها ان الخطر المقبل ليس من جهة اليابان بل من جهة روسيا صاحبة الاراضي الواسعة
والموارد العظيمة . قال « متى تنظمت تلك القوى الكامنة أصبحت اكبر خطر يهدد
اوربا »

اما من جهة المانيا فلمسألة هي : هل تنحلّ وتستقل دولها واماراتها ام تبقى
تحت النفوذ البروسي ؟ يعتقد المسيو باينس سفير البلجيكي في براين سابقاً ان الأرجح
بقاؤها متحدة لما استفادته جميعاً من ذلك الاتحاد قل :

قد كانت الحماسة في المقاطعات الالمانية غير بروسيا تعادل حماسة اهل بروسيا انفسهم بل ان
المظاهرات كانت اشدّ دفقاً في موانخ (ناصعة بافريا) منها في براين . وكذلك في درسدن (عاصمة
ساكس)

ويمجدد بنا ان نذكر أقوال الاستاذ استريث فانه من الالمان القليلين الذين لم
يتعاملوا عن حقيقة الحال قل :

لنفرض ان المانيا نصرت نصراً تاماً او لنفرض ان الحلفاء هم الذين احرزوا النصر فهل

يمكن ان تسوم الحال ؟ لا نظن ذلك . ممكن ان المانيا لن تستطيع وحدها الوقوف في سبيل الشعوب الاسيوية . كذلك الحلفاء لا يستغنون عن المانيا التي هي حاجز طبيعي بينها وبين آسيا . فان يتيسر بقاء المدنية الاوربية بالاتحاد الدول المظمى الثلاث أي المانيا وانكلترا وفرنسا

تقتصر على تلك الامثلة وهي تبين انه يتعذر على أحد الفريقين ابادة الفريق الآخر معها . يمكن النصر عظيمًا . وان قيام فرنسا بعد انكسار حرب السبعين واسترجاعها قوتها ونشاطها مما يؤيد هذا الرأي

ثم ان هناك أمراً جوهرياً لم نعره التفاتاً بعد . وهو ان نظام المانيا السياسي — مع ما هو عليه من الصبغة الاستبدادية — لا يزال خلف نظمات الشعوب الديمقراطية — كاميركا وانكلترا — بقرن على الاقل . فلا بد ان تتطور المانيا في هذا السبيل وينال الشعب الالماني ما ناله الشعوب المتمدنية من الحقوق السياسية

٤ — دلالة الاختبار على ان الحروب لا تاتي بفوائد محسوسة

كثيرون هم الكتاب الذين ينووا ضرورة الحرب بزعم انها مظهر من مظاهر تنازع البقاء الشامل لكل كائن حي . ومن يلقى نظرة اجمالية على التاريخ يرى انه ليس الا سلسلة حروب عظيمة تفصلها فترات سلم من حين الى آخر

على ان الحرب قد أصبحت شديدة الفظاعة وخيمة العواقب . فان امماً باسرها — لا جيوشاً فقط — تحارب اليوم . ولا بد ان تخلف هذه الحرب ورائها من الخراب والدمار والافلاس ما يتعذر اصلاحه . فهل يأتي يوم تمتنع فيه تلك الحروب أو على الاقل تصبح نادرة ؟

قد يتأتى ذلك لا ببيات فظائع الحرب من الوجهة الادبية بل بالبراهين المادية المحسوسة التي تؤثر في الرأي العام

ومتى تغيرت الآراء تغير السلوك . فقد تقتنع المانيا بعد خرابها وأفلاسها مثلاً من منى الامور الآتية :

أولاً انه ليس من المؤكد ان الالمان شعب مختار للسيطرة على العالم
ثانياً انه قد يلذ قتل الجيران واحراق المدن والآثار ولكن تلك اللذة تكلف كثيراً من المال والرجال

ثالثاً انه قد يثري الناس في هذا العصر بالمنافسة الاقتصادية ولكن الحرب
تخربهم وتفسدهم
رابعاً انه أفضل للانسان ان يتعاطى الاعمال مع جيرانه من ان يقتلهم
خامساً ان الارتباط المادي والمالي بين امم الارض محكم جداً بحيث لا يمكن ان
تعيش امة في معزل عن غيرها
تلك حقائق بسيطة يدركها الانسان متى حكم عقله وتمييزه ولكنها لم تتأصل بعد
في الطبع البشري . وسوف يموت الوف وملايين حتى يعمل الانسان بها

الختام

لقد خبرت أوروبا نكبات عظيمة قبل اليوم . فكانت تمر تلك العواصف الدموية على الاجيال السالفة فيظنها الناس ختام كل شيء ، ثم لا يلبثون ان يروا عالماً جديداً يقوم من بين الانقاض المتراكمة

بل يترأى لنا ان الامم متى دخلت في طور معلوم من تاريخها لا تستطيع أن تقدم الا بفعل تلك الانقلابات العظيمة ، ولعلها ضرورية لترفع عن الامم ضغط الماضي الثقيل وتحررها من أوهام وعادات تأصلت فيها

ان المانيا تضحي اليوم بثروها وسعادتها بحقيقا لرغبتها في السيطرة على الامم فيحقق لنا أن نلعبها . على انه كان في استطاعتها ان تحقق رغبتها عن طريق آخر . فقد كانت على وشك استعمار قسم كبير من العالم استعماراً اقتصادياً ، ولو ترك لها المجال لأصبحت جميع موارد الثروة في يدها

ولكن الالمان أخذوا بأوهامهم فظنوا انهم يستطيعون اعادة تاريخ روما واحراز السيادة التامة على العالم ، ونسوا ان أهل هذه المدينة متمسكون بحريتهم وانه لديهم من الوسائل ما يمنع أي جبار من اخضاعهم . فان معظمهم يفضلون الهلاك على الخضوع للقوة الجبرية

لا نعلم ما تخبئه الاقدار ، فالمستقبل مكتوب في كتاب لا يستطيع العقل البشري ان يقرأ فيه . على اننا وان لم نتمكن من استجلاء المستقبل فالسهل الميسور لنا ان نتبصر في الماضي الذي يحمل في طياته صورة الحاضر والمستقبل

ذكر مونتسكيو في كتابه « أسباب عظمة الرومان وتقهقرهم » ان من الميزات التي كان لها قسط وافر في ارتقاء الرومانيين اعترافهم بصفات أعدائهم وتقديرهم لها حق قدرها . فحقيق بنا أن نعي بدرس الطرق الالمانية الحربية والصناعية . ولا نعي بذلك ان نقلدها تقليداً أعمى بل أن نقبس منها ما يوافق مزاجنا وعاداتنا

يتبين من مراجعة الخطط الالمانية في هذه الحرب انها رمت أولاً الى الاستيلاء

على أرض العدو في جميع الميادين . ولكن الاراضي التي يحتلونها اليوم لا تجديهم نفعا ما زالت انكاثرا محاسر المانيا مجرا وتمنع عنها تجارتها الخارجية التي لا تستطيع ان تحيا بدونها طويلا

وسيكون من منافع هذه الحرب ان نفقدنا بعض الالهام التي كانت سائدة علينا والتي أوشكت أن تذهب بعظمة فرنسا

فقد علمنا عواقب الشقاق والخلاف للذين زرعنا اركان المجتمع الفرنسي . فان الامم التي لا تنجو من الحروب الاهلية تبعد من التاريخ . وان أعداء الداخل يهدون السبيل لأعداء الخارج

ولكي نوطد بناءا الاجتماعي ينبغي لنا أن نبذل كل ما في وسعنا لتطهيره من عوامل الفساد التي تنخر فيه . وفي مقدمة ما يجب الاعتناء به التخلص من سلطة بعض الكلمات الوهمية ، فان كلمات كالسا والتقسيم والاشتراكية والاخاء العام ونحوها تعمي الجماهير عن حقيقة الحال

ثم يجب ان يتمكن فينا الشعور بالواجب واحتمال المسؤولية والتعاون والاتحاد . فقد وهبتنا الحرب هذه الصفات فملينا ان نحفظ بها في السلم كذلك ينبغي سن القوانين الاجتماعية الصالحة والعناية بالتربية الصحيحة — وأخص بالذكر تربية الاخلاق فقد دخلنا في طور من المدنية لا تقوم فيه قائمة للأعمال العظيمة بغير الاخلاق الراقية كالثبات والدقة والنشاط والارادة ونحوها . ولا يستطيع الذكاء مهما يكن عظيما ان يأتي عملا نافعا بدونها

ان الدول الاوربية معرضة اليوم لخسارة أعظم من خسارة ثروتها ورجالها — نعني خسارة بعض الصفات التي هي فخر المدنية وجمالها كالصدق والاستقامة والغيرية والبر بالعهود وسائر صور الشرف في الانسان — وقد قال أحد كبار العلماء الالمان ان مبادئ الحرية والاخاء والمساواة التي تعتمد عليها الهيئة الاجتماعية الحاضرة مقضي عليها بالزوال ليحل محلها قاعدة « تنازع البقاء وبقاء الاصلح » وهي ما يسميه العلماء الالمان بالعدل الحيوي

على ان هذه القاعدة وان كانت سنة الحياة للمدنيا (وهو ما لم يثبت بعد بصورة

قاطعة) فقد بذل العلم جهده ليخرج الانسان من سلطانها ويحمي ضعفه من طواري
الطبيعة الجائرة

فهل نطرح تلك الثمار التي جنبها المدنية جانباً لنرى الاشلاء تتكسد فوق
الاشلاء والنار والحديد ينشران الخراب والجوع والدمار على الربوع الجميلة والآثار
الشائقة ؟ وهل كتب للقوة الجبرية ان تظل حاكمة على الجنس البشري ؟

بلئس التقدم والارتقاء لو كانت هذه آخرته ! وبئست الحياة في عالم يقدرينته
وروثه ليحل مكانهما النزاع الوحشي المتواصل

لا . لن يتم ذلك لاننا لا نريده . ولئن كانت السنن الطبيعية عظيمة فعظيم أيضاً
العلم الذي يخضعها

بل لا يجب ان نكثر من ذكر السنن الطبيعية لاننا لا نعلم منها الا النذر اليسير .
وان السماء والارض تحويان من الاسرار ما لم تحلم به العقول البشرية . فللطبيعة احكام
غير احكامنا ولها قياس غير قياسنا : اننا لا نعرف الا ما كان محصوراً . اما
الطبيعة فلا تعرف حداً غير الانهاية والابدية

ولا يجوز ان تعمينا هذه التأملات الفلسفية عن حقيقة الحال في ميادين القتال ، فلا
يزال العمل شاقاً أمامنا . ولئن كان جانب من أرضنا في يد العدو فلا بأس علينا ما زالت
ارادتنا ثابتة . فلن يجد الفاتح نفعاً من الاستيلاء على الارضين ما زالت روح الامة سليمة قوية
ظن هنيئال بعد ان نال النصر على آخر الجيوش الرومانية في معركة كان انه ذل رومية الى
الابد . ولكن ارادة رومية أحييت . وقد شهد التاريخ ان قرطاجنة هي التي بادت وتلاشت
ليس بين امم الحلفاء امة ضعفت ارادتها اذ ان الجميع يفضلون الموت على التسليم .
فهذا العزم كافٍ لضمان النصر ومن المستحيل اليوم أن يوجد جبار يخضع قوماً رغم
ارادتهم . وقد خير نابوليون ذلك في اسبانيا فمع انه دخل مدنها وكسر جيوشها
لم يستطع ان يخضعها

على قوة ارادتنا قبل كل شي يقف المستقبل . فعلينا ان نتخذ هذا الشعار « النصر
أو الموت » . وليس في الكون ما يستطيع ان يقف في سبيل العزيمة الصادقة لا الطبيعة
ولا الانسان ولا الاقدار نفسها . قد قلت ذلك غير مرة . وها انما ذا اكرره

فهرس الكتاب

٣ مقدمة

٩ تمهيد

الباب الاول

ما يلزم من علم النفس لفهم هذا الكتاب

١٢ الفصل الاول : العوامل الحفية في تاريخ الامم

أدوار الحياة . العوامل الحيوية . العواطف والاهواء . الروح القومية . روح الجماعات
العوامل الروحانية

١٩ الفصل الثاني : تغير الذاتية

في ثبات الذاتية وقبولها للتغير . الارادة الوجدانية والارادة غير الوجدانية .
تقلبات الارادة

الباب الثاني

نشوء المانيا الحديثة

٢٣ الفصل الاول : نشأة القوة الالمانية ونموها

تاريخ بروسيا . الامبراطورية الالمانية والافكار العسكرية . سياسة الفتح في
المؤلفات الالمانية

٢٩ الفصل الثاني : نظرية الدولة ومعنى التاريخ عند فلاسفة الالمان

منشأ النظرية الالمانية لسلطة الدولة . ابتلاع الدولة للفرد . عبادة القوة . علاقة الدين
بالدولة . كيف يشرح الفلاسفة الالمان آرائهم في الدولة والحق

٣٦ الفصل الثالث : نشوء المانيا الاقتصادي

تقدم المانيا صناعياً تجارياً . اسباب تقدم المانيا ووسائلها الصناعية . انتشار التجارة
الالمانية في فرنسا وفي العالم

٤٣ الفصل الرابع : العقل الالمانى الحديث

منشأ المزاج العقلي الالمانى . ميزات المزاج العقلي الالمانى . تأثير النظام العسكري البروسى
في المزاج العقلي الالمانى . أثر القرية في المزاج العقلي الالمانى . وحدة الروح الالمانية
الحديثة

الباب الثالث

اسباب الحرب البعيدة

٥٣ الفصل الاول : الاسباب الاقتصادية والسياسية

الاسباب الحقيقية والاسباب الوهمية . زعم ازدياد سكان المانيا . الحاجة الى الاتساع
والى المنافذ التجارية . المنافسة الاستعمارية . الاغلاط السياسية

٥٩ الفصل الثاني : الضغائن الجنسية

الضغائن الجنسية الناشئة عن اختلاف الامزجة العقلية . الضغائن الجنسية الناشئة عن
اختلاف الدين والمصالح . الضغائن الجنسية الناشئة عن اختلاف المذاهب السياسية .
أثر الضغائن الجنسية في الخلافات السياسية

٦٣ الفصل الثالث : سياسة المانيا الوعيدية . فكرة ثار فرنسا

اتخاذ المانيا سياسة الوعيد . فكرة استئثار فرنسا

٦٦ الفصل الرابع : اثر العوامل الروحانية في منشأ الحرب

العوامل الروحانية . في الحرب الاوربية . اثر الجنس في فكرة السيطرة العالمية . اثر
العوامل الاقتصادية والحرية في فكرة السيطرة العالمية . اكتمال تكون الروح الالمانية .
اجمال العوامل النفسية

الباب الرابع

اسباب الحرب المباشرة

٧٢ الفصل الاول : انذار النمسا واسبوع المفاوضات السياسية

التعاليم البسيكولوجية المستخلصة من المكاتبات السياسية . اسبوع المفاوضات . شكوى
النمسا من السرب . عزيمتها الاكيد على محاربتها . صرامتها في المفاوضات . اعتقاد النمسا
والمانيا بأن ضعف روسيا وفرنسا عسكريا يمنعهما من دخول الحرب . اعتقاد النمسا
والمانيا حياد انكلترا اذا شئت الحرب

٨٠ الفصل الثاني : نقور انكلترا من الحرب

نقور انكلترا الشديد من فكرة الدخول في الحرب . مساعي انكلترا في اوربا لمنع
الحرب . اتهام المانيا لانكلترا بخصوص منشأ الحرب

٨٤ الفصل الثالث : تحول عواطف انكلترا

تحول عواطف الحكومة الانكليزية . تحول الرأي العام الانكليزي عند نشوب الحرب.

أثر انتهاك حرمة البلجيك واكتساحها في الرأي العام الانكليزي

- ٩٠ الفصل الرابع : موقف المانيا والنمسا وروسيا وفرنسا في اثناء المفاوضات
مساعي روسيا وفرنسا لمنع الحرب . رغبة المانيا في حصر الحلاف وترددها في امر الحرب
٩٨ الفصل الخامس : أثر عواطف الجماهير في منشأ الحرب
خطورة الرأي العام . أحزاب الحرب في المانيا . عواطف الدول المتحاربة اثناء المفاوضات
وعند نشوب الحرب

- ١٠٣ الفصل السادس : أثر ارادة الامبراطرة الثلاثة
ارادة امبراطور النمسا والعوامل النفسية الرئيسية في السياسة النمساوية . ارادة امبراطور
روسيا والعوامل النفسية الرئيسية في السياسة الروسية . ارادة امبراطور المانيا والعوامل
التي حملته على اقرار الحرب . العوامل المختلفة التي يحتمل ان تكون قد أثرت في ارادة
امبراطور المانيا اللاوجدانية

- ١١٢ الفصل السابع : النتيجة . من أراد الحرب ؟
خلاصة الحوادث التي أدت الى الحرب . كيف نجيب على هذا السؤال : من ذا الذي
أراد الحرب ؟

- ١١٦ الفصل الثامن : الآراء المتداولة في المانيا وغيرها عن أسباب الحرب
الاساس النفسي للآراء المتعلقة بالحرب . آراء السياسيين الالمان . آراء الجرائد الكبرى
والاساتذة الالمان . آراء العسكريين الالمان . رأي الجمهور في المانيا . آراء المحايدين

الباب الخامس

العوامل النفسية في المعارك

- ١٢١ الفصل الاول : انقلاب الطرق الحربية
العناصر الجديدة في الحروب الحديثة . الخطط الحربية الحديثة . امتداد خط القتال .
الهجوم والدفاع . مقام الحصون والخطادق . مقام المدافع والدخائر . مقام العدد . الحرب
البحرية والحرب الهوائية

- ١٢٩ الفصل الثاني : العواطف التي توقظها الحرب . تكون ذاتيات جديدة
تكون ذاتيات جديدة . الشعور الوطني . أثر روح الامة . حب المخاطرة والمجازفة .
استيقاظ العواطف الدينية في فرنسا ابان الحرب . تطور عواطف الجمهور اثناء الحرب

- ١٣٤ الفصل الثالث : الشجاعة الحربية . منشأها وصورها
الصور المختلفة للشجاعة . البطالة والبأس . أثر العادة في الشجاعة . أثر المدى العقلية
١٣٩ الفصل الرابع : تأثير الاغلاط النفسية في منشأ الحرب

كلمة اجمالية عن ضعف النظر وعدم التبصر في النفسانيات السياسية . ضعف النظر
والاغلاط النفسية في فرنسا . ضعف النظر والاغلاط النفسية في المانيا

١٤٤ الفصل الخامس : الاغلاط الحربية الناشئة عن الاغلاط النفسانية

اثر العوامل النفسانية في الخطط الحربية . الاغلاط الحربية التي ارتكبتها فرنسا بناء على
أغلاط نفسية . اثر الاغلاط النفسانية في الحرب البحرية . الاغلاط الحربية التي ارتكبتها الالمان

الباب السادس

المبادئ النفسانية للطرق الحربية الالمانية

١٤٨ الفصل الاول : الاساس النفساني للطرق الحربية الالمانية

غرض الحرب . حقوق الحرب . المبادئ النفسانية التي يعتمد عليها اركان الحرب الالمانى .
الوسائل النفسانية التي تستخدمها الجيوش الالمانية

١٥٣ الفصل الثاني : تطبيق مبادئ اركان الحرب الالمانية

قصص القتل والنهب والاحراق عن دوفر الاسرى الالمان . قصص القتل والنهب
والاحراق من مصادر شتى . الفظائع المنسوبة . خطة الارهاب وعواقبها الوخيمة . تبرئة
الالمان لانفسهم . التعاليم النفسانية المستخلصة من طرق الارهاب

١٦٠ الفصل الثالث : اثر الطرق الحربية الالمانية

الاثار النفسانية للطرق الالمانية على آراء المحايدين . التأثير في أميركا . الرأي العام في
سويسرا وغيرها من الدول المحايدة

الباب السابع

مجهولات الحرب

١٦٣ الفصل الاول : النتائج المباشرة للحروب الحديثة

تمهيد . آثار الحروب الحديثة . أثر الحروب في الشعوب . خسارة الرجال . نفقات الحروب
الحديثة . مدة الحروب الحديثة

١٦٩ الفصل الثاني : غوامض المعارك الحربية

قيمة البلاغات الرسمية عن المعارك . معركة المارن وتضارب الآراء فيها

١٧٣ الفصل الثالث : عقبات الصلح

صعوبة الصلح . أسباب الحروب الالمانية . رأي الكتاب اللاتين في نهاية الحرب . دلالة
الاختبار على ان الحرب لا تأتي بفائدة

١٧٧ الخاتمة

